

الصِّراعُ بينَ الفِكرَةِ الإسلاميَّةِ والفِكرَةِ الغربيَّةِ في الأقطارِ الإسلاميَّةِ

دارُ النَّدْوَةِ للتوزيع
لبنان

الطبعة الثانية

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية
في الاقطار الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة بين يدي الكتاب

إن هناك صراعاً فكرياً ، بل معركة فكرية في عبارة أصح ، في جميع الأقطار الإسلامية في هذا الوقت ، نحن نستطيع أن نسميها صراعاً ومعركة بين الأفكار والقيم الإسلامية والأفكار والقيم الغربية ، وهي المعركة الحامية الحاسمة الحقيقية التي يخوضها العالم الإسلامي اليوم وهي التي ستقرر مصيره وهي معركة تتضاءل أمامها جميع المعارك التي يغالي في تصويرها أو تهويلها الكتاب والمؤلفون ، فكل معركة - غير المعركة الكبرى التي ننوّه بها - إما معركة محلية ، أو معركة فرعية ، أو معركة وهمية . إن تاريخ هذه الأقطار القديم وحب الشعوب المسلمة للإسلام وصلتها القوية العميقة به ، والاسم الذي قاتل دونه المقاتلون وتيسر به الظفر بالحرية أو المحافظة عليها إذا كانت من قبل ، كل هذه الحقائق تثبت أن هذه الأرض التي نشبت فيها هذه المعركة لا مكان فيها إلا للأفكار الإسلامية والقيم الإسلامية ، ولا يسمح فيها إلا لمنهج ونظام دعا إليها الإسلام .

لكن الطبقة التي تملك زمام هذه البلاد إن عقليتها وثقافتها وتربيتها

ومصالحها الشخصية والسياسية كل ذلك يقتضي أن تزدهر فيها القيم الغربية وأفكارها ، وأن تتبع هذه البلاد الدول الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وهي تغير مفاهيمها الدينية وتقاليدها القومية وقوانينها الإسلامية بالأوضاع الغربية أو تطورها إذا عاكست هذا الهدف وحالت دون الوصول إلى هذه الغاية، وفي عبارة وجيزة تصهر هذه البلاد بتؤدة وأناة ولكن بوعي وإلحاح في بوتقة الحضارة الغربية .

ومن هذه الأقطار ما قد قطع أشواطاً بعيدة في هذه الرحلة ووصل إلى هدفه المنشود أو كاد ، ومنها ما وقف حائراً على مفترق الطرق ولكن يبدو أن مواعده قريب .

إنني أعتقد أن ذلك أضخم مشكلة للأقطار الإسلامية، وهي مشكلة حقيقية لا صلة لها بالأوهام والأحلام ، إن ضعف الأقطار الإسلامية الداخلي ونفوذ الحضارة الغربية واحتلالها واستيلاء الأفكار الغربية المادي والسياسي يرسم في الأفق علامة استفهام واضحة ضخمة أمام الأقطار الإسلامية كلها ، ولا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة بدون أن تجيب عليها جواباً حاسماً .

أي موقف تتخذه هذه البلاد نحو هذه الحضارة ؟!

وأي منهج تسير عليه لتوفيق مجتمعتها بالحياة العصرية وتحقيق مطالب العصر الحديث ؟!

وإلى أي مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخلقية لمواجهة هذه المعضلة؟

إن وضع الجواب على هذا السؤال هو الذي يحدد مكانة هذه الشعوب في خريطة العالم ويعرف به مستقبل الاسلام في هذه البلاد ومدى وفائها لرسالة الاسلام الخالدة العامة .

كنا نشعر بحاجة شديدة إلى استعراض هذه المسألة وما قام به العاملون الموجهون من جهود في اتجاهات مختلفة ، ودراستها دراسة مؤرخ محايد وباحث نزيه ، وتحليلها من غير بخل واسراف ، والتنبيه إلى طريق سوي لنهضة المجتمع الإسلامي الذي لا يتحتم عليه التمسك بالعقائد والأخلاق ومنهج الحياة الاسلامية فحسب ، بل تقع عليه مسؤولية الدعوة والتوجيه والقيادة والوصاية على العالم أيضاً، ولا يتحتم عليه المسيرة لركب الحياة السريع فحسب بل قيادته كذلك .

إن جميع الاقطار الاسلامية وأخص منها ما تحررت حديثاً في حاجة إلى بحث عميق في هذا الموضوع لان أدنى انحراف أو زلة قدم سوف تهوي بها إلى مكان سحيق وتبعدها عن هدفها الصحيح بعدة قرون وأجيال .

وبهذا الدافع كتبت مقالاً سهياً في أوائل سنة ١٣٨٢ هـ لم يلبث أن تحول الى كتاب نشر في شعبان سنة ١٣٨٢ هـ - فبراير ١٩٥٣ باسم « موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية » واعتنت به الاوساط العلمية والدينية في العالم العربي .

وقد أتيح لي السفر إلى أوروبا بعد نشر الكتاب ورأيت مركز هذه الحضارة ومقلها عن كُتب وشاهدتها في بيتها وعقر دارها، واستفدت

من هذه الرحلة في الاطلاع على بعض المصادر العلمية الحديثة ، وزدت فيه زيادات قيمة مهمة جاءت ضعف ما كان عليه الكتاب حتى أصبح بذلك كتاباً جديداً، وهو ينشر الآن تحت عنوان « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الإسلامية » .

وأدعو الله أخيراً أن يوفق قادتنا وزعماءنا إلى فهم مسؤوليتهم الدقيقة الضخمة وأداء هذه المسؤولية بحول الله وقوته بأحسن ما يمكن. وقد ساعد المؤلف في تأليف الكتاب وتقل بعض المواد إلى العربية الاساتذة سعيد الاعظمي ومحمد اجتباء الندوي ومحمد الحسني مساعدة غالية فلهم شكر المؤلف وتقديره ودعواته .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

بستان نورولي - المدينة المنورة

١٣٨٥/١/٩ هـ ١٩٦٥/٥/١٠ م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الموقف الأول

من الحاضرة الغربية

الموقف السليبي

بسم الله الرحمن الرحيم

العالم الاسلامي أمام مشكلة الحضارة الغربية :

واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي مشكلة في غاية الدقة والتعقد والخطورة ، وعلى الموقف الذي يتخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كعالم له شخصيته وكيانه .

هي مشكلة الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحياة والنشاط والطموح وقوة الانتشار والاستيلاء ، وهي من أقوى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ، والتي لم تكن إلا مظهراً من مظاهر العوامل التي تكونت واختمرت قديماً ، وظهرت في أوانها .

واجه العالم الإسلامي هذه المشكلة وجهاً لوجه ، لانه هو زعيم الرسالة الدينية والخلقية، وصاحب الوصاية على المجتمع البشري، بعدما انسحبت الديانات القديمة من معترك الحياة ، وصاحب القوة الكبرى التي يحسب لها الحساب ، وصاحب الدول الواسعة في هذا القرن ، فكان تحدي هذه الحضارة المادية الآلية للعالم الإسلامي أعظم من تحديها لاي أمة ، ولاي حضارة ، ولاي مجتمع بطبيعة الحال .

المزيج الغريب :

وكانت هذه الحضارة - بمعناها الواسع - مجموع عقائد ومناهج

فكرية ، وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية ، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية ، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الاوربية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة ، وكانت مظهر تقدم العلم البشري وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون .

فكانت مزيجاً غريباً من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحداً متشابهاً ، كانت مزيجاً من السليم والسقيم ، ومن الصواب والخطأ ، في النتائج والاحكام . ومن البديهيات في العلم التي لا تقبل الجدل والشك ، ومن التخمينات والتحكمات في الآراء والدعاوى التي تقبل المناقشة الطويلة والجدال الكثير ، ومما هو خميرة من الاختبارات والبحوث الطويلة ومما هو فنج لا يزال في دور التجربة والاختبار ، والنشوء والارتقاء ، ومما لا يختص بإقليم أو عنصر من علوم تطبيقية ، وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعة الاوربية ، وأثرت فيه البيئة الغربية ، وولدت حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الامم ، ومما له صلة قوية عميقة بالدين والعقائد ، ومما لا صلة له بالدين مطلقاً ، وذلك الذي زاد في تعقدهذه المشكلة وخطورتها ، وأخرج مركز العالم الإسلامي ، وكان فيه بلاء ومحنة لذكاء قادته وزعمائه ، وأصحاب التوجيه فيه .

الموقف الأول السلي :

وكانت هنالك ثلاثة مواقف يستطيع العالم الاسلامي أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة ، لا أرى لهذه الثلاثة رابعاً .

كان الموقف الاول موقف السلبية، وهو أن يرفض العالم الاسلامي هذه الحضارة وما جاءت به بتاتا ، ويقف منها موقف المعارض الثائر، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئا ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوربيين فيها التفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئا من الآلات ، والصنائع والاجهزة ، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة .

حكم هذا الموقف طبعياً وشرعياً ، ونتائج :

وهذا لا بد ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة ، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقي العالم، ويكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة، والبر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة ، ولا حرب مع الطبيعة البشرية ، ومنطق الحوادث والحقائق ، وهو - بصرف النظر عن كل هذا - ضيق في العقل ، وتعطيل للقوى الفطرية ، وجناية على الإسلام، وسوء تفسير للدين الذي يحث على استعمال العقل والتفكير في الكون^(١) واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره^(٢) ويأمر باعداد القوة الممكنة للدفاع عن الدين وإرهاب العدو^(٣) وينظر إلى الإنسان كخليفة الله في

١ - «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وحكمهم ويذكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه قلنا عذاب النار». (آل عمران ١٩٠ - ١٩١).

٢ - «الحكمة خالة المؤمن فحيث وجدناها فهو أحق بها» (الترمذي : ابواب العلم).

٣ - «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» ترهبون به عدو الله وعدوكم» (الأنفال ٦٠).

هذه الارض^(١) سخر له البحار والانهار ، وسخر له الشمس والقمر ،
وسخر له الليل والنهار ، وآتاه من كل ما سأل به لسان المثال أو بلسان
الحال^(٢) وامتنّ على عباده بإنزال الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع
للنّاس^(٣) وضرب رسوله المثل لامته باقتباس بعض أساليب الحرب
والدفاع من غير المسلمين وغير العرب ، فحفر الخندق في الاحزاب كما
كان يحفره الفرس . وعلى هذه السيرة سار أصحابه وفقهاء أُمته من
بعده ، فكانوا يسابرون الزمن ويحارون الامم في الاساليب الحربية
واتخاذ آلات الحرب ووسائل القوة ، وتعلم العلوم النافعة ،
ويسبقونها أحياناً .

ولو حاول قطر من الاقطار أن يطبق عينه وسمعه عن تحدي هذه
الحضارة الصارخ ، أو أن يرفضها رفضاً باتاً ، وصمم على أن يعيش في عزلة
عن العالم المعاصر ، منطوياً على نفسه ، لما استطاع ذلك ، ولواجه
ثورات لا آخر لها ، وعصياناً وتمرداً في الداخل ، لانه يعارض الفطرة
الانسانية الوثابة الطموح ، الولوع بالجديد ، الطالبة للمزيد ، الطامحة
دائماً إلى المجد والقوة والتجديد ، ويعارض كذلك السنن الكونية
وطبائع الاشياء، ولو فعل ذلك قطر من الاقطار لتسربت هذه الحضارة

١ - «إني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة ٢٠) .

٢ - «الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات
رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * و- سخر لكم الشمس
والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله
لا تحصوها إن الانسان لظالم كفر» (ابراهيم ٣٢ - ٣٣ - ٣٤) .

٣ - «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» (الحديد ٢٥) .

إلى اسر هذا القطر وييوته ، كما يتسرب الماء في القرية أو المدينة اذا أحاط بها السيل من كل جانب ، وطغى عليها الفيضان .

مصير الاقطار التي تعيش في عزلة عن العالم :

لقد كانت الفترة التي عاشت فيها بعض الاقطار الاسلامية بعيدة عن الحضارة الحديثة بخيرها وشرها ، زاهدة في مرافقها وأساليبها ، منطوية على نفسها ، لقد كانت هذه الفترة دائماً قصيرة مضطربة مهددة بالغزو الحضاري والثقافي من الخارج ، وموجات هذه المدنية العاتية التي تتغلغل الى الجذور والاعماق ، وتذهب بالقيم والمفاهيم ومبادئ الاخلاق ، ويشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة وسعته ، وعرف ضعف هذه الاقطار الروحي والمادي ، وفقد ما يقاوم هذه الحضارة من ايمان وقوة شخصية وثقة ، يشك في بقاء هذه الاقطار في سلخها وحصارها المدني والثقافي والاجتماعي ، ويشك في طول هذه الفترة ، — لانها مع وجود هذا الضعف في الشخصية والفقر في القوة المعنوية — غير صالحة للطول والامتداد ، فضلا عن البقاء والاستمرار .

زار الاستاذ محمد أسد — الذي عاش في أوروبا وتجول في العالم الاسلامي — الجزيرة العربية الوادعة الهادئة في سنة ١٩٣٢م وهي لاتزال متمسكة بتقاليدها العربية الاسلامية أشبه بالماضي منها بالحاضر ، لم تجس خلالها الحضارة الغربية ، ولم تقتحم سورها — الرمي — الاساليب الغربية والمصنوعات الحديثة ، فشك في طول حياة هذه العزلة ، والبعد عن تأثير الحضارة الغربية التي طوقت الجزيرة ، فقال :

«وعندما وصلت بتفكيري الى ذلك الحد ، سألت نفسي فجأة ، الى متى يستطيع زيد ^(١) وقوم زيد (العرب) أن يحتفظوا بتماسكهم الروحي في وجه الخطر الذي يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر وبصورة لاتعرف الرحمة ، أو اللين ؟ نحن نعيش في زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يبقى ساكناً سلبياً في وجه الغرب الآخذ بالإطباق عليه ، ان آلافاً من القوى - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - تطرق أبواب العالم الاسلامي فهل يخضع هذا العالم ويستسلم الى حضارة الغرب ويفقد خلال التفاعل ، لأشكاله وأنظمته التقليدية فحسب بل جذوره الروحية أيضاً » ^(٢) .

نعم لم تطل هذه الفترة فلم تلبث هذه البلاد المقدسة أن غزتها الحضارة الغربية وتدفق فيها سيل المصنوعات الحديثة ، والمستوردات الغربية ، وأكثر من اسباب الترف ومن «الكاليات» فشحت الاسواق، وملأت البيوت ، وقضت على التقشف في الحياة وصفات الفتوة والفروسية التي عرف بها العرب من قديم الزمان ، وكانت من أسباب قوتهم وانتصارهم، وظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة والثقافة والسياسة وعن طريق البترول ، وكان هذا الاتصال وهذا الاقتباس من الغرب في مجال الحضارة والتجارة والثقافة ، عن ارتجال وتهور ومن غير تفكير هادئ، وتصميم سابق، فاصبح هذا الاستسلام ، الذي نخوف

(١) البدوي العربي الذي كان مرافق محمد اسد في مفاصلاته ورحلاته في صحراء العرب ، ودليته في هذه الرحلة .

(٢) الطريق الى مكة ص ١٤٠

منه الاستاذ محمد اسد أمراً واقعاً ، وأصبحت الجذور الروحية – فضلاً عن الاشكال والانظمة التقليدية – مهددة .

ويشعر الاوربيون ويتعجبون من هذا التحول والتطور الجذري وانتشار الاختراعات الغربية في صحارى جزيرة العرب الوادعة الصامته الهادئة ، ووسائل الراحة والطمأنينة ، ووفرة وسائل العيش والترف والبذخ ، وارتفاع مستوى الحياة فجأة ، وتعقد الحياة العملية الساذجة البسيطة من قرون ، يقول مؤلف أميركي Don Ieretz في كتابه The Middle East - to day : (الشرق الاوسط اليوم) .

» وقد ضعفت وتضاءلت المؤثرات التقليدية بثروة الزيت (وساهمته عوامل القوى الغربية) بعد الحرب العالمية الثانية ، ويكاد ينقرض التراث الحضاري القديم المشترك الذي كان يربط الطبقات والاطراف المختلفة المتنوعة ، لان أفراد أسر الشيوخ الشريفة النبيلة الذين أثروا بفضل الزيت والبترول بدؤوا يخضعون للمخترعات الغربية والطرق الغربية الحديثة ، والتقاليد والعادات ، والذوق الغربي ، وأنشأ ذلك في المحيطات والطبقات السفلى اضطراباً وقلقاً ، لانهم لا يستطيعون أن يعيشوا تلك الحياة المترفة الفخمة ، والتفت القبائل البدو حول المدن تاركين رعي الحيوانات واقتناءها مثلاً ، وانهم يوماً فيوماً يعطفون على الطبقة القلقة السفلى العامة الدهماء التي تسكن في هذه المدن ويناصرونها ^(١) ، ويقول في موضع آخر :

The Middle East to day , P 402 (١)

« ومن ناحية أخرى ، ان تدفق الثروة الفجائية التي تجمعت وارتكزت في صندوق الاسرة السعودية - التي كانت تملك القوة الكبرى والسلطان الهائل - ونشرت مع ذلك الرشاء والمحسوية وعدم الشعور بالمسؤولية في الامور المالية بشكل عجيب ، وقد اتلف قسم كبير من الثروة الفخمة الناشئة عن الزيت بالاسراف والتبذير ، وحظيت بها الاسرة الملكية التي لاتشمل الملك وأولاده من هذه الجماعة الكبيرة الواسعة فحسب بل انها تشمل زوجاتهم وأصهارهم الذين يعدون بمئات ، كانوا ينالون المال رأساً من هذه الثروة ، ولم تعد الاسرة السعودية حاكمة في الصحراء وشيخاً وهايباً فحسب كما كانت في القديم ، بل انهم يعيشون عيشة ملوكية شرقية بكل نوع من أنواع الراحة والعيش الرغيد الهنيء ، واشترى عشرات من الانجال الامراء سيارات ثينة ، وبنوا قصوراً عالية شاحخة تتحلى بوسائل الراحة والعيش الحديثة (كمكيفات للهواء وحوض ومساح جديدة للاستحمام والغسل) (١) » .

ويزيد الكاتب فيقول :

« وقد تضاعف ذلك الحماس الذي دافعت به القبائل الوهابية عن العقائد والاسس الاساسية للإسلام ، وامحت تلك الدعوة القوية الى البساطة والتقشف ، ولا ترتفع الآن أصوات التهديد والاحتجاج ضد وسائل الترف والبذخ الاجنبية ، وهي لم تقبل اليوم فحسب بل كل واحد من اعضاء المجتمع وطبقاته يتنافس في احرازها والظفر بها ، والقبائل التي كانت تقطن في الصحراء وتعيش عيشة ساذجة وحياة خشنة على غرار

الحياة الوهاية قد هجرتها وأقامت حول منابع البترول وآبار الزيت ، واعتادوا بعد التحول الى هذه الامكنة تلك الاشياء الغريبة التي اخترعت حديثاً، يشترونها بالمرتبات الفخمة التي يتقاضونها من شركة « آرامكو »^(١) ،

فلا شك ان جزيرة العرب لم تكن تقع فريسة الغرب الى هذا الحد لو قام قادة البلاد بمحاولات جديدة لاكتفائها الذاتي والتخطيط والمشاريع، وبذلوا لها مجهودات مخلصه نزيهة لترقيتها وتدعيمها وتنظيمها على خطط محكمة واضحة ، وتناولوا الحضارة بنقد جريء وتفكير أصيل وعملوا بالمبدأ الإسلامي القديم « خذ ما صفا ودع ما كدر » لو كان ذلك لما تدفقت كسيل جارف عارم على مركز الإسلام ، ولم تكن من نصيب هذه البلاد القشور الظاهرة والمظاهر الخلابه الجوفاء فحسب ، ولكن السلطات الحاكمة قد تجردت عن بعد النظر وعمق التفكير والصبر والجلد الذي يحتاج اليه من يقود هذه البلاد في هذا العصر، وتلقي على ذلك بعض الضوء قصة يرويها محمد أسد في كتابه الشهير « الطريق الى مكة » انه يقول :

أذكر حديثاً مع الملك تبين فيه عدم تبصره وافتقاره الى النظر الإداري ، كان ذلك في مكة عام ١٩٢٨ م ، عندما قام زعيم الحركة الاستقلالية السورية الشهيرة ، الامير شكيب ارسلان ، بزيارة الملك ، وقد قدمني ابن سعود اليه بهذه الكلمات : « هذا هو محمد اسد ، ولدنا ،

لقد عاد الآن من المناطق الجنوبية ، انه يحب السفر بين البدو واستبد الفضول حالاً بالامير شكيب ، الذي لم يكن زعيماً سياسياً فحسب بل رجلاً متعدد جوانب الثقافة وعالمًا واسع الاطلاع ، لمعرفة انطباعاتي عندما علم أنني كنت رجلاً أوريبياً اعتنق الاسلام . ولقد وصفت له بعض وجوه رحلتي تلك الى الجنوب وبخاصة اختباراتي في وادي البيشة الذي لم يزره قط رجل أوربي قبلي ، وكنت قد رجوت خيراً كثيراً من امكانات تلك المنطقة الزراعية الكبرى وتربتها الخصبة ، وفي وفي اثناء سردي للرحلة وجهت الحديث الى الملك وقلت :

« انني واثق ايها الامام ! من ان وادي بيشة يمكن ان يصبح بسهولة مصدر أعظيماً للحنطة وان يؤمن الحجاز كله بها ، بشرط ان يخطط ويعنى به عناية كافية . »

وأرهدف الملك أذنيه . ذلك ان مستوردات الحنطة لقاطعة الحجاز كانت تستهلك كثيراً من مداخل البلاد وكان النقص في المداخل أهم ما يشغل بال الملك . وسألني قائلاً :

« وكم يقتضي من الوقت كي يصبح وادي بيشة كذلك ؟ » .

ولما لم اكن خبيراً ، فإنني لم استطع ان أقدم الى الملك جواباً قاطعاً ولكنني اقترحت ان تشرف بعثة من الخبراء الفنيين من الخارج على تخطيط المنطقة ، وان تقدم اقتراحاتها العملية لتطويرها ، كذلك تجرأت على القول بأنها يمكن ان يصبح الانتاج فيها كاملاً في مدة تتراوح بين خمس سنوات وعشر .

— « عشر سنوات » ! — كذلك هتف ابن سعود .

« ان عشر سنوات مدة طويلة من الزمن . نحن البدو لانعرف الا شيئاً واحداً ؛ ان ما نحصل عليه بأيدينا نضعه في افواهنا ونأكله اما ان نضع الخطط والمشاريع قبل عشر سنوات فشيء يطول امره علينا بأكثر مما ينبغي . »

واذ سمع الامير شكيب هذا الكلام المذهل حذق بي فاغراً فاه ، كأنما لم يصدق أذنيه ، ولم أستطع الا أن أحذق به النظر . . . (١)

التقاليد والعادات لا تستطيع أن تقاوم الحضارة الجديدة :

ولن تطول هذه الفترة — السلبية — في أي قطر من أقطار الشرق لان التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعي أو الاداري الذي ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه وبصيرة ، وليس معه ذكاء وألمعية ، والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادئ الدينية الخالدة على الحياة المتطورة وحاجاتها الجديدة . والتميز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما لا يصلح ، لا يستطيع أن يقف طويلاً في وجه هذه الحضارة العارمة ، وكل قطب أو قيادة تمتي نفسها بالاحتفاظ بالقديم ، والانعصار في دائرتها من غير هذه المقومات التي ذكرناها ومن غير ايمان جديد قوي وعقل واع منتج مهددة بالانهيار عاجلاً أو آجلاً .

واذا لم يكن الاقتباس من الحضارة الغربية ومرافقها ومنتجاتها عن ارادة وتصميم ، وباختيار وتميز ، وعن فقه وبصيرة ، هجمت على هذا القطر

أو المجتمع غصباً ، وعلى الرغم من قادته وولاة الامر فيه ، وعلى الرغم من العلماء وزعماء الدين؛ ورحب بها أهل البلاد ، وفتحوا لها الابواب ، واثمموها - بصالحها وفاسدها - في نهامة وجشع ، واكتسحت القيم الدينية والخلقية وغلب قادة البلاد أو ولايتهم على امرهم ، وأفلت منهم الزمام الى آخر الابد .

لابد من التخطيط وإصلاح الاوضاع :

لقد أصبحت الاقطار الشرقية - من غير استثناء تقريباً - فريسة الحضارة الغربية في الزمن الاخير ، وانجرفت في سيلها العارم من غير امتناع أو مقاومة ، لفقد العقل الراجح المتزن في القيادة وفقد «عملية التمييز والاختيار المحكمة» في الوجهين ، وعدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم في نظام المعارف وتنظيم البلاد تنظيماً جديداً قائماً على التجارب الحديثة . وبسبب وجود نظم وأوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الاسلامية الصحيحة ، لا يقرها العقل والعدل ، ولا تصلح للبقاء في أي عصر من العصور فضلاً عن هذا العصر القلق الثائر .

وهذه قصة افغانستان التي عرفت في الشرق بشدة محافظتها وتمسكها بالقديم والتقاليد الافغانية القديمة ، فقد استطاعت ان تعيش بعيدة عن تأثير الحضارة الغربية محتفظة بتراثها القديم من ثقافة واجتماع تزهده في الجديد الصالح ، حتى رفعت الحجاب بينها وبين الحضارة اخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف . وقد حدثت هناك ثورة في الاوضاع في خلال ٣٢ سنة فاجتمع

الافغاني الذي ثار على امان الله خان الامير العريق في الملك والشرف لاجل اصلاحات وتطويرات قام بها، اضطرته تلك الثورة الى التنازل عن العرش والجلء الدائم، أصبح هذا المجتمع الافغاني يقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الافغانية بخُطى سريعة واسعة، واصبحت أفغانستان المحافظة المصونة تتطور تطوراً سريعاً لايعرف احد مداه ونهايته، ويستطيع الإنسان ان يقدر ذلك بما تقدمه من تقرير لاحد الصحفيين الاوريين، يقول المراسل الاوري الشهير Ritchie Colder للصحيفة الهندية الانجليزية Times of India وقد حضر عيد الاستقلال الافغاني في عام ١٩٦٣ م في عددها الصادر - ٢٨ يوليو ١٩٦٣ م - :

« إن الالعب النارية الواسعة النطاق (التي لم أرها في أفغانستان من ذي قبل) كانت تثير هتافات وتصفيقات نصف مليون متفرج، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالها، وقال لي وزير خارجية أفغانستان (الذي كان بجواري على المقاعد الملكية على شاطئ البحيرة حيث كانت الالعب النارية متواصلة مستمرة) : انك لم تحسن اختيار الوقت الذي تزور فيه هذه البلاد نحن نحتفل الآن بعيد الاستقلال ونحن في متعة وفرح لانستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدمية الخمس سنوات .

قلت له : « لايا صاحب المعالي ! انها فرصة حسنة لاثقة وهي أفضل مناسبة لاختبار مآثر بلاد ومدى تقدمها ، انني أريد أن أرى السيدات

الافغانيات باسمات « وهنالك تقدمت الينا فتاة أفغانية جميلة وابتسمت. ان ذلك يلقي ضوءاً على مدى التطور الذي نشأ في أفغانستان اقوى من الاضواء التي تنير كابل ، بالتخطيط الكهربائي ، ومن مبانيها كلها والصناعات، الحديثة ومن الرقي المادي كله .

كانت نساؤها متمسكات بالحجاب قبل ثلاث سنوات ، وان سمح لهن أن يخرجن لمثل هذه المناسبات ، فكن يأتين اليها متغطيات بالملاء والاردية التي تغطيهن من الارجل الى الرؤوس ، ويخفي وجوههن القناع الذي فتحت فيه ثقب للنظر .

ولكن الآن تغير كل شيء ويشاهد اليوم عدد كبير من النساء اللواتي يشهدن الحفل مستترات بالاقنعة التي تميزهن ولم يتعودن الى الآن ان يكشفن وجوههن بحرية وانطلاق ، ولكن الاغلبية الساحقة من النساء أصبحن سافرات .

يعسر على الذين يسكنون خارج افغانستان ان يقدرُوا مدى تأثير هذا التطور على نساء الافغان ، قد خلع العلماء الملك امان الله خاب وحر عرش آباءه قبل ٣٢ عاماً لانه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة . ويصح ان يقال ان الغاء الحجاب السائد في المجتمع انما جاء عن طريق نظام القابلات ودور الولادة الطبية ، عندما حلت الدكتورة ايناميريا جيد (Anna Maria gada) (وهي الآن رئيسة المركز الاقليمي للصحة الدولية بدهلي) افغانستان من دافرك قبل عشر سنين ، لم هناك في ذلك الحين طبيبة للتوليد ، وكان في افغانستان كلها

مئة وعشرون طبيباً وكلهم كانوا رجالاً ولم يكن يسمح لطبيب أن يفحص النساء ، ولم تكن القابلات المحلية يعرفن بتاتاً طرق المعالجة الحديثة . بدأت الدكتوراة جيد تربي النساء وتعلمهن القبالة ، وكانت تشترك معها سيدات الاسرة الملكية ايضاً ، و اقيمت مراكز التوليد والصحة ، وبدأت تتردد عليها النساء المحجبات كثيراً ولم يتمتعن هناك بفوائد جسمية وصحية فحسب ، بل نشأ بذلك تطور ثوري وتغير جذري في التفكير واساليب الفكر والنظر ، بل عرفن بعد الاجتماع مع الطبييات والقابلات أن النساء يستطعن أن يكسبن ارزاقهن ايضاً بهذه المهنة كالرجال ، واسترعت هذه المراكز الطبية انتباه المريضات إلى خطورة شخصياتهن وشعرن انهن لسن من اثاث المنازل الذي يبقى في زوايا البيت ولا يرى ضوء الشمس .

قد أسست اليوم مستشفيات راقية ممتازة لهؤلاء النساء وألقيت مسؤولياتها وإدارتها على كواهل نساء أحرزن شهادات عالية، يتمسكن بقوانين الصحة وأسسها القوية الحسنة وبغاية من النظافة والاناقة ، ويراعين تلك التقاليد التي تركتها الدكتوراة جيد ويرتبطن بها ارتباطاً وثيقاً .

بدأت نساء الافغان يخرجن سافرات من آب (اغسطس) عام ١٩٥٩ م اثر منشور ملكي سمح للنساء السفر ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً . سألت السيدة معصومة الكاظمي وكانت قد تخرجت من جامعة كابل لشهادة الليسانس الداخلية في الطب وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة ، ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور ؟ . .

قالت : انني وأختي طرحنا الملاء وأردية القناع في التنور وسجرناها وحلفنا أننا لا نرجع اليها أبداً، ان معصومة وأختها فيروزة ابنتا صاحب مصرف وانهما ستكلمان دراستهما الطبية وتحريزان شهادة الدكتوراه في سنة ١٩٦٥م ، وسيخرج الفوج الأول للطبيبات بعد انهاء مناهج الطب لسبع سنوات عام ١٩٦٤ م .

ويوجد التعليم المختلط في جامعة أفغانستان اليوم ، وكانت الطالبات في السابق ، يأتين متغطيات بالأردية والملاء الساترة ويدرسن في الصفوف المستقلة المنقطعة عن الطلاب ، والدراسة والترقية في الجامعة مجانية ، تدفع الحكومة الرسوم الجامعة والكتب والملابس والأطعمة وسيخرج عدد كبير من الطالبات من الجامعة ويعين معلمات في الجامعة ، والجامعة الآن في حاجة ماسة ملحة إلى الأساتذة الرجال والنساء ، لأن الدراسة في الجامعة تعتمد إلى حد كبير على الاساتذة الاجانب ^(١) .

وتكاد تكون هذه قصة اليمن ، وجميع الاقطار الإسلامية التي أقامت حولها سوراً عالياً يمنع من دخول كل جديد ، من العلوم المفيدة والتنظيمات الصالحة ، والوسائل البريئة وطرق ترفيه الشعب ، وتقوية البلاد عسكرياً وصناعياً وتموينياً .

وتستطيع ان تقدر إلى حد ما حالة اليمن ، ومشاريعها التقدمية ونظمها الادارية الداخلية وعلاقاتها الدولية ، وسيرها في مضمار الحياة الراقية الحديثة

إلى عام ١٩٥٥ م ، من المعلومات التالية التي التقطها المشرف على ركن الشؤون العربية في الصحيفة السيارة « روز اليوسف » الاسبوعية المصرية « الاستاذ ممدوح رضا » في مقابلة صحفية مع نائب وزير خارجية اليمن السيد محمد عبد الله العمري ، ونشرتها الصحيفة في عددها الصادر في ٧ من فبراير (شباط) سنة ١٩٥٥ م محادثة جرت بينهما ونصل منها إلى حقائق تالية :

لم يجر في اليمن إحصاء عام منظم إلى عام ١٩٥٥ م وكانت وسائل الدخل مقصورة على الضرائب والجمرك ، وكانت الزراعة وحدها وسيلة العيش والحياة لسكانها ، للريّ طريقان اثنان فحسب : الامطار والآبار ، وكانت ميزانية البلاد السنوية خمسة عشر مليون ، وكان رصيد البلاد وثروة الإمام الخاصة لا تتجاوز ٨٠ مليون جنيه .

ولم تكن شوارع في البلاد عامة ، وفتح شارع طويل يمتد ١٢٠ كم بين البلدين « مخا » و « تعز » قبل زمن يسير ، ولم يكن تاماً مبلطاً الى سنة ١٩٥٥ م .

وكان ستائة كتاب في البلاد ، وكانت مدارس ابتدائية في جميع المدن ماعدا هذه الكتاتيب ، والمدارس الثانوية في تعز ومخا وحديدة ، وكانت للجيش أنواع ثلاثة ، والعسكر الذي كان يؤدي خدماته يتكون من ستة ضباط ، والعسكر الثاني الذي ترك بعد التدريب للاحتياط والاعمال العرفية ، كان يتكون من ١٤ ضابطاً ، وكان عشرون الف جندي من القبائل المختلفة ، والحيوانات هي الوسيلة للمواصلات ،

وكانت بعض السيارات الخاصة في البلاد ولم تكن أية طائرة عسكرية ، وكانت احدى عشر طائرة فحسب ، بينها ثلاث طائرات من قسم « دا كوتا » ولم يكن فندق ولا مطعم في البلاد، ولا معمل ولا الشرطة، وقد اتفقت الحكومة مع بعض الشركات الاوربية للتنقيب عن الفحم والبتروال والزيت».

إن هذا الانحطاط والتخلف للبلاد وظروف الدنيا المحيطة بها ونهضة البلدان المجاورة لها اضطرت الحكومة أن تأخذ ببعض أسباب الرقي والتطوير والإصلاح ، وكان لذلك سبيل واحد هو المساعدات من البلاد الراقية ، فاتفقت حكومة اليمن مع الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية بمعاهدات مختلفة ، ومنحت تلك الدول حكومة اليمن قروضا ضخمة ، تولت مسؤوليات بعض المشاريع الإنمائية الخطيرة ، ولذلك قبلت الصين عام ١٩٥٨ م على إثر معاهدة أن تدفع لليمن سبعين مليوناً من الفرنك السويسري ، بدون الربا والمنافع، وتنفق في المشاريع التالية :

- ١ - فتح شارع بمسافة ٥٠٠ كم يصل حديدة بصنعاء ،
 - ٢ - تأسيس معمل للسكر ، ٣ - معمل للأسماك المجففة ،
 - ٤ - تأسيس معمل للقمشة ، ٥ - تأسيس معمل للزجاج (١) .
- لم يكن مصير هذا التخلف والبعد عن الركب النشيط المتحرك السائر (الذي لم يكن مؤسسا على المشروع والتخطيط المحكم ولا منبعثا من

الثقة والعاطفة الدينية ، ولكن من الكسل والفتور والجهل الذي خيم على هذه البلاد المنجبة الغنية زمناً طويلاً) إلا أن يفتح هذا الباب المغلق على مصراعيه بفعل العواصف والتيارات الجارفة ، فلا يميز بين الصالح والطالح والحابل والنابل وبين القشور واللباب ، ويجرف تيار الحضارة الحديثة والنظم الجديدة بحاسن النظام القديم والأفكار الصالحة والقيم السليمة ، ويصاب اليمن (الذي كان يسمى " اليمن الميمون " وشهد بقوة إيمان أهلها ، وحكمتهم الدينية ، اللسان النبوي الصادق بكلمات يغبط عليها اليمن كل قطر وكل بلد إسلامي ، فقال في مناسبة قدوم وفد من اليمن : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً ، الإيمان يمان ، والفقهاء يمان ، والحكمة يمانية »^(١)) يصاب هذا البلد العريق في الإيمان والحكمة والعلوم الدينية ، بالاضطراب الفكري والخلقي والسياسي ، ويصبح ضحية الاشتراكية ، والحروب الطاحنة والثورات المتوالية .

وقد أبدى مؤلف هذا الكتاب قبل أن تحدث هذه الثورة في أوضاع اليمن بإحدى عشرة سنة تخوفه واشفاقه من هذا المصير الذي سار إليه اليمن أخيراً ، في حديث جرى بينه وبين سيادة القاضي محمد عبد الله العمري وكيل وزارة الخارجية اليمنية ، وذكر له الطريق المتزن المتوسط الذي يجب أن يسلكه اليمن في الاقتباس من الحضارة الغربية ، والذي يستطيع وحده أن ينقذ البلاد من التطرف المتهور الذي وقعت

فيه الاقطار الإسلامية الأخرى ، وكان هذا الحديث في فندق « قصر الجزيرة » في القاهرة وهنا ننقل قطعة من كتاب « مذكرات سائح في الشرق العربي » للمؤلف :

يقول الكاتب في مذكرة يوم الثلاثاء ٧/٥/٧٠ هـ ١٣/٢/٥١ م بعد ما يذكر لقاءه لسعادة وكيل وزارة الخارجية اليمنية وما جرى بينهما من تحية واحتفاء وحديث تمهيدي .

« قلت لسعاده : إن الأقطار العربية قد أصبحت لا تملك من أمرها شيئاً فهي مندفعة مع التيار الغربي وليس لها الخيار ، أما اليمن فلا يزال على اختياره ولا يزال يملك أمره ، فأرجو أن لا يستعجل ولا يتهور في الاقتطاف من الحضارة الغربية ونظم تعليمها ومنهج حياتها ولا يتساقط عليها تساقط الظمان على الماء ، أو الفراش على النور ، فيختار منها ما يوافق حياته ودينه وطبعه ورسالته ، ويدع فصولها وشروطها ، وقد عاش اليمن في العزلة عن العالم وهو يعتقد أنه تخلف عن الركب ، فأخاف أن يستعجل السير ليلحق بالقافلة فيعثر أو يضل الطريق ، ويقع ما لا يمكن تداركه ولا تقال عثرته .

قلت : ودعامة الحياة الصحيحة عندي في البلاد الإسلامية وجود الشعور الديني الصحيح القومي في الشعوب ، ولا يكون هذا إلا عن طريق الدعوة العامة والاتصال بالشعب وتربيته الدينية ، وإيجاد الوعي في طبقاته .

والدعامة الثانية منهاج التعليم الصحيح ، والجمع بين العلم المأخوذ

من الوحي والنبوة الذي لا يتطرق إليه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو علم كل عصر وأساس كل حياة ومدنية فاضلة، وبين العلوم الطبيعية والمعلومات العصرية، والتجارب والاكتشافات التي سبق إليها الغرب وانتصر بها على الشرق.

وأرجو أن يوفق اليمن للجمع بين هاتين القوتين وإذن نرجو أن يكون له شأن غير شأن الأقطار العربية الأخرى التي أصبحت للإسلامية ولا أوربية^(١).

وقد أبدى مثل هذه الانطباعات مؤلف غربي W. Erichsbethmann في كتابه « اليمن على العتبة » (Yeman on the threshold) وقد زار هذا المؤلف اليمن في عام ١٩٥٩م في عهد الإمام أحمد عندما كانت ابوابها مغلقة للنهضات الجديدة، وقد أعرب هذا المؤلف عن فرحه وتخوفه بالكلمة التالية :

« - إن الناس هنا يبدون فرحين مستبشرين رغم أنهم لا يملكون كثيراً من مرافق الحياة ووسائل الترفيه ، ولا يحنون إليها كذلك ، وقد حاول المرحوم الإمام يحيى والإمام أحمد الحالي^(٢) أن يظل الباب مغلقاً لكل جديد مع شعورهما بأن تيارات العصر الحاضر الجارفة ستحدث في حياة اليمن - التي اعتادتها - كثيراً من التطوير الذي يأتي بنتائج خطيرة ، ونجحافيه إلى حد كبير ، ولكن يشك في أن تبقى هذه الأوضاع إلى مدة طويلة .

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي ٧٠ و ٧٢

(٢) قد توفي أيضاً رحمه الله

إن العصر الحديث يقرع أبواب اليمن ، وقد دخلت الطائرات والسيارات ، والهاتف والإذاعة والأضواء الكهربائية في البلاد ، وستصلها الأشياء الأخرى على إثرها وسيحدث هذا الاصطدام تبليلاً عظيماً وستدخل مرحلة انتقالية ، ولا ندري أن هذه المرحلة ستمر بدون اضطراب ، أم تنشئ في البلاد الفوضى والقلق ؟ يعتمد ذلك الى حد كبير على السبيل التي يختارها ، والخطوة التي يخطوها اليمن لتأليف حكومة على طراز جديد ، تكون مؤسسة على التنظيم الاقتصادي العصري ! يجب أن تقطع هذه المرحلة الانتقالية تدريجياً ، وتحتاج الى حكمة بليغة وبصيرة نافذة وان تكون الخطوات البدائية مترنة وأن تكون الطرق التي تتخذ لتقدم البلاد سليمة مستقيمة ^(١) »

وبعد ما ذكر المؤلف المشاريع والنظم والتطورات الجديدة الرئيسية الهامة التي يتخذها اليمن لتدعيم البلاد ، ويتحدث عن الخبراء الفنيين الذين يستطيعون ان يقدموا لبناء البلاد القويم الحكم وترقيتها اقتراحات صحيحة مخلصة ، يدعو الى الانسجام السليم بين المادية والروحية ونهضة البلاد المقتعدة ، الذي كان متوقعاً من مفكر مسلم شرقي أكثر من عالم غربي ، فيقول :

« - لاريب ان اليمن سيحاول للرفاهة والسعادة في نطاق الاقتصاد محاولة جادة ، ولكن يجب أن يكون ذلك مع المحافظة على التراث الديني والروحي القيم ، ولا يستطيع الرقي المادي وحده أن

يداوي الامراض الإنسانية ، وأن يمنح الإنسان السرور والطمأنينة بسرعة ، تجرب ذلك البلاد التي وصلت الى القمة في الرقي والنهضة كل يوم بكل أسف وحزن، وحينما يحافظ على القيم الانسانية الأساسية ويحتل التراث الديني والروحي مكانة مرموقة في ضمائر الافراد (الذين تتألف منهم الامة) يصبح الرقي المادي نعمة كبرى ، وتثري كل ناحية من نواحي الحياة .

إن اليمن يصبح « جنة عدن » لبلاد العرب التي يعيش فيها الناس بكل طمأنينة وهدوء إذا احتفظ بحكمته البليغة وبتراثه الروحي الثمين واقتناء قدر من الرقي المادي الذي يحتاج إليه وينسجم مع حياته وظروفه، ويستطيع أن يساهم اليمن بهذا الانسجام الحسن بين الحكمة والنهضة مساهمة مقتصدة ليس في ترقية العالم الإسلامي فحسب ، بل في ترقية العالم كله على الجملة^(١) .

ولقد كانت الوعي الإسلامي كافياً وكافلاً لإصلاح هذه الأوضاع ولكنه كان ضعيفاً أو مغلوباً على أمره، حتى جاءت هذه الحضارة المادية الشائرة تنادي في شيء كثير من الغلو والإسراف بالحرية والمساواة ، وتدعو إلى قلب الأوضاع القديمة مهما كانت ، فتفشى القلق والتذمر في هذا المجتمع ، وقوي الشعور وتضخم بفساد هذه الأوضاع وعدم صلاحيتها للبقاء، وجاشت النفوس بالكرهه والثورة على الأوضاع القائمة مهما كانت عاقبتها ، وهذا سر ظهور الثورات العسكرية في الاقطار الإسلامية ثورة بعد ثورة، وحكم عسكري على اثر حكم عسكري آخر.

سبب حدوث الثورات في العالم الإسلامي وعلاجه :

ولعل العالم الإسلامي كان أكثر استعداداً وتهيؤاً لهذه الثورات لوجود الوعي الديني ، الذي يبعث على القلق والإنكار في هذه البلاد أكثر من عالم آخر أو مجتمع آخر ، أو لفساد الأوضاع فيه أكثر من أي ناحية ، وما دام التخلف في الحياة والقوة ، وما دام الفقر المدقع في بعض الطبقات الذي لا يجد معه صاحبه ما يقيم الصلب ، ويكسو العورة ، ويمسك الرمق ، وما دام الثراء الفاحش ، والاكتناز المجرم والعبث بالأموال الى حد السفاهة والجنون ، وما دام الترف والفجور والاستهتار في طبقات الامراء والاغنياء تروى قصصه المضحكة المبكية في كل ناد وكل صحيفة ، وما دام الجهل ضارباً أطنابه على الشعب ، وما دام العلماء وزعماء الدين يتقاصرون عن أداء واجبهم الديني ، وازجاء كلمة الحق أمام الاقوياء والاغنياء، ويتنافسون في المناصب والوظائف، ويتصارعون على التافه من الخلافات، والحسيس من المادة ، وحكاياتهم تروى وتتناقل ، وما دامت التربية الدينية والامثلة العملية – في الورع والزهادة وسمو النفس والشجاعة الدينية – مفقودة أو نادرة في حكم المعدوم، وما دامت الدعايات والدعوات تتسرب الى المجتمع وتجد مرتعاً خصباً في النفوس ، وأدلة ومؤيدات في الأوضاع ، وما دام هذا الوضع غير الطبيعي وغير الإسلامي سائداً في هذه الاقطار الاسلامية .

وكان وضع كثير من الاقطار الإسلامية كما صورته شاعر تركيا الاسلامي الكبير محمد عاكف في احدي قصائده وهو قوله :

« - يسألني الناس : انك كنت في الشرق مدة طويلة ، فما الذي شهدت يا ترى ! وماذا عسى أن يكون جوابي ؟ انني أقول لهم :

انني رأيت الشرق من أقصاه الى أقصاه ، فما رأيت الا قرى مقفرة ، وشعوباً لا راعي لها ، وجسوراً متهمة ، وانهاراً معطلة ، وشوارع موحشة ، انما رأيت وجوهاً هزيلة متجعدة ، وظهوراً منحنية ، ورؤوساً فارغة ، وقلوباً جامدة ، وعقولاً منحرفة ، رأيت الظلم والعبودية ، والبؤس والشقاء ، والرياء والفواحش المنكرة المكروهة ، والامراض الفاشية الكثيرة ، والغابات المحرقة ، والمواقد المنطفئة الباردة ، والحقول السبخة القاحلة ، والصور القذرة ، والايادي المعطلة ، والارجل المشلولة ، رأيت أئمة لا تابع لهم ، ورأيت أخاً يعادي أخاه ، ورأيت نهراً لا غاية له ولا هدف ، ورأيت ليالي حالكة طويلة لا يعقبها صباح مسفر ونهار مشرق »
فإنها مهددة - لا محالة - بالفوضى الخلقية والسياسية ، معرضة للثورات العسكرية أو الشعبية ، واقفة على فوهة بركان ، متهيئة للانفجار في أي وقت كان .

ولا يمنع من ذلك سلطة قوية ، أو عقاب صارم ، او محاسبة دقيقة ، او مراقبة تحاسب الناس على الانفاس ، وتتبع الخواطر والهواجس ، ولا دعايات صحفية او إذاعية ، ولا بذل أموال طائلة على أصحاب الاغراض والمطامع ، ولا مآرب سخية في السفارات ، ولا مشروعات ترضي أصحاب العاطفة الدينية . انما سبيله مواجهة الحقائق بشجاعة وعلم ، واصلاح الاوضاع بإخلاص وصدق ، وازالة ما يجب ازالته من الفساد .

وتحقيق ما يجب تحقيقه من المطالب. وتحقيق العدالة الاجتماعية كما أمر بها الإسلام وثبت في صريح القرآن وصحيح السنة . والسعي الحثيث لرخاء الشعب . وان يجد كل فرد من افراد الشعب - بقدر الامكان - قوته . ومنع البذخ الذي يحول بين الشعب وقوته و « حاجياته » . وان يسبك نظام المعارف سبكاً جديداً يتفق مع عقيدة هذه البلاد ورسالتها. ومع تطور العصر الحديث وعلومه الجديدة. ويخلق في الجيل الجديد الايمان والخلق والاستقامة والثقة بالنفس . والاعتزاز بالدين والحماسة في سبيله . ويخلق فيه روح الابتكار والاستقلال الفكري . والعصامية ومواجهة الغرب بشجاعة وذكاء . واعادة الروح الدينية والايمان القوي. ولشعور الخلقي والوعي الاسلامي في الشعب. وازالة القلق والتذمر ازالة اسبابها ودواعيها . وبإصلاح الاوضاع والسير والاقتباس من انغرب ما يصلح لشعب اسلامي . ويتفق مع عقيدته السمحة. وما له قيمة عملية ايجابية. وما يقوي الشعب وينفعه في كفاح الحياة والمجد والدعوة الى الله .

هذا هو السبيل الوحيد لاقرار الامن والسلام في هذه المناطق الشرقية الاسلامية. وبقاء هذه الشعوب على اسلاميتها وعقيدتها وسيرتها الدينية . وبعبارة علمية مركزة « ان العالم الاسلامي وأقطاره في حاجة الى بناء مجتمع اسلامي تقدمي عادل تستطيع فيه الطريقة الاسلامية في الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً^(١) » .

(١) استندنا في هذا التعبير من بعض ما جاء في كتاب « الطريق إلى مكة » للأستاذ

الموقف الثاني

حركة التغريب و«التقدمية» في العالم الإسلامي
أنصارها ومنتقدوها

الموقف الثاني موقف الاستسلام والتقليد :

والموقف الثاني ، موقف الاستسلام والخضوع الكامل ، موقف المقلد ، المؤمن المتحمس ، والتلميذ البار الصغير الذي لم يبلغ بعد سن التمييز ، وهو أن يقبل العالم الاسلامي — أو جزء منه — هذه الحضارة — المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة — بحذافيرها ، يقبلها بعقائدها الأساسية ، ومناهجها الفكرية ، وفلسفاتها المادية ، ونظمها الاقتصادية والسياسية ، التي نشأت واختمرت ، في بيئة بعيدة عن بيئة هذه الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة ، وبتوجيهها ، ويحاول تطبيقها في هذا البلد الإسلامي برمتها ، ويتحمل في سبيل ذلك كل صعوبه وعنت ، ويدفع له أعظم ثمن ، وأبهظ قيمة .

حركة « التغريب » في تركيا وأسبابها :

وقد سبقت — الى هذا الاسلوب من التفكير والمنهج من العمل — تركيا الإسلامية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة ، ورحلة طويلة ، فقد حاربت أوروبا مدة طويلة من غير أن تستعد لهذه الحرب ، وتتسلح بسلاح عدوها العلمي والصناعي ، وفرطت في اقتباس العلوم المفيدة من اوربا والصناعات والفنون الحربية والتنظيم الإداري تفريطاً مجرماً ، وأبدى العلماء وزعماء الدين ضعفاً وقصوراً في توجيه الأمة والبلاد توجيهاً علمياً وفكرياً ، وفي الإشراف على اتجاهاتها التي يفرضها الزمان والمكان ، وتغيير الأحوال في العالم كله ، وتقرير الصالح منها ، وتزييف الطالح ، ووقفوا على ما وقف عليه العلم والمعرفة

والتفكير في القرن الثامن عشر، وفوق كل ذلك فقد استغلّ السلاطين - إلا من عصم ربك - اسم الدين واسم الخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة، وتحقيق رغباتهم، وكانوا من أسباب تأخر البلاد، والهزائم والانتكاسات التي تحققت بالامة، ومُملأة الاعداء في أحياء .

إن هذه الجوانب وإن كانت شخصية او فردية ولكنها لم تكن سرّاً مكتوماً وكانت تثير السخط والكراهة في نفوس الشباب والحريصين على سلامة البلاد ومجدها .

المرحلة الدقيقة المسيرة :

إن المحنة التي كانت تواجهها تركيا في أواخر القرن التاسع عشر مع أنها كانت أول تجربة لبلد إسلامي من نوعها ، وكان قد مر المجتمع الإسلامي من قبل بنوعين من التجارب :

كانت التجربة الأولى التي مرّ بها المجتمع الاسلامي في القرنين الاول والثاني ، هي أن المجتمع الاسلامي كان قوياً فتياً دافعاً بالحيوية وصلاحية التقدم ، وكانت ترافقه حركة لاتزال في سبيل الغزو والانتصار ، بدأت بازائه الحضارتان القديمتان العظيمتان ، إحداهما : الحضارة الرومية واليونانية في الغرب ، والثانية : الحضارة الإيرانية في الشرق - وكانت الحضارتان غنيتين في العلوم والصناعات والثقافة والأدب والنظم الفلسفية ، وفي أرقى أساليب المدنية والاجتماع ، والمجتمع الاسلامي الذي كان بعيداً عن كل نوع من أنواع « مركب النقص » وحافلاً بالثقة - اذ بالنفس ، اقتطف من هذه الذخائر ما يلائمه ، وينسجم مع

طبيعته وفيه بحاجة ، بدون أن يصاب بالرق الفكري والدهشة والخضوع الزائد ، أخذ جميع ما يناسبه ويجدر به ، والذي رآه غير جدير به صاغه في قلبه أولاً ثم وضعه في مكانه ، ولم يكن هذا الاقتطاف المحدود والتلقي على روح ذلك المجتمع ونزعاته الخلقية لاستقلاله وسيادته .

والتجربة الثانية هي التي مرَّ بها هذا المجتمع الاسلامي في القرن السابع عندما استولى التتار على قلب العالم الاسلامي ومركزه ، وأصبح المسلمون خاضعين لهم ومفتوحين سياسياً ، وواجه المجتمع الاسلامي في ذلك الحين فاتحاً كان فقيراً قليل البضاعة في الحضارة والمدنية والعلم والصناعة والقانون والتشريع . لم تكن لديه حضارة ولا فلسفة للحياة . وكان من الناحية المدنية والاجتماعية والراقي الفكري في حالة بدائية شأن الامم الوحشية وسكان الصحارى . لذلك لم يكن هناك أي معنى للخضوع والتلمذة وانصهار المجتمع الاسلامي المفتوح في حضارة الفاتح ومدنيته وفلسفة حياته وأفكاره وقيمه ! بالعكس من ذلك بدأت الامة الفاتحة تتأثر يوماً فيوماً بالامة المفتوحة . تتأثر شيئاً فشيئاً بحضارتها ومدنيتها وعلومها وصناعاتها وطرق حياتها الراقية وآدابها الجميلة الواسعة وعقائدها الدينية السامية وأفكارها النبيلة . وأخيراً اعتنقت تماماً دين الامة المفتوحة وحضارتها . وصارت بعد أن اصطبغت بصبغتها حامية للاسلام ورفعت رايته بحماسة وتفاف .

ولكن الوضع الذي واجهه الاتراك العثمانيون في أواسط القرن التاسع عشر كان يختلف عن التجربتين السابقتين ، إنهم وإن كانوا يحكون

مملكة حرة واسعة الأرجاء ، ولكنهم فقدوا - الى حد - روح الثقة بالنفس وعرفان الذات بمر العصور وكر الليالي والدهور ، لم يكن فيهم حماس القرون الاولى ولا قوة الإيمان واليقين، وإزاء ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقات الجديدة وممتلئة بالحماس الجديد والأمال الجديدة ، كانت قد حملت معها ثورة صناعية وعلمية وفكرية كانت تتوسع آفاقها ونطاقها يوماً فيوماً ، ولم يكن يستطيع الاتراك أن يغمضوا أعينهم عنها وكان مركز حكومتهم في قلب اوربا، ولم يكن لهم سابق لمثل هذه التجربة في التاريخ الإسلامي الماضي ، ولا يجدون توجيهاً للتغلب على هذه المشكلة من تجارب الامة الماضية وتاريخها الطويل، فإن الوضع الذي كانوا يواجهونه كان بدعاً وكان وليد ظروف وعوامل خاصة وزمن خاص ، ولا يساعدهم في ذلك العالم الإسلامي المعاصر الذي لم يجرب هذه المحنة من قبل ، وكانت أنظار قادته متجهة الى تركيا ، كيف تخرج من هذه المحنة وكيف تتغلب على هذه المشكلة وأي طريق تختاره ؟

وكان الخروج من هذه المرحلة الدقيقة بنجاح يحتاج الى ذكاء وقاد ومعرفة صحيحة عميقة للإسلام والحضارة الغربية في وقت واحد ، وشجاعة أدبية وبطولة ، وكان ذلك عملاً عملاقاً في الواقع ، وكان لا بد لتركيا أن تعمله وكان العالم الإسلامي كله على استعداد تام لاتباعها والسير في ركابها، وكان يرتبط به مستقبل العالم الإسلامي الحضاري والفكري، الديني والسياسي الى حد كبير، ولم يكن ذلك يقبل أي تأجيل او إهمال، ولا يمكن أن تمر به تركيا مرأ خاطفاً سريعاً .

الطائفتان القديمة والجديدة :

وكانت هذه المهمة الدقيقة إما تنوء بها الطائفة القديمة او الطائفة الجديدة ، فقد كانت تركيا موزعة بين هاتين الطائفتين وهما اللتان تتوزعان القيادة والمسئولية ، أما الطائفة القديمة فقد كانت مؤلفة من العلماء القدامى ، الذين لا يعرفون مع الأسف المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة الى حد كبير ، ولم تكن تعرف خطورة الموقف وضخامة الخطر الذي نشأ لتركيا بتأثير القوة الناهضة من اوربا ، وكانت هذه الطائفة قد عارضت التنظيمات العسكرية والاصلاحات الجديدة التي قام بها السلطان سليم الثالث (١٧٨٩م - ١٨٠٧) وخليفته السلطان محمود (١٨٠٨م - ١٨٣٩) لتؤهل تركيا لمجاربة الشعوب الاوربية عسكرياً وعلمياً ولمسايرة العصر الحديث .

أما الجيل الجديد، الذي كان قد تلقى ثقافته في عواصم اوربا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا ، فقد نشأ على الاستهانة بقيمة الدين والياس من مستقبله، وكرهه رجاله واحتقارهم، وعلى تقديس الحضارة الغربية ، وفقد في هذا الجيل العقل النابغ المتعمق الذي يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها، وجوانب الافراط والتطرف ، ومعرفة ما يصلح لتركيا الزعيمة للعالم الاسلامي اقتباسه والافادة منه ، وما لا يصلح ولا يتفق مع طبيعتها وتاريخها ومكانتها في العالم ومركزها في الشرق الاسلامي ، وأكثرهم من نوع « العسكريين »

والمعلمين الذين لم تكن ثقافتهم واسعة ولا عميقة ولا حرة^(١) أو الذين انتهت بهم تجارب حياتهم الخاصة، وما لقوا من العلماء و « المحافظين » من تثبيط أو عدم تشجيع، وما جرّبوه فيهم من جمود وضيق تفكير، وما رأوه في الجيل المسلم القديم، وزعمائه من النفاق، يقولون ما لا يفعلون، وينهون عن شيء ويأتونه، أو ما شاهدوه في البلاد من تأخر وضعف انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على كل قديم، وعلى كل موجود، وإلى التصميم على « تغريب » تركيا .

ضياء كوك ألب وفلسفته :

ضياء كوك ألب ولد في ديار بكر بعام ١٨٧٥ م أو ١٨٧٦ م وكانت أسرته مرتبطة بوظائف رسمية رفيعة، التحق بالمدرسة الثانوية لديار بكر بعد أن تخرج من المدرسة الثانوية العسكرية، وكان له ولع خاص وشغف زائد بالأدب والرياضيات، وكان على معرفة جيدة بالتاريخ، وتلقى في المدرسة نفسها اللغة الفرنسية والعلوم الشرقية ودرس بإشراف عمه الفاضل وتعاونوه مفكري الاسلام : الغزالي والرومي وابن عربي وابن

(١) تقول الفاضلة خالدة ادب خانم في كتابها « الصراع في تركيا بين الغرب والشرق » : كان أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الشباب من صفار الموظفين الرحمين ، أو ضباطا في الجيش ، ولم يكن فيهم في أول الأمر فرد واحد، حائراً على مكانة علمية سامية ، وفهم الفرق بين العصر القديم والعصر الحديث في ضوء التحليل والنقد العلمي ، ولكن هؤلاء الشباب كانوا أقرب إلى الشعب وكانوا اتجاهاً وطنياً خالصاً، وكان معظمهم من أهل مقدونية الذين اشتهروا بحب الواقعية والقسوة، ولا يتعاشون من شيء في سبيل الوصول إلى غايتهم . لذلك رغم أنهم كانوا يبدنون إلى غاية نية ، كانوا يستخدمون جميع الوسائل للوصول إلى غرضهم من غير اعتشام وتورع .

Conflict between East and West in Turkey P 78 - 79 .

رشد وابن سينا والفارابي وغيرهم ، وقد أعجب بكتاب « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالي لانه أيضاً كان يعاني صراعاً فكرياً ، وكانت الافكار التي قامت عليها الثورة الفرنسية تسيطر على كثير من الشباب المثقف وتحرك ساكنهم ، وكان مدير المعهد الذي يدرس فيه ضياء يحمل أفكاراً حرة ويحب الحرية الفكرية والعملية ، وكانت ديار بكر في ذلك الحين مركز جماعة من الزعماء ومحبي الحرية الاتراك الذين نفوا عن البلاد ، وارتبط معها ضياء بوشائج وثيقة متينة ، وهناك قرأ ضياء مقالات لنامق كمال وضياء باشا واحمد مدحت أفندي وغيرهم وازداد ارتباطه بالحركة السرية بعد قدوم عبد الله جودت ، وكان دكتوراً كروياً ملحداً ، وكان معجباً بهيكل (Haeckel) وبشنر (Buchner) واسبنسر (Spencer) ولي بون (Le Bon) إعجاباً كبيراً ، وقد حدث لديه في ذلك الزمن صراع العقيدة والعقلية بتأثير من أستاذ يوناني وأراد ان يطمئن ويخفف من قلقه بالفلسفة والتصوف الاسلامي ولكنه كما يقول : لم ينجح فيه ، ووقع في ارتياب وشك (Agnosticism) سافر في سنة ١٨٩٦ م الى قسطنطينية ، ولم يجد منحة إلا في كلية البيطرة (Veterinary College) ولكنه كان يشتغل بالسياسة أكثر من الثقافة ، والتعليم ، لذلك انتخب عضواً للجمعية الاتحاد والترقي التي كانت تعمل في السر كالماسونية وقد أقصي من المدرسة لبعض مقالاته الثورية وألقي القبض عليه ، وفرضت عليه إقامة جبرية في ديار بكر بعد إطلاق سراحه ، ودرس في هذه المدة دراسة عميقة ، وكان له شغف وعناية

خاصة بالفلسفة الغربية والفرنسية خاصة وعلم النفس وعلوم العمران، وأصبح بسرعة شخصية قوية رئيسية لجماعة أحرار ديار بكر ومحبي الانطلاق والحرية ، وثارت هذه الجماعة في عام ١٩٠٦ م ضد النظام الجائر والسلطات الإدارية يقودها ضياء ، وبعد أن خلع السلطان عبد الحميد خان بعام ١٩٠٩ م وجد ضياء وزملاؤه فرصة سانحة للعمل ، وأصدر جريدتين « بياض » و « Declé » .

وعندما آثر ضياء سالونيكاً بالإقامة المستقلة . صار زعيماً وطنياً لتركيا ووجد هنا في ثغور تركيا الغربية فرصة اللقاء والتودد إلى المتنورين الاتراك، والافاضل الغربيين ، وترعرت فيه فكرة الوحدة والتنظيم على أساس القومية التركية التي لم يكن الإسلام فيها عنصراً أساسياً (Factor) وقد انفصلت عن حكومة تركيا بعض الاقطار الإسلامية (البانية بعام ١٩١٢ م والحجاز بعام ١٩١٦ م) على أثر حرب بلقان ١٩١٢م. وظهر بذلك أن الحركة القومية والطورانية هي أقرب الى الواقعية والعملية وكسبت أنصاراً أكثر وقد قوي وتوسع نطاق التأثير الفكري لكوك الب في الجيل التركي الجديد، عندما عين الاستاذ الاول لعلم الاجتماع بجامعة استنبول عام ١٩١٥م (وذلك بمواهبه الشخصية وكتابته مقالات بلا شهادة عالية او تخرج في جامعة) وقد اضطر عام ١٩١٨ م كالأعمام الوطنيين الاتراك الى أن يغادر استنبول، ولما انتصر مصطفى كمال بعام ١٩٢١م على اليونان أفرج عنه ، وعُيِّنَ بسنة ١٩٢٢م رئيساً للجنة التأليف والترجمة، وكان يؤيد مصطفى كمال بقوة وحماس،

وقد لعب دوراً كبيراً في المعركة الانتخابية، مع أن الاواصر الشخصية بينها لم تكن عميقة قط ، ولما انتخب البرلمان في سنة ١٩٢٢ م كان نائب ديار بكر، وقد مرض بعام ١٩٢٤م، وأراد كمال أتاترك أن يتكفل جميع تكاليف علاجه في اوربا ، ولكن كوك الب اعتذر عن ذلك وطلب العناية بأسرته والعطف عليها ، وتهيئة وسائل لنشر كتابه عن الحضارة التركية ، وقد توفي ضياء في ٢٥ من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ م في الثامنة والاربعين او التاسعة والاربعين من عمره ودفن بمقبرة السلطان محمود^(١) .

وجد مثل هذا الرجل الذي دعا بكل قوة وصراحة الى سلخ تركيا من ماضيها القريب ، وتكوينها تكويناً غريباً قومياً خالصاً ، وإيثار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الاتراك - على زعمه - في تكوينها وحراستها ، يقول في مقالة له :

« إن الحضارة الغربية امتداد لحضارة حوض البحر الابيض المتوسط القديمة ، وكانت مؤسسو هذه الحضارة - التي نسميها بحضارة البحر الابيض المتوسط - من الاتراك، مثل السامريين، والفينيقيين، والرعاة، لقد كان في التاريخ عصر طوراني قبل العصور القديمة ، لان سكان آسيا الوسطى القدامى كانوا أجدادنا ، وفي زمن متأخر جداً رقى الاتراك المسلمون هذه الحضارة ونقلوها الى الاوربيين. وبتحطيم الامبراطوريتين الرومانيتين الغربية والشرقية. أحدث الاتراك انقلاباً في تاريخ اوربا.

(١) استفيد من كتاب : Foundations of Turkish Nationalism

لؤله : (Heyd U .)

لذلك نحن جزء من الحضارة الغربية ولنا سهم فيها^(١) .

ويذكر موجبات اعتناق الحضارة الغربية وما يحدث ذلك من انقلاب . وما يفيض من قوة وروح جديدة . ومركز في العالم . وأنه لا يستلزم الانسلاخ من الدين القديم . فيقول :

« حين تقطع أمة شأواً بعيداً في نشوئها . ترى من الواجب ان تغير حضارتها ايضاً . لما كان الاتراك قبائل رحالة في آسيا الوسطى دانوا بحضارة الشرق الاقصى . ولما انتهوا الى عصر « السلطنة » دخلوا في مساحة الحضارة البرنطية . والآن في طور انتقلهم الى الحكومة الشعبية ، هم مصممون على قبول حضارة الغرب^(٢) » .

« إن شعوباً تدين بديانات مختلفة يمكن ان تدين بحضارة واحدة . إن اليابانيين واليهود يشاركون الاوربيين في حضارة واحدة^(٣) » . وبعبارة أخرى فالدين والحضارة عنده شيئان مختلفان . لذلك من المغالطة ان تسمى « حضارة إسلامية » كما لا يصح ان تسمى « حضارة مسيحية » . الدين محدود في العقيدة والطقوس التي لاصلة للفنون والعلوم بها . يقول :

« ليست هنالك مؤسسة مشتركة بين الاحزاب والجماعات التي ترتبط بالاديان المختلفة . فما كان الواقع ان الدين اسم لمجموعة من المؤسسات المقدسة والعقائد والتقاليد فحسب . فالمؤسسات التي لا تحمل قداسة

Turkish Nationalism and Western Civilisation . P . 267 (١)

P . 261 ايضاً (٢)

P . 269 - 270 ايضاً (٣)

وتمجيد آدينيا) كالأفكار العلمية التطبيقية والأدوات الصناعية ومثل
الجمال (تؤلف نظاماً مستقلاً يخرج عن نطاق الدين ، والعلوم الإيجابية
كالرياضيات والعلوم الطبيعية وعلم الحياة وعلم النفس والاجتماع والطرق
الصناعية والفنون الجميلة لا تمت بصلة الى الدين ، لذلك لا يصح أي
ارتباط لحضارة بالدين ، ليست هناك حضارة مسيحية ولا حضارة
إسلامية ، فكما أنه لا يصح أن تسمى الحضارة الغربية حضارة مسيحية
هكذا بالضبط لا يصح أن تسمى الحضارة الشرقية حضارة إسلامية «^(١)

ويضرب لهذه الخطوة الثائرة مثلاً لروسيا التي احتضنت الحضارة
الغربية الراقية ، رغم خضوعها للكنيسة المسيحية المتصلبة المحافظة
الأرثوذكسية ورغم تمسكها بحضارة من الطابع الشرقي، واستطاعت أن
تقف بجوار الشعوب الغربية القوية الحرة .

« لما حرر الغربيون أنفسهم من رواسب القرون الوسطى كانت
المسيحيون الخاضعون للكنيسة الأرثوذكسية في روسيا لا يزالون عبيداً لها،
وقد عانى بطرس العظيم صعوبات شديدة في كفاحه لتحرير الشعب الروسي
من سيطرة الحضارة البزنطية ، وتقديمه إلى الحضارة الغربية ، ولكي
يعرف الإنسان ماهي الوسائل والأساليب التي يجب أن تستخدم
لتغريب البلاد وطبعتها بطابع الغرب يكفي أن يدرس تاريخ
إصلاحات بطرس ، وكان الناس يعتقدون إلى ذلك الحين ان الروسيين

Turkish Nationalism and Western Civilisation . P .271 ,272 (١)

لا يصلحون للتقدم ، ولكنهم بعد الثورة بدأوا يتقدمون بسرعة زائدة ،
ويقطعون شوطاً بعيداً في ميدان النهضة ، وهذه الحقيقة التاريخية
تكفي لإثبات أن الحضارة الغربية هي الشارع الوحيد إلى التقدم ^(١) «
ثم هو يقرر أنه لابد للحرية والحفاظة على المجد القومي من امتلاك
ناصية الحضارة الغربية والسيطرة عليها فيقول :

« علينا أن نختار إحدى الطريقتين ، إما أن نقبل الحضارة الغربية
أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لابد أن نختار أحد الأمرين ، يجب
علينا أن نسيطر على الحضارة الغربية لنُدافع عن حريتنا واستقلالنا ^(٢) » .
يحتلّ ضياء كوك الب مكانة خطيرة بين المؤسسين الفكريين
لتركيا الجديدة ، إنه قدم الأساس الفكري والفكرة الجديدة التي
تأسست عليها الدولة الجديدة والمجتمع الجديد من الناحية الفكرية
والأساسية ، وقد ذكر ذلك الأستاذ نيازي بر كس في مقدمة مجموعة
مقالاته المختارة التي نشرها ، وقال إنه لا تزال تسيطر فكرته على أسس
الإصلاحات الجديدة في تركيا ، هو يقول :

« ورغم أن ضياء كوك الب توفي في المرحلة البدائية لتطوير آثاره
الثوري ، ولكن توجد في كتاباته أفكار تعتبر أساساً لتلك الإصلاحات
وان أفكاره في موضوع الإصلاح الإسلامي قد جنت عليها العلمانية
المتطرفة في العهد الذي بدأ بعد وفاته . مع ذلك أعتقد أنه لو عاش

(١) ص ٢٧٥

(٢) ص ٢٦٦ Turki

لاستطاع أن يرضي نفسه بسياسة أتاتورك وموقفه لأن تصوراته عن الخلافة كانت تختلف عن نتائج فكرته القومية المنطقية ، وكان يتخيل القومية التركية كأساس دولي عالمي ويرى فيها عوضاً عن الخلافة الإسلامية ، ونحن نعلم أن تقاطع العلمانية وحرية الإرادة والضمير وحرية الفكر في الدستور كانت من تفكيره وقلبه ، لأن اللجنة التي ألفت في سنة ١٩٢٤ م لوضع الدستور الأساسي كان هو عضواً فيها ، ولعله لم يستطع أن ينسجم مع السياسة الثورية للإصلاح المثالي التي اتخذها كمال أتاتورك ، . . . ورغم أنه كان هنالك بعض انحراف عن أفكاره في العمل والتطبيق مع ذلك لا تزال مبادئه تسيطر على النقاط الأساسية لإصلاحات تركيا الجديدة (١) .

ويزيد المؤلف المذكور فيذكر أعمال ضياء كوك الب وأفكاره العلمية ويقرر أهميته كقائد مفكر ومؤسس مدرسة فكرية : —

« ومع أن دراساته عن الاجتماع والمدنية الشعبية والتاريخ ليست لها قيمة علمية كبيرة إذا قورنت بمؤلفات علماء تركيا الحاضرة وغيرها ولكنه لا يستهان بقيمته كزعيم لهذا الاتجاه ومؤسس هذه المدرسة ، ولو أن بعض مفاهيمه نسيت أو أغفلت في تركيا الجديدة أو أنها تعتبر اليوم تافهة ولا يلاحظ فيها ابتكار وطرافة ، مع أنها كانت تبدو في عصره جديدة ومبتكرة فذلك لأنها أصبحت الآن حقائق ، ويتجلى من ذلك عمق تأثيره وسعة أفقه ونظيره (٢) » .

(١) - Berkes Niyazi Turkish Nationalism and Western Civil

- ization (Gokalpziya) P, 13, 14

(٢) من المصدر ص ٣٠ و ٣١

دور تركيا التقليدي :

إن قادة هذا الفكر والدعوة التي يتزعمها ضياء كوك الب ، كانوا يستحقون إعجاباً كبيراً من المؤرخين المنصفين ، ورجال الفكر الأحرار في العالم الإسلامي ، وإن تركيا كانت تحتل مركزاً خطيراً في خريطة العالم السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ، وقد تغير مجرى التاريخ إذا سيطرت على الحضارة الغربية ، وامتلكت ناصيتها تقودها وتسير بها إلى غاية مرسومة ، وتتصرف فيها تصرف القائد الحر ، الذي يملك إرادته ، والعالم المجتهد الذين يفكر بعقله ، وكانت القدوة الحسنة للشعوب الشرقية الإسلامية التي تعاني الصراع الخيف ، بين الشرق والغرب ، وتواجه تحدي الحضارة الحديثة السافر ، وتنظر إلى تركيا كزعيم وإمام ، وأول من اكتوى من الشعوب الإسلامية بنار هذا الصراع بين الغرب والشرق وواجه زحف الحضارة الغربية وفلسفة الحياة الحديثة .

ولكن ذلك - مع الأسف - لم يتحقق ، إن الذي تحقق هو تقليد تركيا للحضارة الغربية وتمسكها ببعض شعاراتها ومظاهرها السطحية ، والإصلاحات السطحية التي لا تقدم ولا تؤخر في حياة الشعوب والأمم والمجتمعات والمدنيات ، ولا صلة لها بالقوة الحقيقية والعظمة السياسية ، والتي فصلت تركيا عن ماضيها القريب ، وعن التراث العلمي الفني الذي ساهمت في تكوينه الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة ، وفصلت تركيا - زعيمة العالم الإسلامي بالأمس - عن العالم الإسلامي ، وأحدثت

فجوة عميقة بين رجال الحكم والتوجيه ، وبين الشعب المسلم القوي ،
 الفائض بالحب والإيمان والعاطفة الدينية ، الذي ملأ قلوب العالم مهابة
 وإجلالاً لقوة هذه العاطفة وتدفعها ، واستطاع أن يقف في وجه أوربا
 وغاراتها الساحقة ، ومؤامراتها الدقيقة المستمرة ، التي لم تنقطع ولم تقف
 يوماً واحداً ، والتي لا قبل لأمة عادية بها ، رغم الضعف الشديد المستمر
 في الطبقة الحاكمة ، والخيانة في الضباط ، وأفقد الشعب النشاط والثقة
 والحاسة التي كانت من أبرز مزايا هذا الشعب المسلم الخالد ، وأحدثت
 اضطراباً في المجتمع وفتوراً في إجابة الدعوات التي تصدر من
 القيادة ومركز الحكم ، واحتاجت الحكومات المختلفة إلى كبت
 هذا الشعور وكبح هذه العاطفة ، وتحويل الأمة إلى المادية والقومية
 والحضارة الغربية ، والانحصار في دائرة التفكير الضيقة والمساحة
 المحدودة ، كل ذلك بعنف وقسوة لانظير لها ، ذهب ضحيتها رجال كان
 فيهم الغناء الكبير للأمة ، والخير الكثير للبلاد ، ولا يزال الصراع قائماً
 بين العقلية الحاكمة وعقلية الشعب المغلوب على أمره ، ولا تزال
 الشرارة - الإيمانية - كامنة في النفوس والقلب ، مستعدة للالتهاب
 بأدنى حركة وأضعف إشارة .

إن دور الشعب التركي في اقتباس الحضارة الغربية كان دوراً
 تقليدياً يخلو من كل « أصالة » ومن كل ابتكار ، ومن كل عصامية ،
 ومن كل إنتاج ، فلم تعمل شيئاً جدياً للسيطرة على هذه الحضارة التي
 انطلقت من الغرب المادي ، السيطرة التي دعا إليها ، وحلم بها ، ضياء

كوك الب ، في مقالاته السابقة، ولم تعمل شيئاً لامتلاك ناصيتها والتغلب على قبادتها، إنما كان دورها دور الاستيراد ودور الاستعارة ودور التطبيق ، لأقل ولا أكثر، ولم ينبغ فيها في هذه الفترة نابغة ، في العلوم التطبيقية ، ولا عملاق في العلوم والآداب ، ولا مؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة ، ولا من يمدّ هذه الحضارة بشيء أصيل له قيمته العلمية ، ولذلك بقيت شعباً متوسطاً يعيش على حاشية الشعوب الأوربية ، ولم يكن هذا قيمة ما ضحى به هذا الشعب من السطوة السياسية والحماسة الدينية ، والدوافع الخلقية ، والزعامة في العالم الإسلامي .

نامق كمال :

ولد نامق كمال في (Rhobosto) في عام ١٨٤٠ م وكان ينتمي إلى أسرة ثرية ذات اليسار والغناء ، درس في بيته اللغة العربية والفارسية والفرنسية ، وتولى وظيفة رسمية في السابعة عشرة من عمره ، وقد أعجب في شبابه بالزعيم التركي الوطني والمفكر الشهير إبراهيم شيناسي (١٨٢٦ - ١٨٧١ م) وانضم إلى رئاسة تحرير مجلته الشهيرة " تصوير أفكار " ولما التجأ شيناسي إلى فرنسا في سنة ١٨٦٥ م أصبح مسؤولاً عن تحرير المجلة ، واشتهر ككاتب وصحفي سياسي ، واضطر أن يغادر الوطن عام ١٨٦٧ م لمقالاته وأفكاره الجريئة المتحمسة ، وقد قضى ثلاث سنوات من نفيه في لندن وباريس وفيينا ، ودرس هناك وطالع القانون الجديد والاقتصاد ، وعاد في ١٨٧١ م إلى تركيا ، ونفي

مرة ثانية إلى قبرص من جراء التمثيلية الطائرة الصيت التي كتبها وسمّاها « الوطن » والتي بعثت في قلوب الناس الحماس الوطني، وعاد في سنة ١٨٧٦ م بعد أن خلع السلطان عبدالعزيز، ولكن تقمت عليه الحكومة بعد مدة يسيرة ، وتوفي في عام ١٨٨٨ م بعد أن قضى عامه الأخير من حياته في النفي .

ويقول برنارد لويس Bernard Lewis في كتابه : (The emerge New of Modern Turkey) « كان نامق كمال مسلماً صادقاً متحمساً مع حماسه الوطنية وفكره ، إن الوطن (تركيا) الذي يتغنى به في مقالاته وإن كان أساسه على الإقليم ولكنه عنده وطن إسلامي خالص كما أن الدولة العثمانية عنده دولة إسلامية خالصة ، وقد ظل مرتبطاً طول حياته بكل قوة وإخلاص بقيم المسلمين وعقائدهم الموروثة ، وقد انتقد زعماء التنظيمات انتقاداً لاذعاً في كثير من الأحيان وعاب عليهم أنهم أخفقوا في الحفاظ على التقاليد الإسلامية القديمة ، وأنهم استوردوا من أوروبا الأفكار « والمؤسسات » الجديدة .

وقد حمل نامق كمال لواء القيم الإسلامية وقد انتصر للإسلام وأبرز فضله ومآثره رداً على أولئك المؤلفين الذين كان لا يزال ديدنهم الخط من شأن الإسلام وقدّم فكرة الاتحاد الإسلامي العالمي في قيادة العثمانيين الأتراك ، لأنه كان يعتقد أن هذه الحركة إذا انتشرت في آسيا وإفريقيا ووجدت أنصاراً أصبحت كتلة قوية إزاء الكتلة الغربية ، فيحدث بذلك توازن القوى في العالم .

وكانت دعوة نامق كمال الذي سبق ضياء كوك ألب إلى الإفادة من الحضارة الغربية والعلوم الغربية ، وتفسيره للعلاقة التي يجب أن تقوم بين تركيا والغرب الجديد أكثر اتزاناً وأكبر عمقاً ، من دعوة ضياء كوك ألب وأنصاره ، فقد دعا نامق أمته وبلاده إلى الإفادة من الغرب في المجالات التي يرجع إليها الفضل في تقدم الشعوب الغربية وفي رخائها وسيادتها ، وكانت السبب المباشر لتفوق الغرب ومكانته في العالم .

يقول الأستاذ نيازي في مقدمته على «مجموع مقالات ضياء كوك ألب» إن الرجل الذي وفق في وصف الوضع الحاضر وتحديد ضعفه وعلته واعتبره عرقلة كبيرة في تأسيس دولة جديدة كان ذلك نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨ م) إنه حاول أن يعرض صورة مثالية «للمؤسسات» الدينية والأخلاقية والقانونية التي تنسب إلى الإسلام ، وعرض صوراً مثالية أصيلة للمؤسسات السياسية أيام ازدهار التقاليد العثمانية القديمة وأبرز نواحي الحضارة الغربية التي تدين لها الشعوب الأوروبية في تقدمها ورخائها وسيادتها ، ووصل بعد دراسة هذه العوامل الثلاثة إلى أنه لا يوجد بينها خلاف أساسي ، إنه يعتقد أن الإسلام يهيء الأسس الخلقية والقانونية للمجتمع ، وكان يرى أن أفضل طريق لتركيا الحديثة أن تتخذ التقليد العثماني وسياسة التسامح الواسع التي كان يعامل بها العثمانيون القوميات المختلفة والديانات المختلفة كأساس ودعامة للجهاز السياسي ، وأن تأخذ من الغرب المناهج والأساليب المادية التطبيقية التي تمنح هذا النظام قوة ومناعة في العالم المعاصر الذي يقوم على التمسك بالثروة الاقتصادية .

هكذا أفرز نامق كمال عوامل تركيا الثلاثة في القرن التاسع عشر وبين حدودها ومعالمها ، وكان العامل الأكبر لإخفاق التنظيمات في رأيه هو الاضطراب الفكري في موضوع العوامل الثلاثة هذه ، فقد هجرت الشريعة أي القانون الإسلامي مثلاً لأجل اقتباس القانون الفرنسي ، مع أنها لم تقتبس الأساليب والطرق الغربية للتعليم والحكومة والعلوم والاقتصاد والزراعة .

وقد خضع دعاة الإصلاح الذين كانوا ينتمون إلى « تنظيمات » في أمانهم الصبغانية لتحويل الدولة التركية دولة جديدة للحكومات الغربية وحملوا منتهى في دائرة الاقتصاد والسياسة من غير حاجة إلى ذلك ، وقد فقدت بذلك الدولة العثمانية حريتها وسلامتها ، لم يطبق هؤلاء الدعاة أي مبدأ من مبادئ النظم الديموقراطية الجديدة في مجال الإدارة والتنظيم ، مع أنه لم يكن شيء في المؤسسات السياسية العثمانية القديمة ولا في التشريع الإسلامي ، ما يستحيل انسجامه مع الديموقراطية أو التقدم أو العلوم التطبيقية^(١) .

ولكن مع الاعجاب العام بنامق كمال والتأثير العميق الذي تركه في الجيل التركي الجديد وفي ضياء كوكب ألب نفسه ومعاصريه الذي اعترفت به خالدة أديب خانم بهذه الكلمات :

« كان نامق كمال يتمتع بأكثر إعجاب وإجلال في تركيا ، إنه لم يُتغنى

Berkes Niyazi Turkish Nationalism and Westernen · (١)
Civilization, (Gokalap, Ziya) P . 17 , 18 ,

بأحد في تاريخ الأفكار والسياسات التركية مثل ما تغني به ولم يهتم الهائمون
بأحد مثل ما هاموا به^(١) .

لم تؤثر دعوته المعتدلة وفكره القويم في تكوين تركيا الحديث ولم
تلعب دورها مثل ما فعلت دعوة ضياء كوك ألب المتحمسة المتطرفة لاعتناق
الحضارة الغربية وأسس سياستها، وكان ذلك لأنه وجدت لفلسفة ضياء
وفكره ولتنفيذه شخصية قوية إيجابية في تركيا، حققت أكثر ما أراد
ودعا إليه ضياء كوك ألب وصممت على سبك تركيا الإسلامية في الغرب
العلماني اللاديني كانت هذه شخصية كمال أتاترك .

كمال أتاترك ، غوه الفكري ، طبيعته وعظيمته وخمائصه الطبيعية :

ولد مصطفى كمال باشا بن علي رضا بك بمدينة سلانيك سنة ١٢٩٨ هـ
١٨٨١ م ، وأصل أسرته من قرية بالاناضول ، والتحق بمدرسة ابتدائية
تسير على النهج الأوربي الحديث ، ثم بمدرسة أهلية ثانوية فمكث بها سنة
ثم تركها ودخل مدرسة حربية ، ثم انتقل إلى المدرسة الحربية باستانبول
وتخرج منها ضابطاً ، وكان ذلك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ،
ودخل في بعض المؤامرات ضده ، فقبض عليه ونفي إلى دمشق وهرب
منها إلى سلانيك ، والتحق بجمعية « الاتحاد والترقي » والتحق بالجيش ،
وعهد إليه بالإشراف على سكة حديد مقدونية ، و خلع السلطان عبد
الحميد ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م .

سافر عام ١٩١٠ م إلى فرنسا كملحق عسكري لمهمة عسكرية، وقد

جعله هذا السفر لا يطمئن إلى ما حققته تركيا من التقدم والازدهار ، واضطرب لازدياد نفوذ ألمانيا، وكان يحكم تركيا في ذلك الوقت أربعة أشخاص فعلاً وهم: أنور وطلعت وجاويد وجمال، وكان معهم مصطفى كمال على خلاف شديد، ولم يكن له شغف ولا هم بالأهداف الدولية ولا في توسع نطاق الحكومة العثمانية في خارج تركيا، وكان يرى هذه السياسة للبلاد خطراً ، وكان أنور يكرهه بدوره ونشبت حرب بلقان في سنة ١٩١٢ م ، وقد تأثر بشقاء فئات اللاجئين والمهاجرين الأتراك من المدن البلقانية وبؤسهم تأثراً كبيراً ، واسترد الأتراك أدرنا لخلاف نشأ بين الأقاليم البلقانية ، وعيّن أنور وزير الحرية وقد بلغ قمة الرقي والمجد ، وكان أنور يسعى لجمع المسلمين كلهم تحت لواء خليفة المسلمين ، وقد فوض أنور مسؤولية تنظيم الأمور العسكرية إلى الألمان، وكان مصطفى كمال يكره ذلك كرهاً شديداً، ونشبت الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٤م وحالفت تركيا ألمانيا تحت ضغط أنور وزملائه وخاضت الحرب ، وكان كمال يرى أن تلتزم تركيا الحياد وتستفيد من الكتلة التي تفوز في هذه الحرب ، وحارب كمال في جوار زملائه وقواده بشجاعة وبطولة على رغم اتجاهه ورأيه في هذه الحرب ، وكان له موقف عظيم في معركة نايبولي سنة ١٩١٥ م فداعت به شهرته ، وأُرسل في سنة ١٩١٦ م إلى جبهة قفقاس، وفوضت إليه قيادة الجيش في الحجاز في بداية عام ١٩١٧م، ولكن تخلت الجيوش العثمانية عن الحجاز قبل أن يستلم كمال مركزه ، ومنح في هذا العام رتبة اللواء وأُرسل إلى ديار بكر نائب القائد .

وانتهت الحرب سنة ١٩١٨م بهزيمة ألمانيا وتركيا، واحتلت إنجلترا وحلفاؤها استانبول ، واضطرب الأمن في بلاد الأناضول ، فاختير كمال ليقيم بحفظ النظام سنة ١٩١٩م وأعلن الحرب على اليونان الذين استولوا على أزمير وانتصر عليهم سنة ١٩٢١م في معركة سقارية ولقب بالغازي، وأقام في أنقرة حكومة مستقلة ، وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان ، وأقام حكومة جمهورية علمانية كان أول رئيس لها سنة ١٩٢٤م واستمر على ذلك حتى توفي سنة ١٩٣٨ م .

إن العلمانية والثورة على الماضي والتغرب المتطرف والدكتاتورية العسكرية التي آلت إليها تركيا لا تفهم العوامل التي ساعدت عليها والدوافع التي دفعت إليها في زعامة كمال أتاترك إلا بمعرفة طبيعة زعيم هذه الحركة الأكبر ونشأته الفكرية وتطورها وطبيعته وميوله ، لأن البلاد التي تخضع لدكتاتور عسكري تصبح مرآة لشخصيته وطبيعته وظلاً وامتناداً لميوله وعقائده مع الدعاوي البراقة للشعبية والجمهورية، ويحتاج لفهم نظمها الجديدة فهم العناصر التي تتكون بها شخصية هؤلاء الأنانيين والدكتاتوريين، وبهذه المناسبة تقتصر على أن تقدم قطعاً من كتاب «أتاترك» (لعر فان أورك) الذي ألفه عن إخلاص وإعجاب بشخصية كمال وهي تصويره تصويراً لا مبالغة فيه ولا تشويه :

« - كان قليل الاختلاط، غير محب بين الأصدقاء في حياته المدرسية وكان أصدقاؤه قليلين جداً ، كان يشور ويهيج بسرعة ، وكان في صفه

طالباً مثالياً ذكياً مجتهداً متواضعاً، وكان شديد الغرام بالإناث ، يجذبه هذا الجنس (Sex) كالمغناطيس .

وكان يتسلى بالخمير ويشغل نفسه بها فإنه لا يجد ما يسلي به نفسه وروحه ، كالإيمان بالله واليوم الآخر لأنه كان لا يؤمن بها^(١) .

« وكان يشعر بفرح وسرور حين يعتدي على الآخر ويسطو به وكانت هذه طبيعته التي فطر عليها، وقد تجلت هذه الطبيعة في تصرفاته. ولم يكن يعترف بعواطف غيره لأنه لا يرى أحداً يوازيه وكان مفطوراً على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادته وهواه ، وكان يجب أن يبقى على القمة دائماً ، وقد اطلع على كتابات والتر ، وروسو ، في مناسبات التي بعثت فيه روح الثورة وأيقظت فيه عواطفها الخاملة^(٢) » .

« - وقد هضم في شبابه مع أفكاره الثورية تعاليم ضياء كوك ألب هضماً جيداً ، وقد كافح ضياء كوك ألب للتثور والحرية الدينية، وكان رائد التنور الفكري الغربي، وقد تكهن في سنة ١٩٠٠م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب حبلها ، وأنه واقع لا محالة لأنها عشت بالنواجز على أسس الحكومة الفردية ، وكان يقول في أكثر الأحيان : « إن الحكومة الدينية حليفة وفيه للحكومة الفردية دائماً » وقد انتصر للتحرر عن السلطة الدينية انتصاراً قوياً، وكان يرى أن تحدد سلطات العلماء ويجب أن تحدد الجماعات الدينية المختلفة ويحظر على الأحزاب المتحمسة للدين

وَيُضِيقُ الخناق عليها لأنها (كما يقول) تقع فريسة الشيطان فتتهف بالجهاد ، وقد دعا بقوة إلى إلغاء الشريعة وإقصاء قضاة المحاكم الدينية الذين هم يشرحون القانون الإسلامي ويفسرونه ، وكان يرى أن تقام المحاكم الحديثة والمحاكم المدنية - «^(١) .

ويقول متحدثاً عن ما كان يضره ويعتقده كمال عن الدين عامة ، وعن الإسلام بصفة خاصة وعن وجهة نظره في كل ذلك :

« - قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه إلى الدين ، فإنه منافسه الأكبر ، وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله ، إنه اسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقة وكانت لا يؤمن إلاّ بالمشاهد المحسوس^(٢) ، وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملاً هداماً في الماضي ، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة وألحق بها خسائر فادحة ، وقد تناسى أن الإسلام وحده هو الذي أسس الإمبراطورية العثمانية الواسعة ، وكان يرى أن الناس قد أصبحوا فريسة الأوهام والجمود بتأثير الإسلام ، وكان يبغض الرجل الذي يخضع للقضاء والقدر ويقول : « هكذا أراد الله » وهذا الذي قدّر لي » وكان يعتقد أنه لا وجود للإله ، والإنسان يصنع قدره ، وكان يقول في أكثر الأحيان : إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على « قسوة » الإله ، ولكن يقول المتدينون : « الله يهمل ولا يهمل » كان يقول : ألم يطلع هؤلاء المتدينون على الطاقة الكهربائية التي تشتغل

(١) P. 251

(٢) وقد ذكر المؤلف في كتابه أن كمال في آخر مهاده كان يرفع قبضته ويدير بها إلى السماء ساخراً مهدداً .

بسرعة ؟ » وكان مصمماً على سن القانون لتحريم الدين في تركيا ، ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة وإلى الخدعة والتضليل - «^(١) .

ويقول في موضع آخر : -

« - ولم يكن لديه معنى لمبادئ علم النفس وللنظريات والفلسفات ، لذلك لم يمنعه شيء عن أن يعتبر الدين غير لازم لتركيا وشيئاً لا حاجة إليه ، ولكن الذي أعطاه للأمة التركية عوضاً عن الدين هو « الإله الجديد » أي الحضارة الغربية ، وليس من الغريب أن الأمة قد حاربت لروحها وقد تعلم درساً من تاريخ المدينيات الأخرى أن الآلهة القديمة تموت بصعوبة وعسر (لذلك لا تخرج عقيدة الإله من قلب الأمة التركية إلا بعد مدة طويلة) - «^(٢) .

ويقول في موضع آخر :

« - وكان ييغض الإسلام والعقيدة الصحيحة الراسخة بغضاً شديداً ، وكان يقول يجب أن نكون رجالاً من كل ناحية ، قد قاسينا خطوباً ومصائب عظيمة وكان السبب في ذلك أننا عشنا في عزلة عن الحياة ولم نحاول معرفة اتجاه العالم ويجب أن لا نفتخر بما يقول الناس ، نحن في طريق الحضارة والمدينة ، ويجب أن نعترف بذلك ونفتخر ، انظر الى المسلمين في نواحي العالم الإسلامي ماذا يعانون من المصائب والنوازل والدمار ، لماذا ؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا عقولهم للانسجام مع هذه الحضارة السامية المشرفة ، وهذا سبب بقائنا مدة طويلة في

الحضيض ، ووراء الركب ، وتردينا الآن في الهوة السحيقة ، وإن استطعنا في السنوات الماضية أن نتجح إلى حد في إتقاذ أنفسنا فذلك لأن عقلياتنا قد تطورت ، ولكننا لا نتقف على مكان ، بل إننا نهضنا لننتقدم ونواصل السير إلى الأمام فليحدث ما يحدث ، ليست لنا الآن طريق أخرى ، ويجب أن تعلم الأمة أن الحضارة نار ملتهبة تحرق جميع من لا يخضع لها^(١).

ويذكر بغضه وعدائه للدين في موضع آخر ، فيقول :

« - لم يكن ذلك سراً أن مصطفى كمال لا يدين بدين ، لذلك كان شائعاً بين الناس أن الخلافة ستلغى قريباً ، وقد فزع الناس حين شاع أن مصطفى كمال رمى المصحف على رأس شيخ الإسلام الذي كان من كبار علماء الإسلام وشخصية محترمة ، ولم يكن جزاء ذلك إلا أن يلقي حتفه لساعته ، ولكن ذلك لم يحدث ، ويدل ذلك على أن الزمن قد تطور كثيراً^(٢) » .

ويذكر المؤلف حبه وهيامه بالحضارة الغربية وما كان لها في نظره من القدسية والحرمة وكيف كانت تسيطر على عواطفه وتتغلغل في عروقه ودمه ، فيقول .

« إن مصطفى كمال كان يتمسك إلى حد كبير بما يلحق ويقول ويأمر به الناس ، وكان يعبد هذا الإله الجديد (الحضارة الحديثة) بحماس ولهفة وكان له عابداً وفيّاً ، وقد نشر هذه الكلمة « الحضارة »

من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وعندما يتحدث عن هذه الحضارة تتقد عيناه لمعاً وإشراقاً ، ويظهر على وجهه إشراق كإشراق الصوفية عند مراقبة الجنة ^(١) .

ماذا كانت فكرته عن الحضارة وكيف كان يريد أن يرى الأمة التركية يُقدر ذلك من الكلمات التالية التي يذكرها المؤلف :

« - يقول مصطفى كال لشعبه يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية ، وعلينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية ، ولا نسمح لمن يجهلنا في الشعوب الأخرى بالضحك علينا وعلى موضتنا القديمة البالية ، نريد أن نسير مع التيار والزمن ^(٢) - »

« - كان يتصور تركيا متطورة مصوغة في صياغة جديدة، ولكن المواد الخام الإنسانية التي رزقها (الشعب التركي) كانت مجموعة بشرية تتسم بالتشاؤم والكآبة ولم تتناولها يد صناع حاذق شأن الأغمار الذين يدخلون في الخدمة العسكرية جديداً ، بدأ يشتغل وحيداً وهو دافق بالحياة لا يثق إلا بنفسه لا يهدأ ولا يستريح ، وقد أصبح التدخل في شئون غيره عادة وهواية له ، وكان ممتلئاً بالحياة والقوة الفكرية ^(٣) - »

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس ، وألزم ليس القبعة على الرأس عوضاً عنه وذلك لكي ينصبغ الشعب التركي بصبغة الامم الغربية

p. 273 (١)

P. 260 (٢)

P. 244 (٣)

بأسرع ما يمكن ، ويندمج بها اندماجاً كلياً ، ولا تبقى ميزة يمتاز بها الشعب التركي عنها .

استعمل القسوة النادرة والعنف البالغ في تحقيق هذا الغرض كأنه لإصلاح أكبر وأهم من هذا ، وكان سعادة الشعب كانت تتوقف على ذلك ، وكأنه الشرط الأساسي لمجد تركيا وكرامتها ، إن حرب القبة الدموية تحولت إلى حروب صليبية ، يذكر مؤلف سيرته التركي هذه المعركة ويقول :

« وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا ، حتى أصدرت الحكومة أمرها لبارجة بالبقاء في ميناء البحر الأسود ، وأقيمت المحاكم في كل ناحية وصوب وفي أمكنة مختلفة للبلاد ، وبدأت تشتغل وتحكم ، إن هذه الأحكام أهاجت الثوار أكثر من ذي قبل ، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا في قلوب الناس روح المقاومة والحماس الديني القوي ، أو اضطروا لأن يختفوا عن الأنظار ، ولم يستعمل رفقاً ورحمةً ومسامحةً في مناسبة ، وقرّر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه ، ولم يكن يحتفل بالوسائل والطرق التي يستخدمها في هذا الشأن ، يلقي القبض على الناس وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمون سواء .

إن كمال لم يؤنب المحاكم على إجراءاتها العنيفة ولم يتوقف في تحطيم إرادة الشعب .

وكان يقول في ذلك الحين في فخار وكبرياء : « أنا تركيا ، هزيمتي هزيمة

تركيا» وقد أثارت هذه الأنانية الجنونية أولئك الذين كانوا يعدونه منقذ تركيا ، وقد كسبت معركة القبعة أخيراً ، وفازت الحاكم واعترف الجمهور والشعب بهزيمتهم ، وقد أرسل مصطفى كمال مندوباً من قبله من أعضاء البرلمان أديب ثروت إلى المؤتمر الإسلامي بمكة المكرمة (١٩٢٧) ليثبت للعالم نجاحه وانتصاره ، وكان أديب ثروت المسلم الوحيد الذي حضر المؤتمر وهو لأبس قبعة، وقد استقبله الممثلون المسلمون الآخرون بانقباض وعلى غضاضة - ^(١) .

ويذكر المؤلف - على كل حال - مميزات أتاترك الطبيعية وأخلاقه وصنائه ويلقي ضوءاً على حياته بإيجاز ويقول : -

« - إنه جرب في حياته أحزاناً ويأساً ، وقل ما حظي بالفرح والسرور ، كان يحب الفقراء ويكره الأغنياء ويخشى العلماء والمفكرين لأنهم يفوقونه في القوة والكفاية ، كان يعشق الخمر والنساء والموسيقى ، وكان يكره كل أولئك الذين يختلفون معه ، وإن كان هو يستغلهم لأهدافه وغاياته ، وكانت قد بلغت به قوة عزمه وعناده وتصلبه وصفاء عقله وفكره إلى قمة المجد ، وقد التقت طبيعته وعصره ، وتقدما جواراً بجوار وبلغا الأوج ، وكان سر عظمته أنه كانت أهدافه محدودة ومعينة : تأسيس دولة على طراز عصري في حدود معينة واضحة ، وكانت له ميزة بارزة وهي أنه كان لا يعدل عن فكرته في أحلك ساعة وأدقها - ^(٢) »

إصلاحات أتاترك وخطواته الثورية :

لم يكن كال أتاترك كما تجلى من تاريخه الذي أوجزناه عالمياً واسع الثقافة ، أو مفكراً عميق النظر ، إنما كان زعيماً قومياً قوياً الإرادة ، وحاكماً قوياً شديداً للتنفيذ وجز وصفه مؤرخه الانجليزي الشهير ، فيقول :
 « في مواهبه وكفايته كان جندياً ، وفي غريزته كان معلم ثانوية وفي اتجاهه كان سياسياً »^(١) .

ومآثرته التاريخية أو بطولته - كقائد وزعيم - مقصورة على « عملية النقل والتحويل » التي قام بها ونجح فيها أكثر من غيره ، يقول المؤرخ السابق ملخصاً دوره العظيم الذي مثله في تاريخ تركيا الأخير :
 « انطلق » كال أتاتورك « يكمل عمل التحطيم الشامل الذي شرع فيه ، وقد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد ، يجب عليه أن يزيل جميع الانتقاض التي تحيط بها ، هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم ، ونقل السلطنة إلى (ديمقراطية) وحول الامبراطورية إلى قطر فحسب ، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية .

إنه طرد السلطان (الخليفة) وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية ، وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكاملها ، وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه ، وتقاليده وأساليب الحديث ، ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي ، وبالبيئة الشرقية ، لقد كان ذلك أصعب بكثير من تكوين الجهاز السياسي من جديد ، وكان يشعر بصعوبة هذه

العملية فقد قال مرة : « انتصرت على العدو ، وفتحت البلاد ، هل أستطيع أن أنتصر على الشعب ؟ »^(١) .

إنه انتصر على الشعب حقاً فقد جعل الدولة علمانية ، ليس الإسلام دينها الرسمي ، وأحدث الفصل بين الدين والسياسة وقرر أن الدين قضية شخصية ، لكل فرد أن يختار له ديناً ويدين به ، من غير أن يكون له دخل في السياسة ، والإدارة ، وألغى الخلافة ، وألغى المحاكم الشرعية ، وقانون الشريعة الإسلامية ، وقرر العمل بالقانون المدني السويسري ، والقانون الجنائي الإيطالي ، والقانون التجاري الألماني ، وأدخل الأحوال الشخصية في القانون المدني الأوربي ، ومنع التعليم الديني ، وعطل مراكزه ، ومنع الحجاب ، وقرر السفور والتعليم المختلط ، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية ، وغير اللباس ، وألزم لبس القبعة ، وبعبارة موجزة : « قد حطم الأساس الديني وغير وجهة نظر الشعب التركي والحكومة التركية »^(٢) .

إن عرفان أوركا بعد تقديم خلاصة المحاضرة التي ألقاها كمال في البرلمان حيناً قدم إليه مشروع تحويل الدولة علمانية يقول :

« - قدم مصطفى كمال في ٣ / آذار (مارس) ١٩٢٤ م مشروعاً تحولت به الدولة التركية دولة علمانية (Secular) وألغى منصب الخليفة

وقد كان مصطفى كمال صريحاً وجريئاً في حديثه عن هذا الموضوع ، فقال : « إن الامبراطورية العثمانية قامت على أسس الإسلام ، إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربي وتصوراته عربية ، وهو ينظم الحياة – من ولادة الإنسان إلى وفاته – ويصوغها صياغة خاصة ، ويخلق الطموح في نفوس أتباعه ، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام ، والدولة لاتزال في خطر ما دام الإسلام دينها الرسمي »^(١) .

ويقول المؤلف متحدثاً عن التأثير العميق الذي أحدثه ما انتهت إليه الحكومة الجديدة وما قررته من إصلاحات حديثة :

« – كل ما قرره البرلمان لم يسترع الانتباه إلا قليلاً ، كان ذلك في الواقع ضربة قاضية على الإسلام وأصابه في مقتل وقد كان تأثير قرار توحيد المعارف بعيداً في نظام الثقافة والتعليم فقد استحوذت بذلك وزارة المعارف العمومية على الجهاز التعليمي كله في حدود الجمهورية ووضعت يدها عليه ، وقد شل هذا التطوير نشاط المدارس وحرية الأساتذة والمعلمين الذين كانوا يباشرون التدريس فيها .

والخطوة التالية هي تأسيس إدارة الشؤون الدينية التي كانت تحت إشراف مدير رسمي ، وقد كانت تخلف وزارة الشريعة والأوقاف القديمة ، وكانت هذه الوزارة تتولى الأمور الدينية أو المقاصد الخيرية ورعاية المساجد ودار الأيتام ، ولكنها كانت تسيء تطبيق النظام والإدارة بـ « فاضحة »^(٢) .

وقد كان إحداث الحروف اللاتينية وحده كفيلاً بحدوث ثورة في حياة الشعب التركي وإنشاء جيل جديد تنقطع كل صلة له عن الحضارة القديمة والثقافة الماضية ، وقد كان طبيعياً أن تخضع العلوم والآداب كلها لهذا الحادث الخطير ، وقد تحدث المؤرخ الكبير آرنولد توينبي (Arnold Toynbee) في كتابه (A study of History) ببلاغة عن مدى التأثير الذي أحدثته تغيير الحروف في تركيا وذكاء كمال ألتاتورك في اختيار أفضل الطرق لذلك ، يقول :

« قد شاع في الناس أن مكتبة الاسكندرية التي كانت تضم ذخائر أكثر من تسعة قرون علمية سجر بها التنور لتسخين الماء للحمامات^(١) . وقد قام هتلر في عصرنا بكل وسيلة بإتلاف الذخائر العلمية التي تعارض فكرته ، وبإبادتها وقد جعل حدوث المطالع نجاح هذه العملية شبه المستحيل .

وقد كان مصطفى كمال معاصر هتلر أكثر توفيقاً وذكاء في إظهار الطريقة التي تضمن نجاحه ، وكان دكتاتور تركيا يريد أن يحرر مواطنيه وعقلياتهم من أجواء المدينية الإيرانية التي ورثوها ودرجوا عليها ويصوغهم بقوة في صياغة الحضارة الغربية وقد اقتصر على تحويل حروف

(١) يشير الى قصة حرق مكتبة الاسكندرية وأسطورتها التي خلاصتها أنه أحرقت هذه الذخائر العلمية بأمر من سيدنا علي رضي الله تعالى عنه ، وقد تحقق تاريخياً أن هذه الرواية أسطورة لأصل لها ، بل كانت هذه المكتبة قد أحرقت قبل الفتح الاسلامي من مدة طويلة ، وقد أثبت العلامة شبلي النعماني عليه رحمة الله في كتابه العظيم « مكتبة الاسكندرية » أنها لا أساس لها من الصحة ، وهو من خير البحوث التي تتناول هذا الموضوع ،

الهجاء مكان إحراق الكتب ، وقد استغنى بذلك عن تقليد امبراطور الصين أو الخليفة العربي ، وقد أصبحت الذخائر الكلاسيكية للكتب الفارسية والعربية والتركية لا تتناولها أيديهم ، وأصبحت أجنبية لا تبلغها مداركهم ، وأصبح إحراق الكتب عملاً لا لزوم له ، لأن حروف الهجاء قد ألغيت وقد كانت مفتاح هذا النتاج العلمي والإفادة منه ، وبذلك ستظل هذه الذخائر مقفلة في الدواليب ينسج عليها العنكبوت ولا يطمع في قراءتها إلا بعض الشيوخ المسنين من العلماء^(١) .

إن «أتاتورك» نجح نجاحاً باهراً في إقصاء العنصر الإسلامي والعربي من الحياة التركية ، ولا يدري أحد هل كان هذا الانتصار مؤقتاً تقضي عليه ثورة الشعب التركي المسلم ، وانتفاضته الإيمانية ، أم تطول مدته ؟ وعلى كل فقد كان تغييراً شاملاً عميقاً .

تأثير أتاتورك في العالم الإسلامي :

وهكذا كانت تركيا - مع الأسف - طليعة حركة التجديد - وبعبارة أصح التجدد - وطليعة «التغريب» وقذوة الزعماء «التقدميين» في الدول والحكومات والأقطار الإسلامية، وكان كمال أتاتورك رمز التقدم و«الثورة» في كل بلد ناهض، وفي كل مجتمع متحرر في العالم الإسلامي، والمثل الأعلى للقادة والسياسيين والمفكرين المسلمين على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم، ولا نعرف زعيماً - على فقره في النبوغ العقلي والتعمق - من زعماء البلاد الإسلامية أثر في العقول والنفوس، وأثار الإعجاب بشخصيته

وأعماله وأثار الرغبة في تقليده والاحتذاء به، مثل ما فعل «كال أتاتورك» في الزمن الأخير .

وكان السبب الأكبر في ذلك ما اشتهر أنه أتخذ تركيا من الخطر المحقق بها ، الآخذ بالحناق ، وأسس حكومة قوية ، وكسب احترام الحكومات الأوروبية والزعماء السياسيين في أوروبا ، وكان المسلمون في الشرق متعطشين إلى القوة السياسية والمجد والاستقلال ، يخضعون بالإجلال لكل من يتسم بذلك أو يسعى إليه ، فخضعوا لأتاتورك ودانوا له بالحب العميق والتقديس المفرط ، ونسوا في تقديسهم له ما للشعب التركي المؤمن الشجاع من سهم ومن فضل في هذه الثورة ، وفي التمرد على الأوضاع القاسية ، والأمم الضارية ، وفي بناء هذا الكيان القومي المتين ، وردوا الفضل كله في ذلك إلى عبقرية «كال» وقيادته الفذة . والسبب الثاني أن إصلاحاته صادفت رغبة في نفوس الزعماء القوميين ، وعبرت عما تجيش به نفوسهم من القلق والثورة على القديم ، والتحرر من ربة الدين ، والاتجاه بشعوبهم إلى الحضارة الغربية ، ومهما كانت الأسباب فإن كال أتاتورك قد حل محلا في النفوس لم يشغله زعيم شرقي من زمن طويل ، وكان له تأثيره المتوقع في اتجاه الشعوب والأمم الإسلامية والموقف الذي اتخذته إزاء الحضارة الغربية .

الصراع بين الشرق والغرب في الهند :

وكانت المجال الثاني الذي ظهر فيه - لعوامل سياسية وثقافية - الصراع بين الشرق والغرب واضحا قويا ، وكان مكلفا باختيار أحد

الطريقين: الحياة الإسلامية على أساس العقيدة والإيمان، والحياة الغربية على أساس القوة والتقدم، هو الهند التي توطدت فيها الحكومة البريطانية الزعيمة للحضارة الغربية في الشرق ، وزحفت إليها العلوم الحديثة والتنظيمات الجديدة ، وما تستتبعها من آلات ومصنوعات وآراء وفلسفات ، وكان الشعب الإسلامي الهندي منهوك القوى ، مُثخناً بالجراح ، مجروح الكرامة ، يعاني دهشة الفتح وعار الهزيمة ، وجيشاً من التهم والظنون، ويواجه فاتحاً ممتلئاً بالقوة والشباب والثقة، وحضارة زاخرة بالجددة والنشاط والإنتاج، وقضايا كثيرة ومشكلات تطلب الحل السريع الحازم ، والموقف الواضح الحاسم .

القيادة الدينية والمدرسة القديمة :

في هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، وفي هذه الحالة النفسية المخرجة برز في الميدان نوعان من القيادة : أولهما القيادة الدينية ، التي يتزعمها علماء الدين، والقيادة الثانية ، يتزعمها سيد أحمد خان وتلاميذه وأنصاره من أهل المدرسة الجديدة .

أما علماء الدين فقد كانوا أقوى علماء العالم الإسلامي شخصية دينية، ومن أكثرهم رسوخاً في الدين ، وزهداً في الدنيا ، وإيثاراً للآخرة ، وغيره على الإسلام ، وجهاداً في سبيله بالنفس والنفيس ، ولكن جوهر الخاص الذي عاشوا فيه ، وثقافتهم القديمة ، لم تمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة الغربية والثقافة الجديدة وقيادتها إلى ناحية جدية مجدية تعود على الإسلام والمسلمين بالنفع والقوة .

ثم إن الهمجية التي ظهرت من الحكومة الانجليزية والقسوة النادرة التي عاملت بها المسلمين الذين اعتبرتهم أصحاب الفكرة في الثورة المحفقة سنة ١٨٥٧ م وقادتها^(١)، وتحمس الحكام والولاة الانجليز لنشر المسيحية في طبقات الشعب الهندي، والسرعة الزائدة التي كانت الحضارة الغربية تنتشر بها في الجمهور وتأثيرها في عقيدة المسلمين وأخلاقهم ، كل ذلك وضعهم في مركز الدفاع عوضاً عن الهجوم ، وجعلهم يفكرون في الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية، والروح الإسلامية ومظاهر الحياة الإسلامية ، والدعوة إلى التجنب عن هذه الحضارة والابتعاد عنها ما أمكن، وجعلهم يفكرون في بناء معادل الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، والعلوم الشرعية ، وتخريج العلماء والدعاة والمرشدين من هذه المعادل التي سميت بعد بالمدارس العربية .

وكان على رأس هذه الحركة الإصلاحية والتعليمية المنتجة الشيخ محمد قاسم النانوتوي^(٢) مؤسس معهد ديوبند الكبير ، وكان لا ينظر إلى

(١) اقرأ فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » في كتابنا « المسلمون في الهند » ص ٨٤ - ٩٤ ط - دار الفتح - دمشق

(٢) هو الشيخ الإمام قاسم بن أسعد علي البكري النانوتوي ولد بنانوته سنة ١٢٤٨ هـ وقرأ على الشيخ مملوك المكي النانوتوي، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي، وأخذ الطريقة من العارف الكبير الشيخ إسماعيل الله العمري النانوتوي ، وأسهم في ثورة سنة ١٨٥٧ هـ على الحكومة الانكليزية ، واضطر إلى الاختفاء مدة من الزمان، وبنى فكرة تأسيس مدرسة كبيرة في ديوبند وانقطع إليها ، وكانت له مواقف عظيمة في مناصرة النصارى والآرية ظهرت فيها براعته وذكاؤه وإخلاصه، وعارض قائد الحركة التعليمية الجديدة السيد احمد خان لآرائه العاذرة وحريته الزائدة في تفسير القرآن والدعوة إلى تقليد الحضارة الغربية ، وقد اعترف السيد احمد خان بتبحره في العلم وإخلاصه في المعارضة وزهده في زخارف الدنيا له مؤلفات بليغة أشهرها تقرير وليندير ، وحجة الاسلام ، وآب حبات . توفي إلى رحمة الله سنة ١٢٩٨ هـ .

المؤسسة التي ساهم في تأسيسها وقادها في حياته ، كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية ويخرج الفقهاء والمعلمين فحسب، بل كان ينظر إليه كمركز « وثكنة » تخرج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعد ما لقي المسلمون الهزيمة المنكرة من الإنجليز المحتلين، وانقرضت الدولة الإسلامية من الهند .

الجزء الأول من
يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلاني في « سيرة مولانا محمد قاسم النانوتوي » مؤسس دار العلوم ديوبند :

« قد اشتغل عقله الكبير في فتح الجبهات الجديدة وتهيئة مجالات الكفاح بعد ما أخفقت ثورة عام ١٨٥٧ م ، وكان نظام التعليم والتربية السائد في دار العلوم ديوبند عاملاً أساسياً لتحقيق هذا المنهج الذي آثره الشيخ » .

إن الذين تراجعوا من ساحة شاملي^(١) لم ينقطعوا عن التفكير، ولم يضعوا أوزارهم ، بل بقي هؤلاء يكافحون لبقاء الدين والعلم الديني ، واشتغلت به عقولهم وقلوبهم ، ينتظرون من الله النصر ، وكان من ضمن هذه الجهود هذه المدرسة التي لم تكن غايتها التدريس والتعليم فحسب، وإنما كان من غايتها الأساسية تربية رجال يتداركون الهزيمة التي لحقت المسلمين في ١٨٥٧ م^(٢) .

(١) قرية بين دهل وسهارنپور وقد كانت فيها في عام ١٨٥٧ م معركة حربية ضد الإنجليز قاتل فيها الحاج إمداد الله المهاجر المسكي ، والشيخ محمد قاسم وزملاؤهما واستشهد فيها الشيخ محمد ضامن .

(٢) سوانح قاسمي الجزء الثاني ص ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٦

وسواء تحقق هذا الغرض النبيل أم لم يتحقق ، ولكن مما لا شك فيه أن لهذه الحركة وقادتها فضلاً كبيراً في تمسك الشعب الهندي الإسلامي بالدين وشريعة الإسلام ، وتفانيه في سبيله ، والتمسك أمام الحضارة الغربية المادية الإلحادية تماسكاً لم يشاهد في بلد إسلامي آخر تعرف بهذه الحضارة ووقع تحت حكم أجنبي ، وكانت ديوبند زعيمة هذا الاتجاه ، والمركز الثقافي الديني والتوجيهي الإسلامي الأكبر في الهند^(١)

حركة ندوة العلماء :

وكانت حركة ندوة العلماء الفكرية التي أسسها مولانا محمد علي مونكيري^(٢) وقادها الاستاذ شبلي النعماني^(٣) وزملاؤه ، ودار العلوم

(١) انظر فصل « مراكز العلم والثقافة الإسلامية » في كتاب « المسلمون في الهند » ص ٦٤ - ٦٦ .

(٢) هو السيد محمد علي بن عبد المولى الحسيني ، ولد في كافر في ٣ شعبان ١٢٦٢ هـ ٢٨ يوليو ١٨٤٦ م ، تخرج في مدرسة فيض عام كافور ، وبايع الشيخ العارف فضل رحمن الكنج مراد آبادي واختص به . قاوم حركة التنصير في الهند مقاومة فعالة وألف وكتب وقام بجولات واسعة في البلاد . وأسس ندوة العلماء في سنة ١٣١٠ - ١٨٩٣ م ، وأنشأ دار العلوم الناجمة لها في عام ١٣١٦ - ١٨٩٨ م ، وقاوم حركة القاديانية في « بهار » وبايعه خلق كثير يعدون بالآلاف ، توفي في ٩ ربيع الأول سنة ١٣٤٦ هـ ، وكان من كبار المخلصين والعلماء الربانيين الذين شعروا بتغير الأحوال والاضطراب في العالم الإسلامي ، ونهضوا لتجديد في مناهج التعليم الديني .

(٣) هو الشيخ شبلي بن حبيب الله ولد في سنة ١٢٨٤ هـ في اعظم كرنه ، ودرس زماناً في كلية علي كره ، وصحب السيد أحمد خان مؤسس الكلية ، وأنكر بعض اتجاهاته للطرفة ، وزار تركيا ومصر وسورية وغادر الكلية وأقام في حيدر آباد خمس سنين . مديراً لنظارة العلوم والفنون ، وأسهم في حركة ندوة العلماء وكان عضواً النشط والمصرف التعليمي لمدة ثمانية أعوام ، ثم استقال وأسس المجمع العلمي المعروف بدار المصنفين في اعظم كره ، وألف في التاريخ الإسلامي كتاباً مهمه ، وكانت له مكانة مرموقة في قهل الشعر ، والادب والتاريخ ومن مصنفاته المشهورة سيرة المؤمنون ، وسيرة النعمان ، وكتاب الجزية في الاسلام ، وحقوق القدمين ، و « الفاروق » وشعر المجمع . وغير ذلك ، توفي ١٣٣٢ هـ ببلدة اعظم كره .

التابعة لها جذيرة بإحداث قنطرة تصل بين الثقافتين الإسلامية والغربية، والطبقتين : علماء الدين والمثقفين العصريين ، وإحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد، وبتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية « بين القديم الصالح والجديد النافع » و « بين التصلب في الأصول والغايات والتوسع والمرونة في الفروع والآلات » كان قادة هذه الفكرة ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو والتطور ، خاضعة لحاجة كل عصر ومقتضاه ولم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لامرونة فيها (مع الاحتفاظ بالروح والأهداف والعلوم الأساسية) وهي عندهم حافلة بالحياة الكاملة والازدهار ، وبتعبير آخر : إن الدين حقيقة خالدة ليست في حاجة إلى تطوير أو تبديل ولكن العلم شجرة مزهرة مثمرة تؤتي أكلها كل حين ويستمر غوها وازدهارها ، والإسلام عندهم دين الإنسانية كلها ودين العصور كلها ، لذلك من الطبيعي أن يمر بمراحل التطور والارتقاء الفكري الإنساني المختلفة ، ويكلف القيادة في بيئات تتغير فيها الأفكار والمفاهيم ، لذلك يجب أن يوسع نطاق التعليم والثقافة الذي يعد ممثلي الإسلام ومفسريه ، ويبرهن دائماً على صلاحها وحيويتها، وقد رفع مؤسسو ندوة العلماء أصواتهم لإصلاح المناهج وتوسيعها وتطويرها ، وقد كان هذا الصوت غريباً في الهند التي ظلت متمسكة بالمنهج القديم عازة عليه بالنواجذ ، وكان خافتاً في الأقطار الإسلامية الأخرى كذلك، يقدر ذلك بقطعتين اقتبسنا أحدهما من كتابة مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد علي المونكيري ، والثانية من كتابة العلامة شبلي النعماني : —

« - قد تغيرت الظروف والأحوال في هذا العصر، إن الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها وقيمتها ، وانقرضت الفرق التي كانت تثيرها وتتشبَّث بها ، وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها إضاعة للوقت وجهادا في غير عدوٍّ ، وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته ، قد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر لم تكن نخطر على بال ، وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة ، ولا يمكن إشباع الرد عليها والاقناع العلمي بالاعتقاد على الفلسفة القديمة فقط . وإن زعم زاعم ، والسبب في ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلا إذا عرف ما يؤول إليه الاعتراض وعرف الدوافع ^(١) .

« - إن هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ولا يتوقف عليها فهم ديننا ومعرفته ، إن الإمام الغزالي في عصره قد ضم هذه المواد الدراسية إلى مناهج التعليم في عصره لكي يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التي نشطت في نشرها الفرقة الباطنية في ذلك العصر ويقاوموا بذلك حركة الإلحاد المتفشى في ذلك العصر ، ولكن الآن لا وجود لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد صدقها وصحتها المتنورون ولا من يدعي الفطنة لذلك فقدت تأثيرها ولا خطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ودراسات وأبحاث جديدة ، وقد أصبح من الضروري أن يطالع

(١) مكاتب عمدة - مجموع رسائل الشيخ محمد علي المونكيري .

علمائنا على الأبحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة وليردوا على الشبهات رداً علمياً مؤسساً على الدراسة والتحقيق^(١) .

وكانت حركة ندوة العلماء فكرة ومدرسة فكرية أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب ، وكانت - لو قدر الله - خطوة مباركة وفتحاً جيداً يستحق التقليد في الأقطار والمجتمعات الإسلامية التي خاضت في ذلك العهد في معركة الصراع بين القديم والجديد ، ولكن هذه الحركة لم تحظَ بالتعاون الواسع المتحمس الذي كانت تستحقه من كلتا الطبقتين : القديمة والجديدة ، لاتساع الفجوة بينهما ، ولوجود التطرف والمغالاة فيها ، وبعض الخلافات التي حدثت في صفوف العاملين لهذه الفكرة ، وأخيراً لا آخرأ لعدم وجود طبقة من الاساتذة والموجهين الذين قد تبجروا في الثقافتين ، وقد أحسنوا هضمهما وكونوا من هذه المواد - التي قد تبدو متناقضة - رحيقاً صافياً شهيئاً نافعاً ، كما تعمل النحل من الأزهار والأشجار ، وبقي معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين ؛ طبقة ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية والانحراف عنها قيد شعرة ضرباً من التحريف أو نوعاً من البدع ؛ وطبقة تقدر كل ما جاء من الغرب وتبرئه من كل عيب وتقص ، وتعتقد بأصحابه العظيمة والعبقرية ، في جميع الآراء والمذاهب الفكرية .

ورغم ذلك كله لاتزال فكرة ندوة العلماء الفكرة الوسط الحقيقية

التي تستطيع أن تُنقذ نظام التعليم الديني من الانهيار وتتفادى بها الأمة الصراع بين القديم والجديد ، ووجود طبقتين متناوئتين متنافستين ؛ طبقة علماء الدين ، وطبقة رجال الثقافة الحديثة ، الذي جرّ على كثير من البلاد الإسلامية شقاء ، وكان السبب في كثير من الأحيان في اتجاه البلاد العلماني ، واللا ديني .

وكان لقادة هذه الفكرة ولتخرجي مدرستها - دار العلوم ندوة العلماء - فضل لا يستهان به في نشر الثقافة الإسلامية ، وعرض السيرة النبوية ومحاسن الإسلام وتعاليمه في أسلوب عصري قوي وثوب قشيب ، وكان لكتابات العلامة شبلي النعماني العلمية والأدبية ولا سيما لكتبه « سيرة النبي ﷺ » و « الفاروق » و « الغزالي » و « الرومي » و « لرسائله : « الجزية في الإسلام » و « مكتبة الاسكندرية » و « نظرة تاريخية على عالمكير » تأثير كبير في إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية ، ومكافحة مركب النقص فيهم ، كذلك كان لتلميذه النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي رحمة الله عليه فضل كبير في هذا الاتجاه . وكانت المجلات الأربعة التي أكمل بها كتاب سيرة النبي ﷺ موسوعة كبيرة في السيرة وعلم التوحيد ، ويعتبر كتابه « خطبات مدراس »^(١) من أقوى وأجمل ما كتب في السيرة ، وكذلك كتبه عن الشخصيات الإسلامية ، وفي البحوث العلمية ، وقد ساهم بنشاط وجدارة في حركة

(١) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ونعمر باسم « الرسالة المهدية » ط : دار

البلاد العلمية والأدبية والسياسية مساهمة أ كسبت العلماء تقدير رجال الثقافة الجديدة ورجال العلم والأدب، وأبعدت عنهم تهمة « الانعزالية » التي أُصيب بها العلماء في عهد الانحطاط الأخير وكانت مجلة « المعارف » التي يرأس تحريرها تعتبر من أرقى المجلات العلمية الإسلامية في العالم الإسلامي .

قيادة السيد احمد خان ومدرسته الفكرية .

أما القيادة الثانية التي تزعمها سيد أحمد خان فقد قام على أساس تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية ، واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاقتها ، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيراً يطابقان به ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة في آخر القرن التاسع عشر المسيحي^(١) ويطابقان هوى الغربيين وآراءهم وأذواقهم ، والاستهانة بما لا يثبت به الحس والتجربة ، ولا تقرره علوم الطبيعة في بادئ النظر، من الحقائق الغيبية ، وأمور ما بعد الطبيعة^(٢) .

(١) وكان كما لا يخفى دوراً لم تبلغ فيه العلوم الطبيعية نهايتها واكتمالها ، وكانت لا تزال في دور الطفولة والنشوء والارتقاء .

(٢) انظر التفصيل وفهم أسلوب التفكير الديني الذي اتبعه مرسيد أحمد خان في آرائه الدينية ومناهجه الكلامية ، كتاب - Religious Thought of Syed Ahmad Khan مؤلفه بشير أحمد دار - Bashir Ahmad Dar M . A . institute of islamic culture, Lahore .

من مطبوعات مجمع الثقافة الإسلامية .

شاهد السيد أحمد خان^(١) انهيار الحكومة الإسلامية المغولية التي كانت صورة مصغرة شاحبة للإمبراطورية الإسلامية ، ورأى إخفاق الثورة الكبرى في سنة ١٨٥٧ م ، واطلع على أسباب هذا الإخفاق الذريع : انهزام مجموعة كبيرة ضخمة من أهل البلاد أمام حفنة من الأجانب الغرباء ، ورأى ما دفع المسلمون من قيمة هذه الثورة التي رسموا خططها وتولوا كبرها ، ورأى هوان الشعب الكبير الذي كان صاحبه الأمر والنهي في البلاد ، وشقاء الأسر والبيوتات الكبيرة ، ورأى سطوة الانجليز تقوم على هذه الانقراض ، وأبهة ملكهم ، وطلائع مدنيّتهم الخلافة ، وآياتها الباهرة ، واتصل بالانجليز اتصالاً وثيقاً عن طريق الوظيفة والزمالة وعن طريق الصداقة والتعارف ، فأعجب يذكائهم وكفاعتهم ومدنيّتهم ، وكان رجلاً مرهف الحس ، حاد الذهن ، قوي العاطفة ، عصبياً ، سريع الانفعال والقبول ، مشاركاً في الثقافة الدينية

(١) هو السيد أحمد بن المنفي بن الهادي الحنفي الدهلوي، ولد في سنة ١٢٣٢هـ - ١٨١٧م وقرأ للتوسّطات في العلوم العربية ، وعنى بالهيئة والهندسة والأبليس عناية خاصة ، وتولى الوظائف والقضاء في الحكومة الانجليزية، وألف كتباً ذات قيمة علمية في التاريخ ، وتولى تصحيح بعض الآثار العلمية والوثائق القديمة ، وأشرف على ضبطها ونشرها ، وكان من أنصار الحكومة الانجليزية ومن سعى في إخماد ثورة ١٨٥٧م وتوطيد الحكم الانجليزي وإزالة سوء التفهم والوحشة بين الشعب والحكومة ، وكافأته الحكومة على ذلك براتب شهري ، وأنشأ مجعاً علمياً لترجمة والتأليف والنشر ، وأصدر مجلة « تهذيب الأخلاق » وسافر الى أوروبا سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٩م وألف هناك كتابه المشهور « الخطبات الأحمديّة في العرب والديرة الحمديّة » في الرد على السير ولهم ميوز ، والدفاع عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ سنة ١٨٧٥م كلية إسلامية انجليزية ، وهي التي تسمى الآن جامعة علي كرم الإسلامية وتوفي سنة ١٣١٥هـ - ٨٩٨م ودفن في علي كرم .

غير راسخ فيها ، ولا متقن لها ، جريئاً في إبداء الرأي ، فتأثر بالإنجليز تأثر المغلوب بالغالب ، والضعيف بالقوي ، وقلد حضارتهم ، وأساليب حياتهم شخصياً ، وصار يدعو إلى هذا التقليد في حماسة وقوة ، ويرى أن هذا التقليد والظهور في مظهر سيد البلاد ومجاراته في الحياة والعادات تزيل الهيبة من قلوب المسلمين ، وتعالج «مركب النقص» فيهم ، وترفع مكانتهم في عيون الولاة ورجال الحكومة ، وتضعهم في مكان الزملاء ، الشركاء في الحياة ، الأقران في الاجتماع ، يدل على هذه الفكرة دلالة واضحة ما جاء في بعض مقالاته ، يقول :

« لا بد أن يرغب المسلمون في قبول هذه الحضارة (الغربية) بكاملها ، حتى لا تعود الأمم المتحضرة تزدريهم أعينها ، ويعتبروا من الشعوب المتحضرة المثقفة »^(١) .

وقام السيد أحمد خان برحلة إلى إنجلترا في أول إبريل ١٨٦٩م فكان أول مسلم هندي سافر إلى الجزائر البريطانية في هذا العهد المبكر ، وقد كانت قناة السويس في دور الإنشاء^(٢) وقد قابل صاحب فكرتها والإشراف عليها المهندس الفرنسي الشهير الموسيو فرديناندي ليسبس (Ferdinand De Lesseps) الذي كان مسافراً في نفس السفينة . وكان السيد أحمد خان موضع حفاوة تادرة في لندن ، وقد مكث فيها سبعة

(١) مجلة « تهذيب الأخلاق » مقالات السيد أحمد خان ج ٢ ص ١٠ .

(٢) وفي ١٢ نوفمبر ١٨٦٩ نصمت التهمة لمرور المراكب وجرى ذلك باحتفال عظيم لم

يكن اسمه بذلك وذلك في أثناء وجود السيد أحمد خان في إنجلترا .

عشر شهراً ، كان فيها ضيفاً مبعجلاً وزائراً كريماً ، وصديقاً عزيزاً في الأوساط الإنجليزية المحترمة ، وحضر المآدب الملكية الفخمة والولائم « الارستقراطية » التي تمثل الحضارة الأوربية في أروع مظاهرها ، وأخلاق الطبقة الحاكمة ، وطبقة الأشراف ، ونال الوسام الملكي ولقب الشرف ، وقابل الملكة ، وولي العهد والوزراء الكبار ، واختير عضواً فخرياً في جمعيات علمية ذات الشرف الكبير ، وحضر حفلة نادي المهندسين الكبار ، واطلع على المشاريع والخطط التقدمية التي مرت بها البلاد في الزمن القريب ، والتي أحدثت ثورة وانقلاباً في الأوضاع ، وفي مستوى البلاد ، ومكنتها من بسط نفوذها وسيطرتها الفكرية والسياسية .

رأى السيد أحمد خان فرنسا وإنجلترا وهما في أوج مدنيتهما ، وفي ريعان الصناعة الحديثة والعلم الجديد ، ورأى المجتمع الإنجليزي في عصر لم يتسرب إليه الوهن ، ولم يعتره الضعف الذي أصيب به بعد الحرب الأولى ، ورأى الحيوية تتدفق منه ، والطموح إلى غزو العالم وإخضاعه يملك زمامه ، وقد شغل بمشاهدة جانبه المشرق الوضاء عن مشاهدة جانبه الضعيف الأسود ، وهو الجانب الخلقى والروحي ، وجانب الاستعمار الغاشم ، والإجرام العالمي والآثرة القومية ، والقسوة على غير الإنجليز - التي رأى مظاهرها في الهند - فأعجب بهذه الحضارة والمجتمع الذي يمثلها إعجاباً ملك عليه النفس والفكر ، وملاً جميع جوانحه وجوانب تفكيره ، ورجع إلى البلاد في ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٠ د .

داعية متحمساً إلى تقليد الحضارة الغربية ، وإصلاح المجتمع الإسلامي الهندي على أساس تقليد المجتمع الأوربي ومبادئه وقيمه ، وتبنى هذه الدعوة بكل إخلاص وبكل حماسة ، ووهب لها مواهبه كلها ، وأصبحت نظراته مادية مجتة ، تخضع للقوى الطبيعية ، والسنن الكونية - كما يفهمها - خضوعاً زائداً ، ويخضع لها عقيدته ويؤول على أساسها القرآن تأويلاً يبلغ به حد التحريف والعبث بأصول الغربية واللغة والنحو ، والتواتر والإجماع ، فصار يفسر القرآن تفسيراً ^(١) يخرق فيه الإجماع ، وينقض به اللغة ، ويثير العجب والانكار في الأوساط الدينية والعلمية ، وقد أصاب الدكتور محمد البهي في نقد هذا الاتجاه إذ يقول في كتابه « الفكر الاسلامي الحديث » :

« فحركة السيد أحمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية ، كما يفتتن في عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى « العلم » (Science) وبالمركبات الحضارية التي قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعي أو بالطبيعة كما يقال يؤدي إلى خفة وزن القيم الروحية والمثالية وهي القيم التي تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التي يمثلها الإسلام أوضح تمثيل ، وقد يصير الافتتان بهذا العلم الطبيعي إلى إنكار كل قيمة أخرى مما لا يشاهد في الطبيعة ، ويدرك بالحس الإنساني ومن هنا ربط السيد جمال الدين الأفغاني بين إلحاد السيد أحمد خان

(١) ص ٨٠ « تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان » كتبه في اردو في ستة مجلدات ، وقد وصل فيه الى تفسير سورة النحل .

ومذهبه الدهري أو الطبيعي مع بقاء انتسابه إلى الإسلام ولغته بالإلحاد، رغم ما كان يكرره من القول بأنه يدافع عن الإسلام، وأنه ينبغي أن يوجد طريقاً للمسلم المعاصر يوفق فيه بين إسلامه وتقبله الحياة العصرية التي قامت على إثر نهضة العلم الطبيعي^(١).

وقد كان هذا الاتجاه المادي المتطرف والإسراف في تمجيد العقل والمبالغة في سلطانه وحدوده، وإخضاع إرادة الله وقدرته وكتابه لقوانين الطبيعة وقوانين هذا العالم والجرأة على التفسير وتأويل معاني القرآن، تأويلاً جريئاً قد فتح باباً للفتنة والتحريف والإلحاد في آيات الله والفوضى في الدين والعقيدة التي انتشرت في العصر الأخير^(٢).

جوانب الضعف في فكرة السيد أحمد خان :

اتسمت خطة السيد أحمد خان التعليمية بسمتين تقاصرت بسببهما عن أن تكون الثورة المنشودة التي تشبذ إليها حاجة العالم الإسلامي، وعملاً إيجابياً بناءً يلائم وضع هذا المجتمع القائم على أساس العقيدة والإيمان والرسالة المحمدية، ويملا الفراغ الهائل الواقع في العالم الإسلامي كله.

(١) ص ١٥ - ١٦

(٢) قد يفهم القارئ من كتاب « الفكر الاسلامي الحديث » للدكتور محمد البيه (ص ١٧) أن المذهب القادياني انبثق من الحركة التجديدية الدينية التي قام بها السيد أحمد خان وليس الأمر كذلك فإن السيد أحمد أنكر على مؤسس القاديانية ادعاء النبوة وعارضه، إن فسار الأمر أن الجور الذي حيأه السيد أحمد خان قد ساعد في انتفاخ هذا المذهب وقبول آراء صاحبه المتطرفة، وقد كان خليفة القادياني (وعقله الأول) نور الدين الحكيم من كبار المجيين بدراسة السيد أحمد خان في التفسير والتأويل.

أولاً أنه لم يفكر في إخضاع هذا النظام التعليمي الذي أخذ شكله النهائي في البيئة الغربية ، لطبيعة هذا المجتمع الإسلامي الهندي الذي كان يريد تطبيقه فيه ، وحاجاته وأوضاعه ، ولم يفكر في سبكه سبكاً جديداً إسلامياً هندياً ، ولم يفصله عن الحضارة الغربية وروحها المادية التي لا لزوم لها في بلد إسلامي شرقي ، بل إنه استورد هذا النظام من الغرب بتفاصيله وخصائصه وروحه وطبيعته ومع الحضارة التي تكتنفه ، وألح على كلا الجزئين - المنهاج التعليمي ، والحضارة الغربية - إلحاحاً شديداً بل شرط - في قانون الكلية - أن يكون العميد دائماً إنجليزياً وأستاذان - على الأقل - من الإنجليز ، ومدير الثانوية من الإنجليز ، ويزاد في هذا العدد كلما اتسعت له ميزانية الكلية ^(١) .

وهكذا كان ، فلم يزل أربعة أو خمسة من الأساتذة الكبار من الإنجليز يتولون التدريس في أقسام مختلفة ويشرفون عليها ، وكان لهم تأثير شديد عميق في نظام الكلية وأخلاق الطلبة ، حتى استطاعوا - بنفوذهم - أن يلعبوا دوراً مهماً في سياسة البلاد ، وقد كان عميد الكلية المستر ثيودربك - الداهية الإنجليزى - صاحب التوجيه الأول في السياسة الإسلامية الهندية وقيادة الرأي ، وقد كان لهذا التوجيه عواقب وخيمة في السياسة ، واتجاه المسلمين السياسي ^(٢) .

وهكذا اقترنت دعوة السيد أحمد خاں التعليمية بالدعوة إلى

(١) حياة جلويڊ (سيرة سيد أحمد خان) لعديمه الأستاذ الطاف حسين حالى ص ٢٨٢ .

(٢) الرأفصل د الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند ، في كتاب د المسلمون في الهند ، المؤلف .

الحضارة الغربية من غير لزوم وحاجة إلى ذلك فحات ، حولها الشبهات واكتنفها أجواء من السخط والاستياء ، وأثارت إنكاراً شديداً في الأوساط الدينية ، ورافقتها - منذ نشوئها - دعوة إلى مقاطعة هذه الحركة والابتعاد عنها ، خلقت مشكلات كثيرة في سبيلها ، وعارضها علماء الدين - الذين لم يكونوا يعارضون تدريس اللغة الانجليزية والعلوم المفيدة - لما اقترن بها ورافقها من أول يومها ، من الخضوع للحضارة الغربية وقيمها ، والتأثير في الأخلاق والعقائد ، وبسبب سيطرة الأساتذة ورجال الإدارة الإنجليز ونفوذهم في هذه المؤسسة الوليدة ، وفي عقول الشباب المسلمين - الذين ينتمون إلى أكرم الأسر الإسلامية وأذكاه - وفي أخلاقهم ، وقد نشأ - بفعل هذه المؤثرات وبتأثير الجو الغربي الذي يسود في هذا المعهد - جيل مثقف إسلامي الاسم غربي التفكير ، إنجليزي الطراز ، مضطرب العقيدة في بعض الأحيان ، يخلق مشكلة جديدة في البيوتات وفي المجتمع الإسلامي ، ولا ينسجم معه انسجاماً كلياً .

والسمة الثانية أنه تمسك في هذا النظام التعليمي بتعليم اللغة والآداب فقط ، ولم يعن بتعليم الفنون والعلوم التطبيقية العملية العناية التي تستحقها ، مع أنها هي ثمرة العلم الجديد اليانعة ، وسر قوة الأمم الغربية وسيادتها ، وهي التي يجب أن تستفاد من الغرب ويحرص على دراستها والبراعة فيها بل إنه - ساحه الله - عارض في بعض الأحيان تعليم الصنائع والعلوم معارضة شديدة ، وكتب في هذا الموضوع مقالات شديدة اللهجة ، مريرة النقد آخرها المقال الذي نشرته مجلة

«عليكرة كزت» (Aligarh Gazette) في عددها الصادر يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٩٨ م يقول فيه : « إن الهند نظراً إلى حالتها الراهنة ليست في حاجة إلى تعليم الصنائع ، إن الأهم المقدم هو الثقافة الفكرية من المستوى الأعلى التي لم تتحقق أو لم تكتمل بعد ، وقد تخوف السيد احمد خان بما كان يقرؤه لكبار الانجليز من الحث على دراسة العلوم الصناعية أن الانجليز يريدون وقف التعليم العالي أو تعليم الآداب الغربية ، فكان يحارب هذه الفكرة بكل قوته وبلاغته ، وقد ألقى محاضرة طويلة في حفلة مؤتمر التعليم الإسلامي الخامسة في هذا الموضوع ، وعارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الانجليزية والدراسات الأدبية ، وقد عرض هذا المشروع مراراً وبحث فيه في لجان جامعة إله آباد ، وكان السيد أحمد خان من كبار خصومه ومعارضيه ^(١) .

كانت نتيجة ذلك أن الجامعة الإسلامية اتجهت اتجاهها علمياً أدبياً محضاً ؛ وسيطرت عليه نزعة التقليد والتطور ، ونزعة التوسع في الآداب ، وخرجت عدداً لا يستهان به من الخطباء والأدباء والإداريين والقضاة والموظفين الكبار ، ولم تخرج - بطبيعة الحال - رجالاً مبرزين ومبتكرين في علوم الهندسة والميكانيكا ، والطبيعة والكيمياء والصناعات المفيدة ، والعلوم التي كان الشعب الإسلامي الهندي في فقر شديد فيها ، وكان ذلك من أسباب تخلفه واقتصاره على الوظائف الحكومية والمراكز الإدارية المحدودة دائماً .

مصول هذه الحركة وإنتاجها :

وعلى كلٍ ، فقد كان السيد احمد خان من أقوى الشخصيات التي عرفت الهند بل العالم الإسلامي في العهد الأخير، وكانت الحركة التي قام بها من أقوى الحركات وقد كتب لها من النجاح والتأثير ما لم يكتب لأي حركة وفكرة ، وكان نفوذ شخصية السيد احمد خان واسع النطاق وعميقاً في المجتمع الإسلامي الهندي ، كان له تأثير في الأدب والتفكير وأساليب البيان ، وقد أنشأ مدرسة أدبية لها كتاب مفكرون .

وقد آتت هذه الدعوة التعليمية - التي ترعها السيد أحمد خان بقوة وإخلاص - ثمراتها ، وملأت الفراغ الثقافي والاقتصادي الواقع في المجتمع الإسلامي الهندي ، بعد استقرار الحكم الإنجليزي في الهند ، وعالج - إلى مدى محدود - القلق واليأس المسيطرين على نفوسهم ، وتخرج في هذه الجامعة بعض خيرة الشباب وقادة الفكر ، والزعماء السياسيين وأدباء كبار ، وشخصيات قوية قادت حركة « الخلافة »^(١) وحركة التحرير في الهند ، وساهمت في قيام دولة باكستان وإدارتها بعد ، ولكنها - على ما لها من فضل في ثقافة المسلمين الجديدة وفي حالتهم الاقتصادية - لم تحقق الغرض المطلوب من الاستفادة بتجارب الغرب وتكييفها للمجتمع الإسلامي وظروفه ، ولم تملأ الفراغ الواقع الهائل ، فراغ الجيل الإسلامي الجديد ، الراسخ في عقيدته القوي في إيمانه ،

(١) هي حركة تأييد الحكومة الثمانية في قضاياها الإسلامية وممارسة الحلفاء وكانت من أقوى حركات الهند الإسلامية السياسية .

العارف لرسالته ودوره في قيادة المدنية ، الواسع في ثقافته ، المرن في تفكيره ، الآخذ من الثقافة الجديدة محاسنها ولباها ، المتجنب عن شرورها وقشورها ، الأصيل في إنتاجه ، الجليل المرتقب الذي كان يتطلع إليه العالم الاسلامي - ولا يزال - في لهف شديد وصبر نافذ ، الجليل الذي كان يستطيع بتوفيق الله تعالى أن ينقذ العالم الاسلامي من الحيرة التي كان يتورط فيها ، ومن الضعف الذي قد تسلط عليه ، وينجحه مركزاً رئيسياً في قيادة الأمم ، وتوجيه المدنية .

أ كبر الاله آبادي الشاعر الثائر :

وقد حارب هذه النزعة التطبيقية التقليدية - التي يقودها السيد أحمد خان - حرباً لا هوادة فيها معاصر مثقف ثقافة قديمة وجديدة ، يعتبر من أكبر شعراء عصره ، وهو السيد أكبر حسين ^(١) الإله آبادي ، المتقلب في شعره بـ « أكبر » واستخدم لنقدها والإنكار على هذا الجليل المثقف الجديد أسلوب الفكاهة الحلوة ، والأدب الخفيف الروح ، من

(١) هو السيد أكبر حسين بن فضل حسين ، ولد في سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م) في مديرية إله آباد ، وتلقى الثقافة الاسلامية ودرس اللغة الإنجليزية ، واجتاز في سنة ١٢٨٤هـ امتحاناً في الحقوق وتولى القضاء ، وتنقل في الوظائف القضائية ، إلى أن أحيل إلى العاشر سنة ١٣٢٠ - ١٩٠٣هـ ولقبته الحكومة الإنجليزية بلقب « خان بهادر » - مساوي بك في المجتمع المصري - ولقبه الشعب الهندي بلقب « لسان العصر » ، فلقب لقب الشعب لقب الدولة الرسمي .

وكان - رغم ثقافته الحديثة المبينة - ديناً محافظاً سليم العقيدة ، قال في الليلة التي توفي فيها ، « ما فاتني فرصة ، ولا غفلت عن حزبي في الليل ، ولا انصرفت عن تلاوة القرآن طويلاً صري » توفي رحمه الله سنة ١٣٤٠ هـ - ١٩٢١ م ، ومن آثاره ثلاثة دواوين شعرية ضخام تلقى الأوساط الأدبية والاسلامية بالقبول والاستحسان ، وشهد له كبار الادباء والشعراء - منهم العلامة محمد إقبال - بالاجادة وأنه إمام في الشعر الفصحي الاصلاحى في اردو .

أبلغ الأساليب الأدبية وأقواها ، وأجملها في هذا العصر ، وجعل ذلك موضوع شعره طول حياته ، ينتقد سياسة السيد احمد خان — الذي يعترف بإخلاصه — التعليمية ، وما كان يدعو إليه من تقليد الغرب وتطبيق مناهج حياته ، وينتقد الحياة السائدة في الكلية الإسلامية ، وما تتسم به من تقليد أعمى للغرب ، وتساهل في العقيدة ، ورقة في الدين ، وتبذير في الأقوال ، وتآلق في المظاهر ، ونفور عن الدين ورجاله ، ونهامة للحياة ، وتهالك على الوظائف الرسمية ، وتخل عن التراث الشرقي القديم ، وعن تقاليده ومبادئه ، وثورة عليها ، واندماج في المجتمع الغربي الغريب ، وسيطرة التفكير المادي الاقتصادي المحض ، ويصور — بشاعريته الساحرة وريشته البارعة — الجيل الجديد تصويراً دقيقاً ، واضح القسّمات والملامح .

وقد انتشر هذا الشعر في الأوساط الهندية على اختلاف طبقاتها واتجاهاتها انتشاراً عجيباً : وتلقفه الأدباء والكتاب والشباب ورددوه ترديداً لم يعرف لشعر آخر منذ زمن طويل ، وعلى نجاح هذا الشعر وتأثيره في تحريك عاطفة الكراهة والازدراء والتخفيف من غلواء هذه النزعة التقليدية وقيمة هذه الحضارة ، لم يستطع بطبيعة الحال أن يحدث ثورة في المجتمع ويقف تيار التقليد الجارف ويؤسس مجتمعاً جديداً ، لأن الأدب المؤسس على التهمك والتنادر تأثيره وأجله محدودان ،

ولكنه لم يخل من الفائدة ، وكان من عوامل الاتجاهات الأدبية الاجتماعية الجديدة في الهند ^(١) .

الحركة الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية :

كان هذا الاتجاه التقليدي في الهند - الذي قاده السيد أحمد خان في المسلمين وغذته الحكومة الإنجليزية ونظام المعارف - في الطبقة المثقفة ، حراً في سيره لايعوقه شيء ، ولا يخفف من حدته إلا هدوء الطبيعة الهندية واعتدالها في قبول كل جديد ، وتمسكها بالقديم وبالبساطة ، إلا أنه كان جديراً كل الجدارة بأن يكون الاتجاه العام السائد على البلاد على مر الأيام ، ويجعل من الهند الشرقية مجتمعاً غريباً في تفكيره وأساليب حياته ، وفي حضارته واجتماعه ، ولكن حادثاً حال دون ذلك ، وغير اتجاه التاريخ .

حدث ما يضعف سلطان الحكومة الانجليزية - التي تترغم هذه الحضارة في الهند - في النفوس والعقول ، ويثير الشك في قيمة هذه الحضارة وجدارتها للقيادة واستعدادها للإنصاف وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وما يثير السخط الشديد والكراهة العميقة لزعماء هذه الحضارة ومثليها في الشرق ، وما يحرك الشعور القوي بالشخصية وبالكرامة في أهل البلاد ، ويحمل على مقاطعة هذه الحكومة وكل

(١) للمؤلف مقالة مسهبة نشرت في مجلة « الفتح » المصرية . مجلد العام التاسع ١٣٥٤ هـ عدد ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ومجلة « الضياء » الصادرة عن ندوة العلماء - لكهنؤ - (الهند) .

ما يعزى إليها من حضارة ومظاهر وشعائر وكل ما يموت حركتها التجارية والاقتصادية ويغذيها ، ذلك نشوب الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ م) ووقوف الحكومة البريطانية - مع حلفائها - الموقف المعادي من الدولة العثمانية التي ينظر إليها المسلمون في الهند - كغيرهم في البلاد الإسلامية - كرمز للمجد الإسلامي ، وموئل للخلافة ، وحامية للإسلام ، ولما تمت الهزيمة للأتراك في ١٩١٨ م واستولى الإنجليز على الآستانة ، وتوزع الحلفاء ممتلكات الدولة العثمانية ، انفجر بركات الثورة في الهند ، وتعاون المسلمون والهندوس في حركة الخلافة بشكل عام ، وكان غاندي - الزعيم الهندي الشهير - في جبهة القيادة مع زملائه محمد علي وشوكت علي وأبي الكلام آزاد ، واقتراح سنة ١٩٢٠ م مقاطعة الحكومة والإضراب عن التعاون معها في إدارة الحكومة وجميع مجالات الحياة ومقاطعة البضائع الأجنبية ، فكان أمضى سلاح سلمي استخدمته حركة وطنية ، وانطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد ، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والتخلي عن مظاهر الحضارة الأجنبية المستعمرة ، والظهور في المظهر الوطني الشعبي ، والتمسك بالبساطة والتقشف في الحياة ، والاقتصار على المنتجات الوطنية ، وكانت أعظم وأعنف حركة شاهدها البلاد ، وكانت البلاد كلها - من أقصى حدودها إلى أقصى حدودها - شعلة نار ، وقد هزت سيطرة الحضارة الغربية في أعماق النفوس ، واقتلعت جذورها وعروقتها من قلوب لا يحصيها كثرة إلا الله ، وأشعل الناس

النيران في ملابسهم الغربية ، والقماش الوارد من الخارج - من إنجلترا طبعاً - في جموع حاشدة ، وحفلات كبيرة ، ورفض كبار الأغنياء والمتقنين ، ورجال الطبقة الارستقراطية عيشتهم الغربية الباذخة ، وتقشفوا وآثروا الحياة البسيطة الوطنية ، وحدث انقلاب عظيم في حياة الكثيرين من كبار المحامين والتجار والمؤسرين ، فقد ملأوا السجون ، وتحملوا المشاق ، وبدا منهم من الإيثار ، والزهد والقناعة ، وقوة العاطفة الدينية والوطنية ، والمواساة للفقراء والمحافظة على الشعائر الدينية ، ما لم يكن يتوقع من أمثالهم قبل ظهور هذه الحركة .

وتلت هذه الحركة التي كان طابعها دينياً ، الحركة الوطنية الهندية العامة ، التي ترمي إلى تحرير البلاد ، وطرده الاستعمار ، وإقامة الحكم الذاتي ، وكانت - بخلاف كثير من الحركات السياسية في الشرق - حركة سياسية اجتماعية ذات فلسفة فكرية واقتصادية ، فلعبت دورها في إضعاف سلطان هذه الحضارة التي جاءت مع المستعمر في تدعيم الشعور الوطني ، وإيثار كل ما هو أصيل وعريق في طبيعته الهندية وبيئته الوطنية على المستورد الأجنبي ، ولا شك أن هذه الحركات السياسية استطاعت أن تفعل - من محاربة مركب النقص ، ومن إثارة الاعتداد بالكرامة والتخلص من الاستعمار الفكري والثقافي - ما لا تستطيعه الفلسفات العلمية الكبيرة ، وذلك شأن الحركات العملية الشعبية ، التي تتغلغل في أجزاء المجتمع وتسيطر على تفكيره دائماً في كل بلد .

محمد إقبال ونفده الحضارة الغربية :

وقد بدأ الشباب الإسلامي الذكي في فجر القرن العشرين يتوسعون في الدراسات الغربية ، ويتعمقون فيها في الجامعات الهندية الراقية ، وقد زالت عنهم دهشة الفتح وهيبة الإنجليز ، وبدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوربا ، ويقم عدد كبير منهم في عواصمها إقامة طويلة ، ينهلون من مناهلها الثقافية ، ويدرسون العلوم العصرية بدقة وإتقان ، تحت إشراف أساتذة كبار أحرار ، ويعرفون الحضارة الغربية عن كذب لا عن كتب ، بل يخوضون فيها ، ويسبرون غورها ، ويعجمون عودها كأي شباب غربي مثقف من أبناء البلد ، ويدرسون الفلسفات والنظم والمدارس الفكرية ، ويطلعون على دوائها وأسرارها ، وعلى الطبيعة الغربية المادية ، والنخوة القومية الأوربية ، والآثار الشعبية في نفوس هذه الشعوب ، ويرون جوانب الضعف وبؤاد الإفلاس وطلائع الانهيار في المجتمع الغربي ، ويلاحظون العناصر الصالحة البناءة ، المسعدة للبشرية ، المفقودة في تركيب هذه الحضارة ، وفي طبيعة زعمائها وحملتها لوائها ، وعناصر الفساد الهدامة المدمرة للمدنية ، المضلة للبشرية ، الموجودة في عجينها ، المركبة مع طينها من اليوم الأول ، فيثير كل ذلك في نفوسهم وعقولهم معاني وأحاسيس لم تكن ممكنة إلا مع الإقامة الطويلة في أوربا ، والتعمق في فلسفاتها وأفكارها والدراسة المقارنة ، وإلا مع النظر العميق الجريء ، والتحرر من ربة التقليد ، وإلا مع الإيمان الذي لم يتجردوا عنه ، بل بقي جرة في رماذ مستعدة

للالتهاب في كل وقت، فيرجع كثير منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية
ثائراً عليها ، ناقداً نقداً جريئاً عميقاً متزنأ ، لا تطرف فيه ولا انكار
للواقع ولا مكابرة في الحقائق .

لقد كان في مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال^(١) الذي يعتبر
بحق أنبع عقل أنتجته الثقافة الجديدة التي ظلت تشتغل وتنتج في العالم
الإسلامي من قرن كامل ، وأعمق مفكر أوجده الشرق في عصرنا
الحاضر ، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه — على كثرة من أم الغرب
منهم ودرس هناك — أحداً أنظر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق
وانتقدها هذا الانتقاد الجريء .

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية في هذه الحضارة

(١) ولد محمد إقبال بن نور محمد في « سيالكوت » مدينة في مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧ م
وانضم إلى كلية الحكومة في « لاهور » حيث حضر الامتحانات الأخير في الفلسفة وأخذ درجة
ماجستير (M. A.) في الفلسفة بامتياز ، وعين أستاذاً للفلسفة والانجليزية في نفس الكلية ،
وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ ، حيث التحق بجامعة كامبردج وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم
الاقتصاد ، وسافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة ميونيخ الدكتوراة في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ،
وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن
وتخصص في المادتين ، وألقى عدة محاضرات في مدراس ، وأخرى في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى
بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً ، وترجم أكثر كتبه إلى الانكليزية
والفرنسية والالمانية واليطالية والروسية ، وانتخب رئيساً للرابطة الاسلامية ١٩٣٠ م وانتخب
عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وعرض في خطبته فكرة باكستان لأول مرة ، ومثل
« مؤتمر المسلمين » في مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١ م - ١٩٣٢ م ، وأقامت له جامعة
أرسطو وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما حفلات
تكريم ، توفي في ٢١ أبريل سنة ١٩٣٨ م وشيعت جنازته في حشد كبير فلما شهد مثله ،
ورثاه وأبته كبار الزعماء وقادة الفكر ، ورؤساء الحكومات ، له سبعة دواوين في الفارسية ،
وثلاثة في أردو ، ومحاضرات في الانجليزية .

وتركيها ، والفساد الذي عجنت به طينتها لاتجاهها المادي وثورة أصحابها على الديانات ، والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها ، وعلل فساد القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة ، « وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطاهر ، والفكر السامي والذوق السليم ^(١) » « وتسلب عليها - رغم المدنية الباذخة ، والحكومات الواسعة ، والتجارة الراجحة - القلق الدائم ، لقد أظلم الجو في عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها - على كثرة أنوارها - غير متهيئة لفتح جديد في الفكر وإشراق من عالم الغيب ^(٢) » إنه نوه بأساس الحضارة اللادينية وبأنها عجنت مع الثورة على الدين ، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق ، وإنها عاكفة على عبادة آلهة المادة وتؤسس لها معبداً جديداً يقول في ديوانه: «ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق» :

« ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللات والعزى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشاً في سراها ، إنها تقضي على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب ، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاً ، وإنها تدع الإنسان لاروح فيه ولا قيمة له ^(٣) » .

(١) ضرب كلم من ٦٩ .

(٢) ضرب كلم من ١٤١ .

(٣) مثنوي بس جه بايد كرد (ماذا ينبغي الشرق أن يعمل) ص ٤١

يقول : إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشري وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء وبالحب البريء والتزيه والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة ، يقول في الديوان الذي مر ذكره :

« إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها وتنفق سلعتها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكىاء ، الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم ، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام مالم يعد هذا النظام رأساً على عقب (١) »

إنها حضارة شابة - مجذاة سنّها ، والحيوية الكامنة فيها - ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار » ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود (٢) . « إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهيار ، وجدرانها من زجاج لا تحتمل صدمة (٣) » ، « إن الفكر المارد الذي أراح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدم (٤) » . « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، وإن العالم القديم الذي حوله الغربيون مكاناً للقفار (يقامر فيه بأمن العالم وكرامة

(١) أيضاً ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) ضرب كلم من ١٤١ ، يشير إلى نفوذ الزائد وثقة أوروبا النصرانية به .

(٣) بال جبريل

(٤) أيضاً ١٧٦

الأمم) يلفظ نفسه ^(١) . « إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتبسة وهاجة ، ولكن لم يكن في ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقي الإلهام ، ويتشرف بالكلام ، ولا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام ، ويحول النار إلى برد وسلام ^(٢) . » ان عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، ان عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون - حتى في ابتكارهم وثورتهم - عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة ^(٣) .

« لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوروبا ، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة ، ان أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء ، وحسن المظهر والنظافة ، ان تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين ، ان هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوروبا الا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة ، ان قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، ان البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدينة الأفرنجية ، ان الأمة التي لانصيب لها في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، ان المدينة التي تتحكم فيها الآلات ،

(١) أيضاً ١٧٦

(٢) يوم مشرق ص ٢٤٨ ، وفيه أن أوروبا لم تكن أرض النبوة والأنبياء من الزمن القديم ولم يكن فيها إلهراق روحاني إنما ازدهرت فيها اللاديات .

(٣) أيضاً .

وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ، ويقتل فيها الحنان والوفاء ،
والمعاني الإنسانية الكريمة ^(١) .

وقد كان انتقاده واستعراضه للحضارة الغربية وأسسها ومناهج
تفكيرها في محاضراته العلمية التي ألقاها في « مدراس » ونشرت
بعنوان « تجديد الفكر الديني في الإسلام » ^(٢) « أعمق وأكثر تركيزاً بطبيعة
الحال ، لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر والأدب ، فقال وهو
يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية في الغرب والإنسان المعاصر الذي
يمثلها ويتزعمها ، وعن الأزمة والمشكلات التي يعانها :

« الرجل العصري بماله من فلسفات نقدية ، وتخصص علمي يجد
نفسه في ورطة ، فذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة
لم يسبق إليه ، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو ^(٣) » .

« الإنسان العصري وقد أعشاه نشاطه العقلي ، كف عن توجيه
روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أي إلى حياة روحية تتغلغل في
أعماق النفس ، وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، وهو
في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره ، وهو
يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبّه للمال حباً طاعياً ،
يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب
الحياة ، وقد استغرق في « الواقع » أي في مصدر الحس الظاهر للعيان ،

(١) بال جبريل .

(٢) Reconstruction Of Religious Thought in Islam .

(٣) المصدر المذكور ترجمة عباس محمود ٢١٤٤ .

فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية ، هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه ، والذي أدركه هكسلي (Huxley) وأعلن سخطه عليه ^(١) .

« والاشتراكية الملحدة الحديثة – ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة – لها نظرة أوسع أفقاً لكنها قد استمدت أساسها الفلسفي من المتطرفين من أصحاب مذهب هيغل (Hegel) وقد أعلنت العصبيات على ذات المصدر الذي كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، وهي إذن ليست بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية ^(٢) » .

ومحمد إقبال يصف هذا المجتمع – الأوربي – بمجتمع يحركه تنافس وحشي وهذه الحضارة بحضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية ^(٣) .

وينظر محمد إقبال – ككل مطلع خبير – إلى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المادية وأسرتين للحضارة الغربية ، إحداها شرقية ، والأخرى غربية ، تلتقيان على النسب المادي ، والتفكير المادي ، والنظر المحدود إلى الإنسان ، ويقول بلسان جمال الدين الأفغاني – في رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها – : « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة »

(١) المصدر السابق ص ٢١٥ – ٢١٦ .

(٢) أيضاً ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٣) أيضاً ص ٢١٧ .

إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون ، إن الأخوة الإنسانية لا تقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس ^(١) .

« إن الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسامة ، والجهل بالله والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج » وعند الملوكية « خراج » والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج ، إن الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كليهما غارقتين في المادة ، جسمهما قوي ناضر ، وقلبهما مظلم فاجر ^(٢) » .

الحضارة الغربية والأفطار الإسلامية :

ويعتقد محمد إقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البلاد الإسلامية ، وإعادة الحياة إليها ، يقول :

« إن الحضارة التي قد أشرفت على الموت لا تستطيع أن تحيي غيرها ^(٣) » . وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها ، وكافأت خيرها بشر ، فقد منحها الشام نبياً ^(٤) رسالته العفة والمؤاسة

(١) جاوهدنامه، مأخوذ من « روائع إقبال » للمؤلف ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) أيضاً .

(٣) ضرب كلام ص ٦٨ .

(٤) بشر إلى سيدنا عيسى عليه السلام .

والرحمة، ومقابلة الشر بالخير، والظلم بالعفو، وقد منحته أوروبا - بدورها - ومقابل كل ذلك - الخمر والقمار، والفجور وهجوم المومسات^(١) .
نقده لدعاة التجديد في الشرق

إنه يسيء الظن بدعاة التجديد - وبالأصح التغريب - في الأقطار الإسلامية، ويخشى أن تكون الدعوة إلى التجديد حيلة ومستاراً لتقليد الأفرنج^(٢)، يقول:

« إنني يأس من زعماء التجديد في الشرق، فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة، وبضاعة مزجاة في العلم والفكر » .

« إن البحث عن « برق جديد » في هذا السحاب عبث وإضاعة وقت، فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم، فضلاً عن البرق الجديد^(٣) » .

إنه يعارض التقليد الأعمى في أمة من الأمم، ولا سيما الأمة التي خلقت لقيادة الأمم وإحداث الثورة في العالم، ويقول:

« إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائماً هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمان، لا تعطل شخصيتك - أيها المسلم - بالتقليد الأعمى، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد، إن التجديد (بمعنى التغريب) لا يليق إلا بأمة لا تفكر إلا في الدعة والترف، إنني

(١) ضرب كلمين س ١٥٠ .

(٢) أيضاً س ١٧٠ .

(٣) ضرب كلمين س ٦٩، يشير إلى أن هؤلاء الصالحين ثقافتهم القديمة وثقافتهم الجديدة ضعيفتان محدودتان، ليس لهم في أحدهما كعب عال ولا باع طويل .

أخاف أن الدعوة إلى التجديد إنما هي حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب^(١) .

إنه يعاتب الأمم الشرقية الإسلامية التي كان دورها دور التوجيه والقيادة، وأصبحت تمثل دور التلمذة الخاشعة، والتقليد الذليل، يقول - وكأنه يشير إلى الشعب التركي الإسلامي ومن كان على شاكلته - :
 « إن أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يقودوا عصرهم أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه^(٢) » .

وفي « جاويد نامه » يحكي محمد إقبال انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التي قام بها أتاتورك في تركيا ، ويذكر سطحيته وتفاهتها ، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار ومن كل أصالة في التصميم والتخطيط وأنه ليس إلا مقلداً أعمى لأوربا ، يقول :

« إن كمال الذي تغنى بالتجديد في حياة تركيا ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوربا أصنام جديدة، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة إنما هي كلها أغاني مرددة معادة تتغنى بها أوربا من زمان، إن الجديد عنده هو القديم الأوربي الذي أكل عليه الدهر وشرب، ليس في صدره نفس جديد وليس في ضميره عالم حديث فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوربي المعاصر ، انه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته^(٣) » .

(١) ضرب كالم ١٧٠ .

(٢) بال جبريل .

(٣) جاويد نامه ص ٧٢ .

إيمانه بفضل الحضارة الإسلامية وحيويتها :

انه شديد الإيمان بما تضمه الحضارة الإسلامية والشريعة الإسلامية من حيوية خالدة وقوة دافقة ، وامكانيات واسعة لتكوين عالم جديد ، وتأسيس مجتمع جديد ، يقول في خطبته التي ألقاها رئيساً لمؤتمر الأحزاب الإسلامية في دهلي سنة ١٩٣٣ م مخاطباً للمسلمين :

« إن الدين الذي تحملون رايته يقرر قيمة الفرد ، ويربيه تربية تجعله يبذل كل ما عنده في سبيل الله وفي صالح عباده ، إن مضمرات هذا الدين القيم وكوامنه لم تنته بعد ، إن في استطاعته أن يوجد عالماً جديداً يحيى فيه الفقراء أغنياء ، لا يقوم فيه المجتمع البشري على مساواة البطون ، بل يقوم على مساواة الأرواح » .

المعمل الإسلامي الجديد :

ولذلك كان يعتقد - بكل إخلاص وحاسة - أنه لا بد من وجود رقعة حرة تقوم فيها عملية الحياة الإسلامية ، بجميع نواحيها وشعبها ، وتتجلى فيها عبقرية الشريعة الإسلامية وعدل النظام الإسلامي ، وتستطيع فيها الطريقة الإسلامية في الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً ، ولما كانت الهند - كما قال في خطبة رئاسته للعصبة الإسلامية سنة ١٩٣٠ م - قطراً تسكن فيه جالية تكون أكبر مجموعة إسلامية في بلد واحد ، كانت أحق بتقديم هذه التجربة وبتكوين هذا المركز الإسلامي وبتعبير أدق المعمل الذي يثبت فيه الإسلام صلاحيته لتكوين المجتمع الصالح ، وتنظيم الحياة الاجتماعية ، وحل المشكلات الاقتصادية ، وتوجيه المدنية توجيهاً صالحاً ، والتطبيق بين العقيدة

والعمل، والروح والمادة، والفرد والجماعة تطبيقاً يثير الإعجاب والإعجاب،
ويحمل قادة الأقطار الإسلامية على التقليد ويحمل المفكرين في العالم على
التفكير في أسلوب جديد .

كان هذا النظر البعيد، وهذا الطموح الذي لم يعرف نظيره في العالم
الإسلامي ، أساس مملكة باكستان ، وقد تحقق هذا الحلم البعيد في سنة
١٩٤٧ م وقامت دولة باكستان ، وقد اعترف الزعيم محمد علي جناح بهذا
الأساس الفكري الذي قرره محمد إقبال وتغنّى به ، فقال في أول خطبة
خطبها بعد قيام باكستان :

« لقد أصبحت باكستان التي كافحنا في سبيلها عشر سنين كواحد
حقيقة ملموسة ، ولكن يجب أن لا ننسى أن قيام مملكتنا الحرة ليست
غاية ، إنما هي وسيلة ، إن الغاية والهدف النهائي قيام مملكة نعيش فيها
أحراراً ، ونقدم بها وفق طبيعتنا الخاصة وثقافتنا ، وتنفيذ فيها
مبادئ العدالة الاجتماعية في الإسلام بحرية^(١) » .

وقد صرح بمثل ذلك السيد لياقت علي خان رئيس وزراء باكستان
سابقاً في ١٤ يناير ١٩٤٨ م في اجتماع في بيشاور فقال :

« إن باكستان معمل لنا وسنبرهن به أمام الدنيا على صلاحية المبادئ
الإسلامية التي جاءت قبل ثلاثة عشر قرناً وقيمتها » .

وقد جاء في حديث آخر له عام ١٩٥٠ م :

« إننا طالبنا بباكستان ليعيش فيها المسلمون وفق تعاليم الإسلام ،

إننا أردنا معملاً نقيم فيه دولة مؤسسة على مبادئ إسلامية لم يتمخض العالم بأفضل منها^(١) .

ولكن هذه العملية - التي لا تساويها عملية في الضخامة والدقة والخطورة وبعد النتائج - لا تقوم ولا تتحقق إلا على أيدي القادة الذين يؤمنون بخلود الشريعة الإسلامية وفضل الحضارة الإسلامية إيماناً لا يشوبه شك ، ويخلصون لها إخلاصاً لا يشوبه نفاق ، ويتجردون من ربة الحضارة الغربية والإيمان بقيمتها وأسسها ، ومن رقب الثقافة الأجنبية تحرراً كاملاً ويجمعون - على الأقل - بين الإيمان الراسخ والشجاعة الخلقية والمقدرة على استخدام الوسائل والطاقات التي أحدثتها العلوم الحديثة ، وتكييفها للمجتمع الاسلامي الحر .

العملية في الامتحان :

ولكن هذه العملية - التي قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخية وسياسية وفاجأت العالم المعاصر - لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل واعداد هذه القيادة ، وقد عجز نظام المعارف الغربي السائد في الاقطار الشرقية ، وعجزت الجامعات الغربية التي تلقى فيها هؤلاء السادة ثقافتهم عن أن تنتج أحسن منهم في عامة الأحوال ، وعن أن تنتج غير هذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الاسلوب من الحياة ، والشجرة لا تلام على ثمرتها الطبيعية ، ولا يرجى تغيير هذا الوضع ، ووجود القيادة التي تحقق هذه العملية حتى يغير نظام المعارف ونظام التثقيف والتربية في هذه

البلاذ؁ وئمنح الاسلام والمآتمع الاسلامي حق تخريج واختيار من يتولى قيادته ويقرر مصيره مطابقاً لعقيده وفطرته وآماله وحاجاته؁ وهو حق طبيعي لكل شعب ولكل مجآتمع؁ لا يجوز جحوده في أي عصر وفي أي مكان .

ومن المؤسف أنه - في هذه المدة غير اليسيرة - منذ أنشئت باكستان؁ لم يقم زعماءها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف - التي هي العمود الفقري لتوجيه دولة أو شعب - وإنشائها إنشاءً جديداً يتفق مع روح الاسلام وأهدافه وصياغة المجتمع صياغة إسلامية ووضع دستور إسلامي وسد منابع الفساد والتفسخ الخلقي والفوضى الفكرية؁ ولم تكن هناك محاولة مخلصه جديه تدل على أن باكستان معمل إسلامي جديد تثبت فيه أهمية الحياة الإسلامية وصلاحيه القانون الإسلامي وتفوق الحضارة الإسلامية وتقدم فيه أسوة عملية للأقطار الإسلامية الناهضة بل - بالعكس من ذلك - قد برهنت القوانين العائليه (Muslim Family Laws) في عام ١٩٦١ م على أن واضعي الدستور في باكستان وولاة أمرها ليسوا مأخوذين بالأفكار الغربية وقيمها فحسب بل يعتبرونها أساساً محكماً للتشريع؁ ولا يثقون بخلود الشريعة واكتألمها .

وأخيراً وافق مجلس الأمة في نوفمبر ١٩٦٣م في جلسة بداكا (باكستان الشرقية) على هذه القوانين الجديدة ورفض جميع القرارات التي كانت تطالب بتعديل هذا القانون بناء على أنه يعارض نصوص الكتاب والسنة وينافي الاجماع والتواتر؁ واطلع الجمهور على أنباء هذه الاجراآت في

صحف باكستان والهند ، فكان فيها ما يلي :

« رفض مجلس الأمة هنا بالأمس بالأكثرية الساحقة القرار الذي كان يطالب به التعديل في « القانون العائلي » وقد قدم هذا القرار أمام المجلس للتعديل في بعض نقاطه ، والمعلوم أن هذا القانون الذي جرى تطبيقه منذ الحكم العسكري سلب الرجل حق تعدد الزوجات وقد زعم أصحاب هذا القرار أن هذا القانون ينافي الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم الذي أباح للرجل تعدد الزوجات بصراحة ، ان الطبقة المثقفة في باكستان تقول « إن هذا التعدد أبيض لحاجات طارئة عابرة ، وكان الغرض منه اصلاح المجتمع تدريجياً » .

فإذا كان موقف باكستان إزاء الأحكام الشرعية المؤثرة بالنص والاجماع ما سبق ذكره فلا نستطيع أن نعقد بها أملاً كبيراً في مجال الحضارة والاجتماع والتعليم والتربية والسياسة والدستور ، الحقيقة أن معظم الأقطار الإسلامية الوليدة تتبع تركيا وتحذو حذوها أو تتأهب للسير وراءها وتقليدها ولا تجد أكثر زعمائها وحكامها إلا وقد تسرب الى قلوبهم حب كمال أتاتورك قليلاً أو كثيراً ، وذلك بحكم ثقافتهم الغربية وبيئتهم الغربية .

مهما كان فإن انصراف باكستان عن أهدافها الأساسية الأولية وتقليد البلاد العلمانية (Secular) والعصرية (Modernist) الأخرى ، ستكون مأساة ضخمة في العصر الحديث وغدراً بدمية الملايين من المسلمين الذين تحملوا في سبيلها من المصائب ما يشيب لها الولدان ، وقدموا

لها ثمناً من الدماء والأرواح والأعراض باهظاً، ثم ان هذا النكرو والانحراف يخدمان العاطفة الدينية التي لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، والتي دفعت أخيراً الى إنشاء دولة باكستان ، ويزهد أكثرهم في إعادة هذه التجربة والمغامرة في سبيلها ، ولا يسمح التاريخ الذي سجل هذه التجربة المحفقة والذي لا يحابي أحداً بتكرير هذه التجربة وعقد الآمال الجسيمة بها، وقد نبه الى ذلك الاستاذ سمث (Wilfred Cantweu Smith) في اسلوب جميل ، انه يقول في كتابه (Islam in Modern history) .

» ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تكوين المجتمع الاسلامي صعبة وعسيرة أكثر مما قدروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا في هذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن ، لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة الى حد لا يمكن به التسلل منها والاعراض عنها ، سيكون تاريخهم الآن « تاريخ الاسلام » لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة أنهم لا يستطيعون - راضين أو كارهين - أن يصرفوا النظر عن فكرة « الحكم الاسلامي » أو يتركوها لمدة طويلة في المستودعات ، ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعني التعديل في الاسلوب والمنهج ، بل انه يعني الضربة القاضية على الدين والوطن ، ويستنتج العالم منه شيئاً واحداً وهو أن نظرية الدولة الاسلامية نظرية فارغة وات شعارها وهتافها تضليل وخداع لا غير ، وهي لا تستطيع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة ، ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا في تطبيقها على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفي هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين

موضع شك ومحل نقاش وتقد في نظر العالم»^(١) .

الجماعة الإسلامية في باكستان :

كان من الممكن التفادي من هذا الوضع المؤلم ، وكان من الممكن أن تكسب الفكرة الإسلامية المعركة في باكستان وأن يكون لها انتصار أ دبر على خصومها ومعارضيه وأن تكتسب أكبر عدد من الأنصار والأصدقاء من الطبقة المثقفة والحاكمة، وأن تقصر الفجوة -على الأقل- بين دعاة الفكرة الإسلامية وبين أصحاب الفكرة الغربية حتى يتعاونوا على بناء المجتمع الإسلامي الجديد ، ونجاح التجربة العظيمة التي قامت لأجلها باكستان ، كل ذلك كان ممكناً لو كتب النجاح والتوفيق لدعاة الفكرة الإسلامية وزعمائها وحازوا ثقة جميع الطبقات في البلاد وتقديرها وملاؤوا الفراغ الهائل الموجود في عقول الطبقة المثقفة ونفوسها وقلوبها، ووقفوا للجمع بين الشخصية القوية الحبيبة ، والعلم الفائق ، والفكر النير ، والربانية الصافية المشرقة ، والعزوف عن المطامح والمناصب ، والانتقطاع للدعوة والتوجيه وبذل النصح للجميع، الصفات التي تكونت بها العقيدة الدينية في الماضي فأنتجت أكبر إنتاج وغيرت مجرى التاريخ في بعض الأحيان^(٢) .

كانت الجماعة الإسلامية التي نادى بالحكم الإسلامي في باكستان وتبنت

(١) Islam in Modern History P.200

(٢) اقرأ على سبيل المثال المنهج الذي آثره الامام الشيخ أحمد السرهندي في القرن الحادي عشر الهجري لتحويل الحكم التاثير على الاسلام إلى حكومة اسلامية في الهند ، راجع رسالة المؤلف « الدعوة الاسلامية في الهند وتطوراتها » .

قضيته جديرة بأن تحقق هذه الغاية المطلوبة وتملا الفراغ ، وقد توفرت في مؤسسها الأستاذ أبي الأعلى المودودي صفات عديدة ترشحه للزعامة الفكرية في شبه قارة الهند، منها: صفاء الفكر والاطلاع على مناهج الفكر الحديثة والثقة بفضل التعاليم الإسلامية وجدارتها للبقاء والانتشار ، والاعتداد بالنفس ومواجهة الحضارة الغربية ونظمها بشجاعة ، والقلم البليغ السيل والاسلوب القوي الدافق ، وقد كان لبحوثه العلمية الاولى التي كتبها في الهند^(١) التي كان يتكلم فيها عن مستوى عال وقوة وثقة، ولتقالاته ورسائله دوي عظيم في الأوساط الإسلامية التي كانت تعاني قلقاً فكرياً وكانت في دور انتقال، وجلبت اليه عدداً وجيهاً من عشاق الفكرة الإسلامية وهواة المجد الاسلامي ، تكون بهم جهاز الجماعة الاسلامية الأول وانتقلت القيادة بطبيعة الحال إلى باكستان مجال العمل الاسلامي الجديد الناهض، وخاضت في السياسة واكتوت بنارها وأباحت لنفسها استخدام الأساليب والمناهج السياسية والجمهورية للوصول إلى الحكم ، التي شددت النكير عليها وكانت تعتبرها الشعارات الجاهلية والحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى الطاغوت وسمت ذلك « الحكمة العملية » التي تقبل التغيير والمرونة ، وهنالك دب الخلاف في صفوف الجماعة وانشق عنها بعض كبار المسؤولين والذين كانوا في طليعة الدعوة وفي مركز التوجيه، ناقلين على القيادة انها سياسية متقلبة أكثر منها دينية راسخة ، وأنها تتناول مبادئ الإسلام وتعاليمه بتفسير جديد خاضع

(١) وذلك قبل أن ينضم شبه القارة ويتكون باكستان ، وكان يصدر من حيدر آباد مجلة « ترجمان القرآن » التي كانت تعتبر من أرقى المجلات الاسلامية وأنها .

للسياسة والمصالح ، وتطور موقفها ومنهج عملها باسم « الحكمة العملية » ، وتناولوا شخصية القائد بنقد مر ، وظلت الجماعة تواجه ثورة بعد كل فترة وينشق عنها خيرة رجالها وأنشط أعضائها ، تبين بذلك انه لاثقة بالانصار والمتحمسين يخضعون لقلم بليغ واسلوب ساحر ويلتفون حول شخصية إعجاباً بكتاباتهما واقتناناً بأفكارها وبحوثها ، وبعد الخبرة العملية ، والدراسة الشخصية يتحول المادح المطري والمحب المغالي ناقداً لاذعاً وناقماً زارياً .

ولم تزل الجماعة تحتك بالسياسة وتخوض في معركة الانتخابات حتى اصبحت حزباً سياسياً منافساً للحكومة يوزن في ميزان السياسة والاحزاب ، ويخضع للاحداث والتطورات ، حتى انضم أخيراً الى الجبهة الموحدة التي رشحت امرأة للرئاسة واستدلت بالنصوص الدينية واحتدمت المعركة واشتد حوله الجدل وكثر فيها القيل والقال ، وغلب الطابع السياسي على الطابع الديني غلبة أفقدت كثيراً من الثقة التي كانت لاتزال تتمتع بها والاحترام الذي كان لايزال لها في بعض الاوساط ، وانشق عدد آخر من الاعضاء العاملين والانصار المتحمسين بناء على هذا الموقف الذي وقفته الجماعة في معركة الانتخابات .

وقد شغلت الجماعة من مدة طويلة بفعل هذا الكفاح السياسي والعمل التنظيمي عن الانتاج العلمي الجديد واصدار الكتب القيمة في القضايا العلمية الجديدة والموضوعات الاسلامية على شدة الحاجة الى ذلك ، فلم تمد المكتبة الاسلامية الحديثة بكتاب جديد يحتل المكانة الاولى في المكتبة الإسلامية العلمية المعاصرة وبقيت تعيش على مصادر

من قلم قائدها في الزمن القديم^(١) وعلى نقله إلى اللغات وإعادة طباعته، وبقيت قضايا وموضوعات تشغل الفكر الحديث وتطلب الجواب الشافي السريع لا يتسع الوقت ولا يتفرغ البال للإسهام فيها، وكل ما كتبه قائد الجماعة عن النظم السياسية والاقتصادية ونقد مناهج الفكر الحديثة والمذاهب العصرية لا يفي بالغرض المطلوب في هذا الوقت الذي اتسعت وتشعبت فيه هذه البحوث وتضخمت المكتبة الحديثة وليست لهذه الكتابات التي سبقت قيمة علمية كبيرة عند علماءها والمختصين فيها، وكذلك يتجلى في كثير من بحوثه الدينية ان صاحبها خضع للقيم الغربية والتصورات السياسية، وانعكست في بحوثه الدينية ظلال هذا التفكير^(٢) وبعد فيها عن حقيقة الدين التي دعا إليها الأنبياء عليهم السلام وعن تعبيرهم الخالص.

وبالجملة فهمها كانت الاسباب فقد شغلت الجماعة الاسلامية بنفسها وبمشكلاتها وأزماتها، واشتدت لها المعارضة من الطبقة المثقفة الحاكمة في جانب، ومن علماء الدين في جانب آخر، ولم تستطع ان تكون فوق مستوى الاحزاب والكتل السياسية وأن تؤدي رسالتها العلمية والتوجيهية التي لابقاء لباكستان بغيرها كدولة اسلامية ومجتمع اسلامي تستطيع فيه الطريقة الاسلامية في الحياة ان تعبر عن نفسها وتبرز

(١) يستثنى من ذلك تفسير القرآن الذي ينشر في مجلة «ترجمان القرآن» تباعاً وبطبع في مجلدات باسم «تفهيم القرآن» على ما فيه من مواضع قد.

(٢) وقد تملى ذلك بوضوح في كتاب «المصطلحات الاساسية الاربعة في القرآن» وهي من أكثر البحوث سطحية وشذوذاً.

محاسنها وكوامنها ومضمراتها التي لانهاية لها - ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

أهمية الدور الذي تمثله مصر في العالم الإسلامي :

وكانت مصر - منذ عهد محمد علي باشا وجلاء الفرنسيين - في ١٧٩٩م المجال الثالث الرئيسي الذي ظهر فيه صراع الشرق والغرب ، الفكري والثقافي والحضاري والاجتماعي في أبرز مظاهره وأقواها ، فقد بذرت الحملة الفرنسية وبقاء إدارتها وقيادتها للأمور مدة^(١) - قصيرة بحساب الشهور ، طويلة بحساب التأثير والتفوذ - بذورا عميقة في التربة المصرية ، والعقلية الإسلامية العربية ، واحتك الشرق بالغرب في أرض مصر احتكاكاً مباشراً ، ووصل بين الشرق والغرب بعثات علمية وثقافية غني بإرسالها محمد علي للاستفادة من الغرب ونظمه وعلومه ، وللتقدم بمصر في مضمار العلم والصناعة والفنون والإدارة ، حملت إلى مصر ثمرات الثقافة الغربية ، ثم أنشأت ترعة السويس - في عهد إسماعيل - تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فتحدث انقلاباً في تاريخ السياسة والتجارة العالمية ، وترفع الفجوة بين العالمين الغربي والشرقي وتسهل مهمة اللقاء والالتقاء ، وكان هدف إسماعيل الأكبر أن يجعل مصر قطعة من أوروبا .

وكانت مصر بخصائصها الكثيرة التي لا يشاركها فيها أحد جديرة بأن تكون ملتقى يلتقي فيه ما فاقت فيه أوروبا - يجدها وكفاحها -

(١) وفي مدة ثلاث سنين وشهرين من ٢٤ يوليو ١٧٩٨ م - سبتمبر ١٨٠١ م

من العلوم التطبيقية ، والوسائل الحديثة ، وما خص الله به الشرق الإسلامي من علم و يقين وأسس صالحة خالدة للحياة السعيدة ، ومحركات ودوافع قوية نبيلة لا تنبثق إلا من العقيدة القوية والقلب الفاضل بالإيمان والحب ، وكانت مصر من أوفر البلاد نصيباً من هذه الثروة الكريمة ومن أقدرها على توسيعها وتوزيعها بفضل غناها في اللغة العربية والعلوم الدينية ، ووسائل الطبع والنشر ، ووجود الأزهر – أكبر مركز ثقافي ديني في العالم الإسلامي – وبفضل مرونة العقل المصري ، وقدرته القديمة على الأخذ والإعطاء ، والتأثر والتأثير ، وكانت جديرة بأن تضرب مثلاً صالحاً للعالم الإسلامي وللأقطار الشرقية للتبادل الحر الشريف المؤسس على الشعور بالكرامة والثقة بالشخصية ، والتمسك بالعقيدة في جانب وروح السماحة والانصاف ، وتقدير العلم والحكمة ، والترحيب بالصالح النافع في جانب آخر ، التبادل الذي لا يخسر فيه الميزان ولا يطفف فيه الكيل .

الحاجة إلى قناة جديدة :

لقد كان لمصر أن تنشئ قناة أفضل من قناة السويس ألف مرة ، وأعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير والسعادة ، وأعمق منها تأثيراً في اتجاه العالم ومصير الشعوب والأمم ، وأوسع تأثيراً في التاريخ الإنساني ، هي قناة التعارف الصحيح المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب ، قناة تصل الشرق المتخلف في العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذي قد بلغ الذروة فيها ، وتصل الغرب الحائر المتخيم

بقوته المادية ، المفلس في الروح والأخلاق ، البائس المتشائم ، السالك في سبيل الانتحار ، بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفي ، والثقة المتبادلة والأمل القوي في مستقبل الإنسان ، الكامنة في رسالات الشرق الدينية والروحية التي يمثّلها الإسلام في شكلها الكامل النهائي ، وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة المكدسة التي لا تعرف غاية بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التي لا تملك وسيلة ، تصل الغرب الذي يستطيع ولا يريد ، بالشرق الذي يريد ولا يستطيع ، فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده ، ويتعاونان - تعاون الشقيقتين - في إسعاد البشرية ، وتهذيب المدنية ، هذه القناة الثقافية العقلية التي تعتبر - لو تحققت وظهرت إلى الوجود - فتحاً جديداً في العالم ، ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرف في التاريخ الحديث ، وتكسب لمصر الزعامة الخالدة ، وأشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار .

لقد كانت مصر جديرة باحتلال هذا المركز الخطير ، وتمثيل هذا الدور العظيم ، لو تهيأ لها - في أول عهدها بالحضارة الغربية والثقافة الأجنبية - إيمان قوي بخلود الرسالة الدينية التي أكرمها الله بها بالإسلام ، وشدة حاجة الإنسانية إليها ، والعزم الصحيح على الإخلاص لها ، والاتصاف بصفاتها ، والتفاني في سبيلها ، والهضم الصحيح القوي للعلوم العصرية ، وتقوية نفسها بها وإخضاعها للدور الذي يجب أن تمثله في العالم المعاصر ، وتهيأت لها شخصيات موجهة قوية .

موقف مصر التقليدي الضعيف :

ولكن الظروف والأوضاع السياسية والتعليمية قد صرفت مصر - زعيمة العالم العربي الإسلامي - عن تمثيل هذا الدور العظيم ، دور القيادة والتوجيه ، ودور التأثير في العالم الغربي ، وجعلتها تقف من العالم الغربي موقف التلميذ ، وموقف المقلد المقتبس ، وجعلت مهمة هذه القناة الثقافية الفكرية مقصورة على الاستيراد فقط ، استيراداً لا تتجلى فيه شخصية مصر الإسلامية العربية والعقلية الناضجة الناقدة من أهم هذه الأوضاع التي اتجهت بها مصر هذا الاتجاه الضعيف الذي أساءت به مصر إلى نفسها، وإلى العالم العربي الذي تولت زعامته وقيادته، الوضع السياسي القائم الذي كانت تعيش فيه مصر في القرن التاسع عشر، ويشار كها فيه العالم الإسلامي بصفة عامة، عصر النفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني ، الاحتلال المباشر ، أو غير المباشر ، فقد شغل هذا الوضع - الغير طبيعي - تفكير قادة الفكر في العالم الإسلامي، واستنفد جهودهم ومواهبهم، ولم يدع لهم مجالاً في التفكير ولا سعة في الوقت، ولا فضلاً في الذكاء.

السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده :

كان السيد جمال الدين الأفغاني عقلية نابغة وشخصية قوية عرفت الغرب دراسة وسياحة وثقافة وسياسة ، ولكن يكتنفها شيء كثير من الغموض ولا يدل ما سجل من حديثه ومحاضراته وكتاباتاته وما يرويه تلاميذه والمعجبون به من سيره وأخلاقه وعلمه دلالة واضحة على مكنونات نفسه الكبيرة وحياته الشخصية ونظراته في الحضارة الغربية وقيمها ومبادئها ، وقد كان من الرجال المعدودين الذين يؤمل فيهم أن

يقوموا في ذلك العصر لمواجهة حضارة الغرب وفلسفاته المادية ونقدها، وصيانة الشرق من سيطرتها وسلطانها الفكري ، ومنعه من الانجراف الذي يفقده شخصيته ورسالته ولكن كتابه الصغير الذي وضعه في الرد على الدهريين وأعداد مجلة العروة الوثقى التي كان الموجه لها والمشرّف عليها ، لا تدل على مقدرته على تحقيق هذا الغرض وأداء هذه الرسالة ، ولكن الدكتور محمد إقبال كان شديد الإعجاب بشخصيته ، كبير الثقة بمقدرته في ملء الفراغ الذي وقع بين نظام العقيدة والفكرة والخلق القديم وبين نظام العصر الجديد ، وإعادة الثقة إلى الجيل الإسلامي الجديد بخلود الإسلام وجدارته للبقاء والكفاح يقول في إحدى محاضراته التي ألقاها في مدراس :

« إننا نحن المسلمين نواجه عملاً ضخماً ، إن واجبنا أن ننظر في الإسلام من جديد بصفته نظاماً فكرياً ، من غير أن نقطع صلتنا عن الماضي ، إن الرجل الذي قدر أهمية هذا الواجب واتساع نطاقه تقديراً صحيحاً هو السيد جمال الدين الأفغاني الذي جمع إلى بصيرته النافذة في حياة الإسلام المليّة ، وحياته الفكرية تجربة واسعة بأنواع كثيرة من البشر وعاداتهم وأخلاقهم ، وكانت مقاصده ومراميه بعيدة المدى سامقة الذرى ، لذلك لم يكن من الصعب أن تصبح شخصيته الكريمة حلقة اتصال بين الماضي والمستقبل ، إن جهوده المتواصلة ، لو تركزت على تفسير وضع العقيدة والعمل الذي دعا إليه الإسلام النوع الإنساني لكان لنا نحن المسلمين ، أن نعتمد على أنفسنا ونثق بشخصيتنا أكثر مما نحن

فيه الآن^(١) .

ولكن وضع العالم الإسلامي بصفة عامة ووضع مصر - التي قضى فيها جمال الدين أفضل أيام حياته وأكثرها إنتاجاً ، واتخذها مركز نشاطه العقلي - والطبيعة التي خلقه الله عليها من الذهن الوقاد والذكاء الحاد ، والحمية الإسلامية الثائرة ، والأنفة الأفغانية المتهيجية ، كل ذلك منع جمال الدين عن التفكير في غير إنهاض البلاد الإسلامية سياسة وتنظيماً ، وإعادة الكرامة والقوة إليها ، والربط بين أجزائها ، وإقصاء النفوذ الأجنبي عامة والنفوذ البريطاني - الذي اكتوى بناره في بلاده وفي الهند وإيران وفي مصر - خاصة ، وطبع نشاطه وكفاحه بطابع السياسة ، وأصاب الدكتور محمد البهي إذ قال :

« (كان جمال الدين) ينتزع الأمثلة من تاريخ الشعوب ومن تاريخ الأمة الإسلامية نفسها ، كما ينتزع الشواهد المحسوسة التي تفرع المسلمين من السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية (في الهند ومصر على الخصوص) هذه الأمثلة التي كان ينتزعها من شواهد الحياة الإسلامية ، ومظاهرها في وقته ، مع بيان مدى ألعيب السلطات الأجنبية ودسائسها ، وهدفها الذي نهايته بسط النفوذ الأجنبي لصالح الجماعة الأوربية وحدها على رقعة العالم الإسلامي .

هذا الاحتكاك المباشر نفسه هو الذي أظهر حركة جمال الدين الأفغاني في صورة حركة سياسية ، وهو نفسه السبب في أن يلقي بمرکز الثقل

(١) محاضرات مدرّس المحاضرة الراجعة ص ١٤٥ - ١٤٦ (مترجمة من الأوردية)

في نشاطه على « الحرية السياسية » في الشرق الإسلامي ، للمواطنين جميعاً مسلمين ومسيحيين^(١) .

وخير من يحق له التعبير عن نفسية السيد جمال الدين وتلخيص دعوته هو تلميذه الشيخ محمد عبده ، وهو يقول :

« أما مقصده السياسي الذي قدوجه إليه كل أفكاره وأخذ على نفسه السعي إليه مدة حياته - وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله - فهو إنباض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفي مجده ، ويدخل في هذا تقليص ظل بريطانيا في الأقطار الشرقية^(٢) » .

وكان الشيخ محمد عبده على ما له من حسنات في الدفاع عن الإسلام وإصلاح مناهج التعليم وتقريب الدين إلى الجيل الجديد ، كان من رواد الدعوة للتجدد ، والدعوة إلى الملائمة بين الإسلام وبين الحياة في القرن العشرين ، والتقدير الزائد للقيم الغربية ومحاولة التطبيق بينها وبين الإسلام والحرص على تفسير الفقه الإسلامي وأحكام الشريعة تفسيراً يتناسب مع مطالب المدنية الجديدة ، والجيل الجديد ، يقرب في ذلك كثيراً إلى السيد أحمد خان في الهند ، وتتجلى هذه النزعة في تفسيره وفي فتاواه وفي كتاباته ، وكل من جاء بعده من دعاة التجدد اقتبس من علمه

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٠

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ١٠٦

واغترف من بحره ، وقد شهد بذلك اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » يقول :

« إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة في مصر ، قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان في الهند (مؤسس جامعة عليكره) ثم يقول : إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين ، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي^(١) ».

ويتكلم نيومان في كتابه : (Great Britain) عن تلاميذ محمد عبده وأتباعه فيقول :

« وكان برنامجهم فوق ذلك يشجع التعاون مع الأجانب لإدخال الحضارة الغربية إلى مصر وهذا هو ما جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد في قيام الوطنية المصرية ، وهذا أيضاً هو السبب في تعيينه سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف^(٢) » .

فغل حركة السيد جمال الدين ومدرسته :

لم تكن هذه الغاية الجسيمة والأوضاع السياسية الجاثمة على الشرق لتدع لمثل السيد جمال الدين الأفغاني - في قوة عاطفته وحساسيته - حقلاً آخر للنشاط والإنتاج ، وتدعه يعمل عملاً إيجابياً بناءً في المجتمع الإسلامي ، ويقوم بدراسة عميقة تحليلية للحضارة الغربية ، وما يحسن

(١) Modern Egypt , P. 179, 180

(٢) P , 165

اقتباسه منها وما لا يحسن ، وبناء فكر إسلامي جديد يساير الزمان ويتغلب على نزعة تقليد الغرب .

ولكن دوره لا يستهان بقيمته في رفع قيمة الدين ، والاعتماد على القرآن في عيون النشء الجديد ، وفي إعادة الثقة بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، إلى نفوس الشباب المثقف ، وحال - إلى حد - بين الطبقة المثقفة الذكية في مصر وغيرها ، وبين الإلحاد والثورة على الدين ، وكان له فضل في بقاء نفوذ الإسلام الفكري والعلمي في أوساط الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي ، وإلى ذلك أشار المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان إذ قال :

« لقد كانت للإسلام سيطرة على حياة مصر الروحية ، ولا تزال كذلك ، والفضل في ذلك يرجع إلى فارسي اسمه جمال الدين ، الذي آثر لأسباب سياسية أن ينسب نفسه إلى أفغانستان ، البلاد التي قضى فيها شبابه ^(١) » .

المتخرجون في أوروبا طلائع الفكر الغربي في العالم العربي :

بدأ صفوة الأذكياء وخيرة الشباب يدرسون العلوم العصرية في مصر ، ثم يؤمون عواصم الغرب ومراكز الثقافة العصرية الكبرى في أوروبا للتوسع في الدراسات والتعمق فيها ، ويخوضون هناك في لجة الحضارة الغربية وفي الأوساط العلمية التي اعتادت البحث العميق الدقيق ، واعتادت الحرية الفكرية والشجاعة الأدبية وعافت التقليد والأخذ

Carl Brocklemann : Geschichteder Islamischen Voelker(١)
Und Staaten Munchen Berlin 1939

بشيء على عواهنه ، فكان من المتوقع ومن المعقول جداً أن يوجد في هؤلاء الشباب الشرقيين الذين نشأوا في مصر البلد الإسلامي ، وقرأوا القرآن - معجزة كل عصر - رجال يروعه ضعف أساس الحضارة الغربية والفكرة الغربية وإسرافها في المادية ، وتطرفها في القومية والنظر المادي القاصر المحدود إلى الإنسان ، وكل ما أنتجه وقام به من مظاهر العقل والروح والبطولة ، ويثير ذلك فيهم النخوة الإسلامية والمعاني الإنسانية الكريمة العميقة ، ويثير فيهم روح الاستنكار والتمرد على مثل الحضارة الزائفة ، ويكون فيهم مفكر حر مثل محمد إقبال واثار وداعية مثل محمد علي^(١) وكانوا أولى بذلك من هذين فقد نشأ الاثنان في

(١) هو الزعيم الهندي الشهير محمد علي بن عبدالملي ، ولد في إمارة رام بور (في المقاطعة الشمالية الغربية) سنة ١٨٧٨ م ونشأ يتيماً في حضانة أمه القوية النفس والمهمة ، والتحق بمدرسة بريلي الثانوية ، ثم انتقل إلى كلية عليكرة الإسلامية ، وتخرج فيها في سنة ١٨٩٦ م ، وسافر إلى إنجلترا وانتسب إلى جامعة أوكسفورد حيث نال شهادة في اللسانس (B. A.) بامتياز وفاق في الأدب الإنجليزي ، واحتوى على ثروته الأدبية وأساليب اللغة الإنجليزية المتنوعة كأبناء البلاد ، وأصحاب اللغة ، ورجع إلى الهند وشغل وظيفة كبيرة في إمارة « بروده » ومكث فيها سبعة أعوام ، ثم استقال وأصدر منها من كلكتا سنة ١٩١١ م صحيفة (Comrade) الأسبوعية الإنجليزية ، التي نالت إعجاب الإنجليز وأدبائهم وحكامهم بأسلوبها الأدبي الرصين واللمحاة الحلوة وانتقل بعد ذلك إلى دلهي ، وأصدر منها صحيفة يومية أردوبة سماها (همدرد) ونالت المسكاة الرفيعة والقبول العام اصدق لهجتها ، وكتب مقالة مستفيضة في كوسميد طوبة بعنوان (Choice of the Turks) « اختيار الأتراك » انتقد فيها سياسة الحلفاء والإنجليز بصفة خاصة ، تعتبر من أنوى المقالات التي كتبت في الهند ، أثارت غضب الحكومة الإنجليزية فاعتقلته سنة ١٩١٤ م وبقي مدة الحرب العالمية ١٩١٤ - ١٩١٨ م حقل. فيها القرآن ودرس الاسلام دراسة عميقة ، وأطلق في آخر سنة ١٩١٩ م وأسس الجامعة المالية الإسلامية في سنة ١٩٢٠ م ، واعتقل مرة ثانية بتهمة إثارة الجيش ضد الحكومة وحكم عليه في كراتشي بسجن عامين وأطلق في آخر سنة ١٩٢٢ م ، ورأس حفلة المؤتمر الوطني العام (Indian national congress) في كوكندا في جنوب الهند سنة ١٩٢٣ م ، واعتزل المؤتمر سنة ١٩٢٩ م وحضر مؤتمر =

في بيئة بعيدة عن مهد الإسلام ومركز الثقافة الإسلامية ، وجرى في عروقها دم غير عربي وغير إسلامي ^(١) ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلا في نادر الأحوال ، ورجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعة الفكر الغربي ، ودعاة متحمسين إلى تقليد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها وتصوراتها .

الدعوة إلى تحرير المرأة وأثرها :

ومن أوضح الأمثلة لذلك كتابان لقاسم أمين أحدهما «تحرير المرأة» والثاني «المرأة الجديدة» ^(٢) .

أما الكتاب الأول فقد ذهب فيه المؤلف إلى أن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج عن الدين ، وذكر « أن الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاماً ، يمكن أن يجد في كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها . . . أما الأحكام المبنية على ما يجري من العادات

= المائدة المستديرة سنة ١٩٣٠ م وخطب فيها خطبة عظيمة ، ومات في يوم ٤ من يناير سنة ١٩٣١ ، ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن في المسجد الأقصى في احتفال عظيم وجنازة مشيعة تشيخاً عظيماً ، ورثاه كبار السياسيين في الأنظار الإسلامية والهند ، واعترفوا بصاميته وعبقريته الأدبية ، وشجاعته السياسية وحميته الإسلامية ، ومن الأقوال المأثورة للمؤرخ الإنجليزي الشهير (H . G . wells) : إن محمد علي جمع بين قلب نابليون ، وقلوب ميكالي ، ولسان برك .

(١) كان محمد علي من سلالة هندية في شمال الهند الغربي ، وعمد إقبال أشار إلى أصله الهندي البرهمي كثيراً ، فيقول في بيت بعانب فيه شاباً ينتمي إلى أهل البيت قد تأثر بالفلسفة تأثراً عميقاً ومال إلى الانحسار « أنت تنتمي إلى سيد بني هاشم في نسلك ، أما أنا - المؤمن بالاسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم - إيماناً لا يتريه شك - فان طينتي هندية ، وأنا أنتمي في نسي إلى سومنات - معبد الوثنيين القديم - وكان آبائي من عباد «اللات ومناة» (ضرب كلم) .

(٢) صدر الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ م والثاني سنة ١٩٠٠ م

والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي أن لا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة ^(١) » وقد تناول في كتابه أربع مسائل ، وهي : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشؤون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين ، زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام .

ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح في الكتاب الثاني « المرأة الجديدة » فالتزم فيه المؤلف مناهج البحث الأوروبية الحديثة التي ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة سواء منها ما جاء من طريق الدين وما جاء من غير طريقه ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع على حسب ما يفعله باحثوا الاجتماع الأوروبيون ، وهو ما يسمونه (الأسلوب العلمي) ^(٢) .

ودعا قاسم أمين في آخر هذا الكتاب دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول بعد أن ذكر إعجاب المسلمين والمصريين الشديد بالماضي ^{القديم} :

« هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين - ونرجوا أن لا يكون بعيداً - أنجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا

(١) تحرير المرأة ص ١٦٩ .

(٢) الانجازات الوطنية للدكتور محمد عبد حسين الجزء الاول ص ٢٨٢ .

قيمة التمدن الغربي، وتيقناً أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا، إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة، وإن أحوال الإنسان مهملتها، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم، لهذا نرى أن الأمم المتقدمة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً، في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها، ولغاتها، وكتاباتها ومبانيها، وطرقها، بل في كثير من العادات البسيطة كاللبس والتحية والأكل، هذا هو الذي جعلنا (نضرب الأمثال بالأوربيين) ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن نستلقت الأنظار إلى المرأة الأوربية^(١).

وقد تبع صدور هذين الكتابين وما قام به الدعاة إلى تحرير المرأة من النشاط والإنتاج والكفاح، حركة حثيثة من الحرية في النساء، والسفور والاختلاط والرحلات إلى أوروبا وأمريكا للدراسات، يقول الدكتور محمد محمد حسين:

« وجزع المحافظون لما صلب هذه الحركة من ميل إلى التبرج، ومن نزوع إلى التحرر والانطلاق، وأنكروا ما رأوا من تغير حال المرأة، ومن جرأتها على التقاليد وتمردتها على سلطة الأب والزوج، وراحوا يتابعون في ذهول تطور الزي وتقلص الثوب فوق جسدها في سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون من حدود^(٢) ».

(١) « المرأة الجديدة » ص ١٨٥ - ١٨٦

(٢) الانتماءات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين - ج ٢ ص ٢٣٥
الصراع م - ٩

ويقول متحدثاً عن بعض السيدات المتحمسات في هذه الدعوة وتقدمهن في هذا المضمار :

« وترعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوي ، حرم علي باشا شعراوي... وتجرات هذه المتزعمة على ما لم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شؤون المرأة ، وأخذت تلقى بالتصريحات والأحاديث لندوبي الصحف »^(١).

صدى أفكار المستشرقين في مصر :

ورجع كثير من الجامعيين متشبعين بروح الغرب يتنفسون برئة الغرب ، ويفكرون بعقله ، ويرددون - في بلدهم - صدى أساتذتهم المستشرقين ، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم في إيمان عميق ، وحماسة زائدة ، فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلا ويجد أديباً أو مؤلفاً في مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ويشرحها ويدعو إليها في كل لباقة وبلاغة مثل : بشرية القرآن ، وفصل الدين عن السياسة ، وأن الإسلام دين لادولة^(٢) والدعوة إلى العلمانية ،

(١) الانجازات الوطنية في الادب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين ج ٢ ص ٢٣٥
(٢) وقد صدر في هذا الموضوع كتاب لعالم ديني من علماء الأزهر والقاضي المصري ، شغل الناس وأحدث ضجة في الاوساط الدينية والعلمية وهو كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لشيخ علي عبد الرازق. وهو يدل دلالة واضحة جداً على مدى تنقل فكرة المستشرقين في عقول الطبقة المثقفة ، حتى تبناها عالم ديني ودعا إليها بحماسة وإخلاص ، وهو يدور حول إثبات أن الخلافة نظام تمارف عليه المسلمون وليس في أصول الشريعة ما يلزم به ، ويخرج منه بنتيجة إنكار أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعاً من الدين في شيء ، وإنها « خطط » دينية صرفة لاشأن للدين بها .

والشك في مصادر العربية الأولى ، والشك في قيمة الحديث العلمية وإنكار مكاتته وحجيته ومكانة السنة في الإسلام ، والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور ، وكون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني ، ومتأثراً به في روحه وسبكه ، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، وتمجيد العصر الفرعوني ، والتغني بحضارته وأدبه وأمجاده ، والدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية والتقنين المدني العربي على أساس القانون المدني الغربي ، والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية – والشيوعية الماركسية أحياناً – في العصر الأخير، ترى ظلال الفكر الغربي ، بل التعبير الغربي وارفة ممدودة على العقول العربية والأقلام العربية مهيمنة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة منعكسة فيها انعكاس الشمس في المرأة الوضيئة ، وقد شهد بتغلغل الأفكار الغربية في المجتمعات والدول الإسلامية عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامي ، وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة ، يقول :

هـ ، أ ، ر ، جب في كتابه ' إلى أين يتجه الإسلام؟ ' :

« وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية ، .. علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية ، بعد أن تهضم وتصبح

جزءاً حقيقياً من كيان الدولة الإسلامية، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها^(١)،

اتجاه حركة للتأليف والترجمة إلى الأدب والاجتماع :

وكان هؤلاء الأدباء والكتاب قد أسدوا معروفاً كبيراً ، وأحسنوا إلى مجتمعهم وبلادهم ولغتهم لو نقلوا الكتب من اللغات الغربية المؤلفة في أغراض العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية النظرية والتطبيقية ، التي لا تزال المكتبة العربية فقيرة فيها كما فعل الأدباء في اليابان ، فحولوها إلى بلاد صناعية تضارع أعظم الدول والأقطار الأوربية في العلوم الطبيعية والصناعية ، وكما فعلت دار الترجمة في حيدر آباد ، ولكن انصرفت عنايتهم وهوايتهم إلى ترجمة كتب الآداب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ ، والروايات والقصص ، وترجمة كتب كثير من دعاة الإلحاد والثورة والاضطراب الفكري في المجتمع الغربي ، التي ساعدت في انشاء التبليل الفكري والاضطراب الاجتماعي ، وضعف شخصية الفكر العربي والأدب العربي ، وأحدثت اضطراع الأفكار والمثل ومناهج الفكر .

وقد وجد لهذا الاتجاه الأدبي كتاب وأدباء في مصر لهم قيمتهم الأدبية وإنتاج أدبي كبير ، ولكن لم يظهر في مصر ولا في الشرق العربي نوابغ وعبقريون في العلوم العملية ، وفي مجالات الطبيعة والكيمياء ، وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، يعترف العالم الغربي بتفوقهم في هذه

(١) الترجمة مأخوذة من كتاب « الانتماءات الوطنية في الادب المعاصر »

العلوم ، وبقيمة بحوثهم وإنتاجهم العلمي ، وينالون إعجاب الأوساط العلمية الكبيرة وتقديرها .

وقد أشار إلى موضع الضعف في إنتاج الأقطار الواقعة في الشرق الأوسط الأستاذ برنارد لويس (Bernard Lewis) أستاذ جامعة لندن في مقال له يقول :

« إن العمل المبتكر . الأصيل في مجال العلوم التطبيقية لم يتقدم في الشرق الأوسط مثل ما تقدم في اليابان والصين والهند ، إن الجيل الجديد في الشرق الأوسط لا يزال يستخدم وسائل الغرب التي تدخل من دور إلى دور جديد في فترة قصيرة من الزمن ، لذلك يلاحظ بون شاسع بين الشرق الأوسط وبين الدول الأوربية المتقدمة الراقية في العلوم الطبيعية والكفاية الصناعية ، وفي نتيجة ذلك في القوة الحربية ، بون أوسع مما كان قبل قرن أو نصف قرن حين بدأت عملية التغريب في الشرق الأوسط^(١) . »

صورة من الحياة الغربية :

ووجد في مصر كتاب وأدباء دعوا دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية ، واتخاذها مثلاً أعلى في الحضارة والاجتماع ، وكانت مصر - ببقائها تحت الاحتلال الغربي مدة طويلة ، وبحكم قربها من أوروبا وبفقد الدعوات الدينية التجديدية المؤسسة على النقد العلمي - تزداد

(١) مقالة Bernard Lewis بعنوان: «The Middle East Versus the West»

في مجلة « Encounter » ، Oct 1963 .

انصبأاً بالحضارة الغربية كل يوم ، وتتجه إلى الغرب اتجاهاً مستمراً ، حتى كادت تصبح في الطبقة المثقفة والأرستقراطية صورة من الحياة الغربية ، واستطاع الدكتور طه حسين في سنة ١٩٣٨ م أن يصور بلده تصويراً غربياً ، ويقول في كتابه المشهور « مستقبل الثقافة في مصر » :

« حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قريباً وبعداً من الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوتهم من الثروة وسعة ذات اليد ، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية ^(١) » .

« وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة ، نظام الحكم عندنا أوربي خالص ، تقلناه عن الأوربيين نقلًا في غير تخرج ولا تردد ، وإذا عبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء في نقل ما عند الأوربيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية ^(٢) » .

« والتعليم عندنا على أي نحو قد أقنأ صروحه ، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي ؟ على النحو الأوربي الخالص ، ما في ذلك شك ولا نزاع ، نحن نكون أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوربياً لا تشوبه شائبة ^(٣) » .

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٣١ .

(٢) أيضاً ص ٣٢ .

(٣) أيضاً ص ٣٦ .

ويستخلص من هذا كله النتيجة الآتية :

« كل هذا يدل على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى و«حقيقة وشكلاً»^(١) .

دعوة طه حسين مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب :

لقد كان من المتوقع ومن المعقول جداً أن مثل الدكتور طه حسين صاحب الشخصية القوية في الأدب والعلم، الذي حفظ القرآن في الصغر، ودرسه في الكبر وتعلم في الأزهر، ونظر في العلوم والآداب نظرة حرة واسعة ، ورأى شقاء أوروبا بمحضارتها المادية وفلسفتها الإلحادية ، وحكوماتها القومية ، وتذمر مفكرها والعلماء الأحرار فيها ، ودرس تاريخ العرب والسيرة الحمذية دراسة تذوق وإتقان ، لقد كانت من المتوقع والمعقول جداً، أن يدعو مصر إلى الاستقلال الفكري والحضاري، وتربية شخصيتها الإسلامية العربية ، والنهوض برسالتها العظيمة التي تستطيع أن تحدث انقلاباً في الأوضاع العالمية ، وتمنح مصر مركز الزعامة والقيادة والتوجيه حتى ولو كانت مصر جزءاً من العالم الغربي وقطعة من أوروبا ، فالرسالات الساوية الإنسانية أسمى وأوسع وأبقى من الحضارات، وهي غنية عن الحدود الجغرافية ، والأدوار التاريخية، وإذا فعل ذلك، وقام بهذه الدعوة كان رائد النهضة الفكرية الحقيقية،

والثورة المصرية المباركة، واتفق ذلك مع مواهبه العظيمة كل الاتفاق.

ولكن كان من نتائج تغلغل الثقافة الغربية في الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي وسيطرتها على التفكير والمشاعر وضعف المجتمع الإسلامي الذي نشأ وعاش فيه طه حسين ، أنه قام يدعو مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب ، ويجند كل ذكائه وإنشائه ودراسته التاريخية لإثبات أن العقلية المصرية عقلية أوربية أو قربية قريباً شديداً من الأوربية ، ولها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية ، وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية، وهي منذ قديم الزمان، منذ العهد الفرعوني لم تتأثر بالطاريء عليها في أي عصر ، فلم تتغير بالفرس ، ولا بالرومان ولا بالعرب والإسلام ، « إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط »^(١) ويقول :

« إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين »^(٢).
وعلى هذا الأساس يدعو الدكتور طه حسين المصريين إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم ، ومشاركة الغربيين - أعضاء الأسرة العقلية الواحدة - في جميع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم فيقول :

(١) أيضاً ص ٢٢ .

(٢) أيضاً ص ٤١ .

«... أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب^(١)» .

« وأن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها^(٢) » .

مستوى فكري نازل :

إن هذا المستوى الفكري ، مستوى التقليد والتطبيق والتشبه والانسجام بالغرب، وإن قياس التبعات والواجبات والرسالات بمقياس الجغرافية والتاريخ وطبائع الأمم وعقلياتها في ضوء التاريخ القديم ، مستوى كنا نتوقع من عالم مصري وأديب مفكر مثل الدكتور طه حسين أن يترفع عليه ، وقد ترفع على ذلك بعض القادة الشرقيين في أقطار غير إسلامية ، فصاروا يلجئون بالجامعة الإنسانية والنظرة الآفاقية والمثل الخلقية والروحية التي هي فوق الحدود والثغور وفوق المناطق الحضارية والثقافية في العالم القديم أو الجديد ، ويكفرون بالروابط التي توزع الأسرة الإنسانية الموحدة بين الأوطان والأجناس والمناطق الحضارية وبين العالم الغربي والعالم الشرقي، وكان المسلم العربي أحق بهذه الفكرة الواسعة ، وأحق بأن يتزعم هذه الدعوة ، ويقودها، فإنه نشأ في ظل « شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية » .

(١) أيضا ص ٤١ .

(٢) أيضا ص ٤٤ .

حركة الإخوان المسلمين وتأثيرها :

إن مواجهة حضارة الغرب وجهاً لوجه ، وتقدها النقد الجريء الأصيل ، والظهور أمام الغرب في مظهر الداعي المهاجم كان يطلب دراسة أعمق، وجهوداً أكثر ترابطاً وأكثر تركيزاً ، ومعرفة أدق بطبيعة الحضارة الغربية وتركيبها ، وحاسة أشد في الدعوة إلى الإسلام ونظمه ومناهجه ، وتطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسي الذي وقفه جمال الدين ، وموقف المحامي المدافع عن الشريعة الإسلامية الذي وقفه الشيخ محمد عبده .

وقد كان في حركة « الإخوان المسلمون » كبرى حركات الشرق الأوسط الدينية والسياسية أمل كبير في تجديد القوة الإسلامية، لو قدر لها أن تسير سيرها الطبيعي وتؤثر تأثيرها المطلوب ، والتف حولها الباحثون النوابع والمفكرون الإسلاميون ورجال الاختصاص الفني، والدراسات الواسعة العميقة التي قد بدت طلائعها^(١) ، وتلا الفراغ الفكري في الشرق وتنجح في تأسيس المجتمع الإسلامي القوي المستقل في شخصيته وفي تفكيره وفي وطنه ، ولكن طغيان الجانب السياسي العملي على رجال هذه الدعوة في جهة ومحاربة القوات المتجهة إلى « العلمانية » والاشتراكية لها في جهة أخرى قد حرمت العالم العربي - والعالم الإسلامي بدوره - ثمرات هذه الحركة الواسعة القوية التي

(١) في كتاب الأستاذ الفهد عبد القادر عودة والرحوم الدكتور مصطفى السباعي، وسيد قطب وعبد القزالي والدكتور سعيد رمضان والأستاذ محمد المبارك وأغرايم .

كانت أقوى انتفاضة دينية وثورة إسلامية في العصر الحاضر ، وكان ذلك رزءاً وخسارة للعالم الإسلامي لا تعوض ، هل كانت حركة الإخوان تملك قدرة على تحقيق هذا الهدف الكبير وإلى أي مدى حققت – بقدر وسعها – هذه المطالب والغايات ؟ إنه شيء التبس على كثير من الناس ، ويجدر في هذه المناسبة بأن تقدم بعض ما جاء في كتاب مفكر غربي لا يمثل الاخوان المسلمين ولا يعطف على قضاياهم وذلك بحذف واختصار، يقول الأستاذ اسمث W.G. Smith في كتابه Islam in Modern History يشير إلى بعض النواحي المهمة لهذه الحركة :

« إنه لا يصح أبداً أن نعتبر الإخوان المسلمين رجعيين على الإطلاق، فإن هذه الحركة قامت بمحاولة تستحق التقدير والإعجاب لإنشاء مجتمع عصري على أسس العدالة الاجتماعية وحب الإنسانية الذي هو صفوة القيم والتقاليد القديمة

إنها تريد العودة إلى أسس للمجتمع تقوم على قيم خلقية ثابتة مجمع عليها ، وتفكير متزن ، عادل

إنها تستطيع أن تحول الإسلام من تحمس عاطفي لاتباعه ومحبيه والمتعبدین له الذين تخلّوا من كل شعور ومن كل نشاط ، أو من حقل قديم لهواة التقاليد المحترفين الذين تشبثوا بالماضي في تفكيرهم وعملهم إلى قوة ناهضة صاعدة تستطيع أن تشق طريقها وسط القضايا العصرية ومشكلاتها

إن في دعوة الإخوان حلاً عملياً سريعاً لأكثر مشكلات المجتمع ، وإذا لم تقم هناك طائفة أخرى لمعالجة هذه المشكلات بتحمس أكثر ورغبة أكبر ، نستطيع أن نؤكد بأن حركة الإخوان سوف تعيش وتستمر رغم سوط الإرهاب والاستبداد ، إن الإخوان هي الحركة الوحيدة في هذا الزمان (عدا الشيوعيين) التي قدمت أمام الناس فكرة تجاوزت تقديساً باللسان وتشديقاً بالكلام إلى كسب التأييد والولاء بنطاق أوسع^(١) .

نورة ٢٣ يولييه في مصر :

لم تزل الثقافة الأجنبية - في داخل البلاد وخارجها - ولم تزل الدعوة إلى « التغريب » والفلسفات الغربية المادية التي ترد إلى البلاد من الخارج ، ويتطوع لنشرها وشرحها كبار الأدباء والكتاب في البلد ، تعمل عملها الطبيعي في أذهان الناس وتلتهمها الطبقة الجامعية المثقفة والشباب الناشئ والضباط في الجيش ، وكل ذكي وثائر على الأوضاع الفاسدة السائدة التي لا تطاق ، وتظهر في هذه الأغراض كتب ومؤلفات يقرأها الشباب عند المراهقة الفكرية فيسيغونها وتصبح جزءاً من فكرتهم وعقيدتهم ومطامحهم في الحياة ، وينظرون إلى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنهضة بالبلاد ومجارة الدول والأقطار الحرة الراقية ، وتعجز المعارف ووسائل التربية والتوجيه والأدب المقبول عن أن يخلق في هؤلاء تفكيراً أسمى وطموحاً أبعد من هذه الخطط التقليدية المرسومة

المرددة في كل بلد ، والتي سبق إليها كمال أتاتورك ، وتحققت له الزعامة في حركة التغريب ، وتطوير البلاد والمجتمع والعقلية من الأساس الإسلامي الإيمان إلى الأساس الغربي المادي ، فيحاولون تقليدها وتطبيقها في بلادهم باختلاف نوع القومية^(١) ، وبزيادة الاشتراكية التي لم تبلغ في عصر كمال أتاتورك هذا الطور الواضح المتميز القوي ، ولم تكسب هذه السيطرة ، وهذا السحر على العقول والأفكار ، ولم يبق لهذه الطبقة إلا أن تتولى القيادة وتجد فرصة لتطبيق مخططها الفكري .

جاءت ثورة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ م ونجحت بطبيعة الحال ورحب بها كل ساخط على الأوضاع الفاسدة وكل محب للبلاد وللنهضة والقوة والاستقلال ، وعقد بها الناس - على اختلاف طبقاتهم ووجهات نظرهم - آمالاً كثيرة مختلفة ، وكان في إمكانها واستطاعتها أن تعيد إلى مصر مكان الصدارة في العالم العربي الزعيم للإسلام ، ومكان التوجيه والثقة والاحترام في العالم الإسلامي ، وأن تشق طريقها إلى الأمام ، وأن تنهج نهجاً في الحياة يوافق طبيعة الشعب المصري المسلم القوي في إيمانه وفي عاطفته الدينية ، وطبيعة العالم العربي الذي أبى الله أن ينهض ويتحد ويسود إلا بهذا الدين الذي اختاره لزعامته وقيادته ، ويوافق طبيعة العالم الإسلامي الذي لا ينشط ولا يتحمس ولا يرتبط إلا بدعوة دينية ، ويوافق طبيعة العصر الذي ضاق بالقوميات وتحطى - في سيره الحثيث - العصبية التي تقوم على أساس العنصرية أو اللغة أو اللون أو الوطن ،

(١) القومية العربية بدل القومية التركية .

وصار ينظر إلى هذه الروابط والجامعات كدعوات رجعية جاهلية تمزق الأسرة الإنسانية والوحدة البشرية، وينتظر من شعب عربي قيادة أوسع نظراً وأكثر « تقدمية » من القوميات، وكل ينتظر من قادة هذه الثورة الموفقة عقلية أوسع، وصدراً أرحب، وذكاء أكثر عمقاً، وتخطيطاً أكثر أصالة، ومطابقة للواقع .

عائلة تطوير المجتمع المصري والعربي كلياً :

ولكن تحقق سريعاً أن هذه الثورة فكرة مستقلة، وفلسفة قائمة بذاتها، وخطة كاملة مصممة تصميماً دقيقاً لتطوير المجتمع المصري - وبواسطته وعن طريقه - المجتمع العربي تطويراً قومياً مادياً اشتراكياً، حتى يصبح مجتمعاً جديداً، « يستخلص لنفسه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة وتعبر عنها ثقافة وطنية جديدة ^(١) » . وينظر إلى الحرية، والاشتراكية، والوحدة، كأسس الحياة وأهداف النضال ^(٢) ويبحث عن جذور النضال المصري « في التاريخ الفرعوني صانع الحضارة المصرية والإنسانية الأولى ^(٣) » ويحدد نضاله للأمة العربية التي تقوم على وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل، ووحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان، ووحدة الأمل التي تصنع

(١) تمس التعبير الذي جاء في النص الرسمي لبيان العمل الوطني الذي قدمه الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الوطني القومي للقوى الشعبية في يوم ٣١ مايو ١٩٦٢، انظر الباب الأول، نظرة عامة

(٢) أيضاً .

(٣) البيان القومي الباب الثالث .

وحدة المستقبل والمصير^(١) ، أما الدين الإسلامي – الذي هو دين العرب
إلا من شذ منهم – فينظر إليه كأى دين من الأديان الكثيرة التي تدين
بها أمة أو بلاد ، ويضعها جميعاً في صعيد واحد ، ومستوى واحد ،
ويسمح لها بالبقاء ويعترف بها – جميعاً – بالشرف والتأثير « إن حرية
العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها في حياتنا الجديدة الحرة ،
إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى
إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير
والحق والمحبة^(٢) » . ريتكلم عن هذه الأديان كأى اشتراكى مادي لا ينظر
إلا إلى قيمة الأديان المادية والثورية ودورها في التاريخ الإنساني ،
وكانه لا يؤمن بالآخرة والحقائق الغيبية ، وإلى قيمة العقيدة الدينية
والتواب الأخروي « إن رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات
إنسانية ، استهدفت شرف الإنسان وسعادته ، وإن واجب المفكرين
الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته^(٣) » . وينظر إلى
المجتمع وأعضائه وحقوقهم نظرة لا تتقيد بالتشريعات الإسلامية والحدود
التي بينها الله تعالى للإنسان ، وإنما تقوم على أسس المجتمع الغربي
والتفكير العصري ، فالمرأة في نظره « تتساوى بالرجل ولا بد أن
تسقط بقايا الأغلال التي تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك
بعمل وإيجابية في صنع الحياة^(٤) » .

(١) أيضاً الباب التاسع .

(٢) الميثاق القومي الباب السابع .

(٣) أيضاً : الباب السابع .

(٤) أيضاً ، الباب السابع .

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل والشواهد فإنه مما لا شك فيه أن الفكرة التي تسيطر على هذا الميثاق ووضعه، والتي دفعت إلى سبكه في هذا القالب هي الفكرة المادية، وللإنسان أن يسحب من نص الميثاق كلمة العرب ومصر التي تتردد كثيراً وما يدل على البيئة التي صدر فيها هذا الميثاق، وينسبه إلى أي جمهورية علمانية اشتراكية في الشرق، وكلها تعترف بحرية العقيدة الدينية، وقداستها، وبتأثير القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان في تاريخ الإنسان والمدينة.

وقد اتخذ قادة الثورة خطوات حاسمة إيجابية لتطوير المجتمع المصري وتطوير العقلية المصرية - كمرحلة إلى تطوير العقلية العربية - فشجعوا على الإشادة بالقومية العربية كديانة وعقيدة، وجعلوا الأدباء والكتّاب يتغنون بها، كهدف الأسمى، ويتغنون بأجماد العهد الفرعوني، والدعوة إلى إحيائها، والفرعونية كقومية وحضارة وتراث، وهتف الهاتفون : « نحن أبناء العرب والفراعة » ولم تعد كلمة « فرعون » تثير في النفوس الكراهية والاحتقار، ومعاني اللعنة والعار، التي ألحقها به القرآن، وآمن بها المؤمنون في كل مكان وزمان، وأصبح العرب والعروبة تشارك الله في العزة والكرامة، فيقول القائلون : « العزة لله وللعرب » ويرحبون بكل من يغلو في ذلك ويبالغ ولو وصل إلى درجة الكفر وخرج من الإسلام، ويشجعون على ذلك بالجوائز والصلوات وأنواع التحبيذ وأساليب التحسين، وأرخوا العنان للكتّاب والصحفيين يسترسلون في ذلك ما شاؤوا، وسمحوا للصحف أن تستهزئ بالدين

وشعائره ومقدساته وتنتهك الحرمات وتنشر في المجتمع الخلاعة والاستهتار والميوعة، ولم يزد لها التأميم إلاّ خبالاً وإسرافاً في نشر الصور العارية الخليعة ، والروايات الماجنة والنقص الغرامية ، وأخبار الحوادث المثيرة للغريزة الجنسية والإجرام، حتى يتطور المجتمع وتتطور العقلية وتأخذ لونها المادي ، وطابعها الاشتراكي .

واتخذوا لتطوير المجتمع خطوات إيجابية أخرى ، من تطوير الأزهر ، وإلغاء المحاكم الشرعية ، والقضاء الشرعي ، والوقف الشرعي ومن التعليم المختلط والعناية الزائدة بالبرامج الثقافية، والرقص والغناء.

تأثير الثورة المصرية وقيادتها في العالم العربي :

وأصبح الشباب العرب ، وكل ذي طموح من ثمنى مجد العرب وتمنى لهم كياناً ودولة قوية موحدة تقوم في الشرق الأوسط يتخذ دعاة القومية العربية مثلاً أعلى ويدين بحبهم ويعتبر هذه الحركة انتفاضة الروح العربية، تعيد إلى العرب كرامتهم ومجدهم الغابر وسيادتهم المسلوقة ، ولا غرابة في ذلك ، ولا ما يستحق اللوم والعذل ، فالإنسان مفطور على حب المجد والغلبة والقوة ، وللشباب العرب كل حق في أن ينشدوا المجد ، ويريدوا القوة ، ويعضوا على الوحدة بالنواجذ ، ولكن - مع الأسف الشديد - قد اقترنت بهذا الاتجاه والتفكير في العهد الأخير معان وحوادث وتصرفات، وتوجيهات، تضعف قيمة الإسلام وتقطع رابطة هؤلاء العرب وقادتهم عن إخوانهم في العالم الإسلامي ، وتنشئ فيهم

المبالغة في تقديس القومية العربية ، والتعصب لها ، والإيمان بها كفكرة كاملة وديانة لها مفهومها العقائدي ، وقد بدأ الإلحاد ينتشر بسرعة غريبة في الشباب المثقف في العواصم العربية وتبدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر والمروق من الدين ، وأصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الأعظم ﷺ كمنقذ للعرب ، ومصدر الحياة الجديدة والكرامة والشرف والخلود لهذا الشعب العظيم ، ويرجعون إلى الماضي السحيق ويحيون أبحاده وحضارته ، ويغضبون للجاهلية إذا ذمت وتأخذهم حمية الجاهلية .

طليعة ردة فكرية :

إنه نذير شر خطير ، وطليعة ردة فكرية وثقافية ودينية لا يتداركها ولا يجبر كسرهما أعظم مجد ، وأقوى دولة ، وأكبر نهضة ، وأهول قوة ، إنها خسارة ليست فوقها خسارة ، إنها طريق إلى الخزي والعار ، والتشتت والفرقة ، والهزيمة والإخفاق بعد الإخفاق ، والخبية إثر الخيبة في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى لو كانوا يعلمون ، ويصدق عليهم قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه ، فحبطت أعمالهم فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١) .

سوريا والعراق :

إن هذه البلاد الإسلامية الخصبة الغنية التي تعيش فيها الأغلبية

الساحقة من المسلمين^(١)، والتي تملك رصيдаً عظيماً من التراث الإسلامي الحضاري المشرق، والتي عاشت كمرکز الخلافة الإسلامية برهة طويلة من الزمن مرت بأدوار سياسية مختلفة، وثورات عسكرية مرتجلة متلاحقة منذ تحررها من نير الاستعمار الفرنسي والبريطاني. إن هذين البلدين العربيين المسلمين أصبحا تربة صالحة لنزعات الغرب العقلية والخلقية والاجتماعية، ولا تزال الطبقة المثقفة، والزعماء السياسيون والحكام يزدادون تحمساً للقومية العربية، والعلمانية والتجديد والتغريب، ورغم أن الجماهير فيها لا تزال على إسلاميتها وحبها للدين ووفائها له، وكثير من التقاليد الاجتماعية القديمة باقية، ويوجد فيها عدد وجيه من العلماء المتضلعين قلما يوجد لهم نظير في البلاد الإسلامية، إلا أن سيطرة الدين في المجتمع لا تزال تضعف وتنهار، واحترام العلماء ومكانتهم في المجتمع مهددة بالزوال، وحرية المرأة وتبرجها ينتشران بسرعة، والمهرجانات الثقافية واختلاط الجنسين في تقدم وازدياد، والتعليم المختلط نال رواجاً عاماً في الشعب، وظلت العناصر اللادينية تستولي على أزمة البلاد وتتحكم في رقاب الشعب.

ومن الدليل الساطع على نفوذ الفكرة القومية واللا دينية ومدى تغلغلها في المجتمع أن حزب البعث العربي الاشتراكي استطاع أن يسيطر على العراق مدة واستطاع أن يبقى في الحكم في سوريا مدة أطول. وشعار هذا الحزب وهتافه ونظريته إلى الأمة العربية والوطن العربي هو كما يلي: العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة، تعتبر الأرض

(١) نسبة المسلمين في سوريا ٩٠٪ وفي العراق ٩٣٪.

التي تسكنها وطنها العربي « الأرض التي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة ، والصحراء الكبرى ، والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط »^(١) .
تقدم هنا مقتطفات من كتابات زعمائه ورجاله المسؤولين تلقي الضوء على تفكير هذا الحزب ومبادئه :

١ - الأمة العربية وحدة ثقافية وجميع الفوارق القائمة^(٢) بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

٢ - الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ، وترمي إلى تحديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم .

٣ - « حزب (البعث العربي الاشتراكي) قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حياة خالدة ، وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأُمته رباطاً وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسؤولية ، عامل على توجيه إنسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً » .

٤ - حزب (البعث العربي الاشتراكي) اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية ، لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق إمكانياته وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن للأمة نمواً مطّرداً في إنتاجها المعنوي والمادي وتأخيراً وثيقاً بين أفرادها » .

(١) الأحزاب السياسية في سوريا ص ٢٤٤ . (٢) الفوارق الدينية أيضاً .

٥ - الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصارهم في بوتقة أمة واحدة ، وتكافح سائر العصبية المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية.

٦ - يوضع بلاء الحرية تشريع موحد للدولة العربية تنسجم مع روح العصر الحاضر وعلى ضوء تجارب الأمة العربية في ماضيها^(١) .

إن مؤسس هذا الحزب ورأسه المفكر هو الأستاذ ميشيل عفلق (المسيحي) ، وقد سرح بأفكاره وآرائه في كتابه « في سبيل البعث » .
تقتبس منه ما يلي :

« - من الطبيعي أن يستطيع أي رجل مهما ضاقت قدرته أن يكون مصغراً ضئيلاً لمحمد ما دام ينتسب إلى الأمة التي حشدت كل قواها فانجبت محمداً ﷺ أو بالأحرى ما دام هذا الرجل فرداً من أفراد الأمة التي حشد محمد كل قواه فانجبتها في وقت مضى تلخصت في رجل واحد كل حياة أمتة واليوم يجب أن يصبح كل حياة هذه الأمة في نهضتها الجديدة تفصيلاً لحياة رجلها العظيم ، كان محمد كل العرب فليكن كل العرب اليوم محمداً » .

« - إن تأجيل ظفر الإسلام طوال تلك السنين كان بقصد أن يصل العرب إلى الحقيقة بجهدهم الخاص وبنتيجة اختبارهم لأنفسهم وللعالم ، وبعد مشاق وآلام ، وياس وأمل ، وفشل وظفر ، أي أن يخرج الإيمان وينبعث من أعماق نفوسهم فيكون الإيمان الحقيقي الممتزج

مع التجربة المتصل بصميم الحياة، فالإسلام إذاً كان حركة عربية وكان معناه تجدد العروبة وتكاملها .

« - الإسلام خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول، فهو إذاً في واقعه عربي وفي مراميهِ المثالية إنساني ، فرسالة الإسلام إنما هي خلق إنسانية عربية . »

« - إذاً فالمعنى الذي يفصح عنه الإسلام في هذه الحقبة التاريخية الخطيرة ، وفي هذه المرحلة الحاسمة بين مراحل التطور ، هو أن توجه كل الجهود إلى تقوية العرب وإنهاضهم وأن تحصر هذه الجهود في نطاق القومية العربية . »

« - الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغاتهم القومية ، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ، ولا امتزج بتاريخهم ، في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة ، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدر^(١) . »

إيران :

وقلّدت إيران تركيا في عملية التطوير الفكري والحضاري وما

(١) ميشيل عفلق في كتابه « في سبيل البعث » تحت عنوان « ذكرى الرسول العربي »

يسميه زعماء التجدد « بالإصلاحات » وقد بدأ هذه الرحلة الشاقة ملك إيران السابق رضا شاه البهلوي (١٩٢٥ م - ١٩٤١ م) أيام حكمه ، واتخذ لذلك خطوات حاسمة إيجابية . كان تأثيرها في المجتمع الإيراني عميقاً وبعيد المدى ، يستعرض الأستاذ (George Lenczowski) المعلم في جامعة كليفورنيا في كتابه (The Middle East in world Affairs) « الشرق الأوسط في القضايا العالمية » تاريخ هذا التطوير في اختصار فيقول :

« لم تكن مشاريع رضاشاه الإصلاحية محدودة في نطاق تقدم إيران صناعياً ، إنه حاول أن يجعل إيران مطابقة للعصر الجديد في مجالات التعليم والاجتماع ، وبلدة عصرية متحضرة . في عام ١٩٢٧ م قرر تنفيذ القانون الفرنسي ، وكان تحدياً لصلاحيه المحاكم الأهلية وجدارتها في الشؤون المدنية والاجتماعية ، وبدأت النزعة العلمانية في كل ذلك واضحة جلية ، بيد أنها لم تظهر علناً وجهاراً كما كانت في تركيا ، إنه شعر بأن نفوذ علماء الشيعة الرجعيين المتزمطين حجر عثرة في تغريب البلاد ، فخطى لذلك خطوات وثيدة ، إنه تلقى درساً من إخفاق تلك الثورة التي قامت للدفاع عن الديمقراطية في عام ١٩٢٤ م ، ومن إخفاق الأمير أمان الله خان ملك أفغانستان البلد المجاور في إصلاحاته ، وهو أن الشيء الذي أمكن في تركيا ذلك البلد شبه الغربي ، لا يمكن في إيران في هذا الوقت ثم إن الدستور الإيراني ينص بصراحة على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ، وأن الطائفة الجعفرية (الشيعة) هي الطائفة الرئيسية التي يعتمد عليها ، ويجب على ملك إيران أن يكون من أتباع هذه العقيدة وداعياً إليها ، كما أنه ينص على أن مجلس إيران « البرلمان الإيراني » ليس له الخيار في وضع قانون ينافي بمبادئ الإسلام وكان من اللازم أن يساهم في وضع

هذا القانون وتنفيذه خبراء الشؤون الدينية وأهل الاختصاص من العلماء أيضاً ، وهناك يكون هذا القانون شرعياً ولازماً ، وكان الملك يشعر بأنه لا يستطيع أن يعارض هذه المواد الدستورية الصريحة ، فاتخذ لذلك تدابير سياسية بدلاً من أن يهاجمها علناً ، إنه رأى الإغضاء عن رجال الدين وتجاهلهم أحسن وأقوم من معاكستهم أو معارضتهم .

كانت عملية إنشاء نظام تعليم عصري وإثارة الحرية واليقظة في المرأة تتوقف على أن يتقلص ظل رجال الدين ، ويقل نفوذهم وتأثيرهم في الشعب ، وقد قطعت البلاد شوطاً كبيراً في هذا المجال خلال الحرب ، وأصبحت مادة التعليم الديني في المدارس الابتدائية والثانوية غير إجبارية من عام ١٩٣٠ م عنيت برامج التعليم بإثارة الوطنية والشعور المدني عناية خاصة ، ونالت الرياضة والألعاب تشجيعاً كبيراً ، وأنشئت عدة ملاعب جديدة ضخمة في المدن الكبيرة ، وأصبح الالتحاق بالكشافة للبنين والبنات إجبارياً للشباب ، وذلك لبث روح القومية في الجيل الجديد .

هذه النشاطات أبعدت شباب البلاد عن ممارسة الشؤون الدينية والتفكير على الأسلوب الديني ، وفي عام ١٩٢٨ م ضرب النفوذ الديني ضربة قاصمة بمنع الزي الشرقي ، وحل محل الطربوش والعمامة القبعة البهلوية ولم تلبث أن جاءت مكانها القبعة الأوربية ، واتخذ الملك أساليب مختلفة لإثارة الوعي والحرية في المرأة ، وقيد البرلمان حرية الطلاق للرجل نزولاً إلى رغبته وتوجيهه ، وسمح للمرأة التوظيف في الدوائر الحكومية والمصالح الرسمية ، ولو أنها لم يؤذن لها بالدخول في التمثيل السياسي ، وأصدر التعليمات للضباط العسكريين والمدنيين لتشجيع

الزي الغربي للنساء ، وفي عام ١٩٢٥ م اشتركت ملكة إيران نفسها وأميرات العائلة الملكية في مناسبة عامة في الزي الغربي ، ومنذ ذلك الحين ، منع الحجاب ، ووقعت اضطرابات ، ولكن تدابير الحكومة الصارمة تغلبت عليها ، واضطر الجميع أخيراً إلى الخضوع أمام القانون ، وبدأت عملية إصلاح اللغة ، وكان هدفها تحرير الفارسية من نفوذ اللغة العربية ، وكان ذلك أهم موضوع للمجمع الأدبي (Academy of Literature) الذي انشئ عام ١٩٣٥ م ، ولو أن الحروف لم تتغير فيها كما حدث في تركيا ، وفي مارس ١٩٣٥ م أصبح اسم هذه الدولة إيران بقرار رسمي بدلا من فارس أو برشيا الذي أطلقه اليونان ^(١) « ^(٢) ورأى الملك محمد رضا بهلوي ملك إيران الحالي أنه قد جاء أوان الإصلاحات والتطورات الأخرى في البلاد فأضفى على بعض القوانين والإصلاحات صفة دستورية ، وقرر إلغاء الإقطاع ملكية الأراضي ، وقرر حق التصويت والترشيح للمرأة كدستور وقانون رسمي ، وقام علماء إيران بالاحتجاج والمظاهرات ضد هذه الإجراءات ، ووقعت اضطرابات واشتباكات في البلاد ، ولكنها لم تحدث أي تغيير في موقف الحكومة .

إندونيسيا :

إن موقف الدول الإسلامية المستقلة المتحررة ازاء التجدد والتغريب ، ونزعتها العامة القوية لضرورة علمانية الدولة ، واعتبار القانون

(١) والعرب أيضاً .

(٢) The Middle Eastin World Affairs P. 180-182

الإسلامي غير صالح للتطبيق في هذه الحياة ، والانسياق مع الأفكار الغربية واقدارها، موقف لا يستثنى منه هذا البلد المسلم الذي يكون المسلمون فيه نسبة تسعين في المائة من النفوس، وبالرغم من ذلك الصراع العنيف الطويل الدامي الذي ظل عدة سنوات باسم حركة دار السلام وكاد أن يحترق ويلفظ نفسه الأخير ، لاتزال الطبقة الحاكمة فيها بقيادة الرئيس الدكتور أحمد سوكارنو تسوقها إلى تقليد تركيا بتصميم دقيق وتخطيط سابق، وقد علق عليها المعلق الأمريكي المشهور لويس فشر (Louis Fisher) في كتابه (The story of Indonesia) وصور الأوضاع فيها بلباقة ، وعبر عن تفكير الطبقة الحاكمة وعقليتها تعبيراً صحيحاً :

« إن البلد المسلم ائوحد غير الشيوعي (Non - Communist) الذي مر بثورة حضارية عميقة هو تركيا، التي ألغى فيها كمال أتاتورك دين الدولة الرسمي (الإسلام) وقرر إلغاء المحاكم الشرعية والخلافة، والحجاب، والحرم، واستعمال الحروف العربية ، وأصبح الزي الغربي والحروف اللاتينية التعليم الإجباري العام ، وحق المرأة في الانتخاب، وعطلة يوم الأحد ، والقومية من الأمور التي نص عليها الدستور ، أما اندونيسيا فلم تكن هناك حاجة إلى تغيير أو إصلاح من مثل هذه الإصلاحات، فقد وصلت اندونيسيا إلى هذه الدرجة من التغريب من قبل ، جمهورية اندونيسيا علمانية ، ولو أن دستور ١٩٤٥ و ١٩٥٠ يعلنان أن أساس هذه الجمهورية هو « الإيمان بالله » ولكن الإسلام لا يشترط لأي موظف في الحكومة، ولا لأكبر ضابط أو رئيس جمهورية ، ولا يلزم عليه أن يقسم بالله أو بمحمد

ﷺ في ولائه ^(١) وكل انسان حر في اعتناق أي دين والتمسك به في ضوء الدستور .

إن هذا البلد الذي يحمل طابعاً غير إسلامي وغير ديني آثار على نفسه عدداً ضخماً وجيهاً من سكانه ، فشنوا على حكومته حرب العصابات Guerilla war كانت أطول الحروب في تاريخها ، وانفقت عليها أموالاً طائلة ، وليستدل لتبرير العلمانية ، بأن كثيراً من الطوائف أمثال المسيحيين والهنداك يعيشون فيها ، ولكن الدليل الحقيقي الذي لا ينطق به اللسان إلا قليلاً ، هو أنه لا يمكن لأي دولة عصرية أن يحكم عليها بمبادئ القرآن وتعاليمه التي انزلت قبل ثلاثة عشر قرناً على محمد ﷺ ، ونقطة أخرى أنه إذا حل القرآن محل القانون يصبح علماء الدين المتزمتون لهم الحق وحدهم في تفسيره والدفاع عنه ، وتتسم السياسة بطابع قديم يرجع إلى مئات السنين ، إن معظم الأحزاب السياسية ، والزعماء والقادة وأهل الفكر والرأي متنورون ، ومن دعاة العلمانية التي تدعو إليها عقلية العصر الحديث ، ويعتقدون أن الجهاز العلماني أخرى وأجدر لدولة إسلامية ، وهكذا ترى أكثرهم يفكرون على الطراز الغربي وطابعه ^(٢) .

الأقطار الإسلامية المتحررة حديثاً في طريق « التغريب » :

وأخاف أن تكون هذه قصة القادة المتجددين الثوريين ، وقصة كثير

(١) الكاتب الأمريكي لا يعرف أن الحلف بنينا صلى الله عليه وسلم فجر جثث في الاسلام

(٢) The Story of Indonesia _ P . 260 _ 261

من الأقطار الشرقية التي تحررت ونالت استقلالها في مدة قريبة، يظهر أن زعماءها وولاة الأمور فيها قد صمموا على تطبيق الفلسفة الفكرية الغربية - بشعبها الاقتصادية والسياسية والثقافية - وفلسفة القومية المادية في بلدهم الإسلامي، فهم في حرب دائمة دامية مع الطبيعة الإسلامية العميقة الجذور الممتدة العروق، وفي صراع مع الجهاز الاجتماعي والعلمي والخلقي، الذي فيه الخير الكثير والقوة التي ترهب ويحسب لها الحساب، ويمكن أن تنمى وتستغل لصالح الأمة والبلاد، وفي صراع مع المغنويات التي نشأت ورسخت في نفوس أفراد هذه الأمة وأجياها، بجهود جبارة ودماء زكية سخية، وإخلاص ليس له نظير، وعلى حساب الإيمان بالله وبالرسول وبالغيب - الذي لا يصنع في المصانع، ولا يولد بالخطب الرنانة، ولا يخلقه إلا تأثير الرسل وشخصيتهم القوية، وجهود الدعاة الخالصين من الطراز الأول، والذي إذا فقد من الأمة لا يعود بسهولة، ولا يملأ فراغه شعور قومي، أو وعي سياسي أو تقدم في المعرفة والثقافة، والذي صنع المعجزات في القديم، وخليق بأن يصنعها في كل وقت، وعلى حساب العاطفة الدينية التي يرجع إليها الفضل في الفتوح والانتصارات القومية والسياسية، وتجلت قوتها في معركة القناة، وتحرير الجزائر، وتكوين دولة على أساس الإسلام والقومية الإسلامية في شبه قارة الهند" لا يحلم بها عصر السياسة الوطنية والعلمانية.

إنها مأساة أليمة ومهزلة تاريخية في وقت واحد أنه إذا كانت هذه

البلاد في حاجة إلى التخلص من الاستعمار الأجنبي ، وكانت في حاجة إلى تضحيات الشعب وجهاده وحماسته ، الشعب الذي لا يعنيه شيء مثل ما يعنيه رضا الله وثواب الآخرة وسيادة الإسلام ، والذي لا يفهم لغة غير لغة الدين ، ولا يثير فيه الحماس ولا يحرك ساكنه هتاف غير الهتاف الديني ، يقوم الزعماء وأبطال جهاد الحرية في هذه البلاد فيتكلمون بلغة الدين ويدعونهم إلى المغامرة والمجازفة بالحياة ، وبذل النفس والنفيس واقتحام الأخطار بالشعارات الدينية ولإعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام ، وينتصرون على العدو القاهر ويذلون كل عقبة بفضل قوة الإيمان التي لا يوجد لها نظير في الأمة الإسلامية على أقل تقدير ويرغمون خصومهم الأقوياء وأعداءهم الجبابرة على الخضوع والاستسلام ، ولكن لا يجتازون هذه المرحلة العابرة ، ولا يأخذون زمام القيادة والسلطة ولا يملكون (على حد تعبيرهم) مصير الشعب وناصيته ، إلا ويسوقون بلادهم إلى التغرب والعلمانية Secularism ويبدأون عملية إصلاح الدين واحداث التغييرات في قانون الأحوال الشخصية وصهر البلاد في بوتقة الغرب ويتظاهرون فيه بسرعة عجيبة وحرص بالغ يجعل هؤلاء الذين قاموا بالتضحيات الكبيرة في هذا السبيل ، يعتقدون لعلمهم أخطأوا أو جنوا على أنفسهم وبلادهم بالكفاح الذي قاموا به لأجل تحرير البلاد ولعل استقلال البلاد قد عاد وبالأوشوفاً على الحياة الإسلامية والحرية الدينية .

فمن عام ١٩٢٤م إلى عام ١٩٦٢م ومن تركيا إلى الجزائر قصة واحدة

ذات فصول وحلقات ، لا تستثنى منها دولة إسلامية ، ونرى أن الدول العربية - بنفسها - أيضاً تتقدم إلى هذا الهدف بنفس العزم والحماسة والقوة ، وتقتفي أثر تركيا التي كانت في زمن من الأزمان ناقمة عليها .
ثائرة ضدها ، والتي لا تزال تتظاهر باستنكارها واستيائها لسياستها حتى الآن .

تونس :

إن تونس في مقدمة البلاد العربية التي نالت الحرية والاستقلال في عام ١٩٥٧م ، وبدأ رئيسه الأول الحبيب بورقيبة بعملية التجدد وتنفيذ الإصلاحات الكمالية في هذا البلد العربي المسلم المتحمس ، ان تصريحاته وأحاديثه التي يدلي بها بين حين وحين الى الصحف تدل بصراحة ووضوح أنه يريد أن يسير بهذه البلاد الى الطريق الذي سارت عليه تركيا من قبل ، وينشئ تونس الحديثة كما تملي عليه ثقافته الفرنسية ، وتقدم هنا رأي جريدة فرنسية معروفة بدقة التحري كجريدة «لوموند» الباريسية تنفي وجود الاتجاه اللاديني في الجمهورية التونسية ، ففي سلسلة تحقيقاتها عن تونس المستقلة على عتبة السنة الثالثة نجدها تنشر في الفصل المعنون « بين العرب والإسلام » بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٥٨ م :
« لقد وضع السيد الحبيب بورقيبة حداً لتعدد الزوجات » وللطلاق الانفرادي وللاستبداد الزوجي ، وجعل قبول الزوجين معاً اجبارياً ، هذا التحرير العائلي يتضاعف بتحرير سياسي واجتماعي ، والنساء منذ

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٨ م ثم منع تعدد الزوجات بنائاً .

الآن ناخبات ومنتخابات (١١) مستشارة بلدية انتخبن في السنة الماضية) ويدخلن في جميع الوظائف ، ويوجد من بينهن فعلاً نحو مائة في التعليم و ١٥٠٠ في الإدارات و ٧ آلاف في المشاريع المختلفة .

إن تونس في هذا الميدان تظهر بمظهر الأمة المرشدة ، لقد نهجت الطريق المفتوحة من طرف تركيا الكمالية ، فالتطور في تونس ذو احساس دقيق بصفة خاصة فالحجاب أخذ يقل خصوصاً عند الفتيات، و ظهور الأزواج في الأزقة أصبح أكثر عدداً ، ويزداد يوماً عن آخر جلوس الرجال والنساء جنباً الى جنب في الاجتماعات السياسية ، وفي البوادي حيث المعارضة أقوى نجد التقدم أقل سرعة .

إن بورقيبة لم يحاول أن يفرض هذا التطور ، بل إنه يفضل أن تسقط هذه « الخرق الشنيعة » من ذات نفسها ، وهو يدافع عن نفسه أيضاً ضد اللادينية وبالأحرى أن يريد الانفصال عن الإسلام، ولكنه يبذل جهده للتوفيق بين الحضارة العصرية الضرورية والتقاليد الدينية، ويهتم بالتدليل على أن إصلاحاته إذا كانت لا تحترم دائماً النصوص الحرفية للقرآن فإنها لا تخون روحها، وبهذا الاعتبار فإن الاتجاه التونسي أقرب لنظيره في النظام المصري منه للنظام الكمالي، فبالنسبة للتعليم التقليدي نجد بورقيبة يقيم الدليل على نفس التحديد ، بل وعلى نفس المرونة ، فقد تجنب مهاجمة الجامع الكبير (الزيتونة) وجهاً لوجه ، ولكنه منذ سنتين يحدد بالتدرج دوره ومهامه ويفكر ، كما قيل لي ، في تحويله إلى مجرد كلية لعلم اللاهوت في إطار الجامعة التونسية .

هذه الإصلاحات المختارة كماذج من بين غيرها تفصح عن نوايا جد مؤكدة لتحويل تونس إلى دولة عصرية ، وجميع الشباب التونسي يصادق في هذه الناحية على عمل الرئيس بل إن أفراداً يجدونه شديد البطء شديد الخجل ، ولكن بورقية يفضل هو أيضاً احترام «المراحل» ومع ذلك فمن رأي بعضهم أن « التحضير » (اقتباس الحضارة) لايعني بالضرورة « التغرب » (التحول غريباً) ويقولون : لماذا نرتبط بهذه الشهرة مع الغرب ، ونعلن ذلك بهذا التكرار ؟ ! وهكذا فإن اتجاهها يتكون حالياً عند بعض المثقفين لفائدة نوع من الإصلاح والحياد على الطريقة المصرية ^(١) .

وقد ذكر جوزف شاخث (Scho Cht) في مقالة نشرت له حديثاً تحت عنوان « قضايا الفقه الإسلامي الحديث » هذا الشوط الذي قطعته تونس في مجال التجدد والتغرب وذلك في صراحة ووضوح ، إنه يقول : « وأخيراً قبلت تونس قانون ١٩٥٦ م وأثبتت أنها في مقدمة البلاد آمنت بتغير الفقه الإسلامي ، فالغيت أولاً الأوقاف العامة ووضعت أملاكها وميزانياتها تحت تصرف الحكومة ، وكان هذا القرار أهم بكثير من إلغاء الأوقاف في سوريا ومصر من وجهة النظر القانونية ، والغيت المحاكم الشرعية أقتداءً بالقانون المصري في السنة الماضية ، ونفذ قانون آخر للأحوال الشخصية بعنوان « مجلة الأحكام الشخصية » (Tunisian Code of Personal Status) وقد زعمت وزارة العدلية

بتونس أن هذا القانون نال إعجاب كبار رجال القانون الإسلامي، ومع أن هذا القانون أبقى على بعض القضايا التي هي إسلامية في صميمها مثلاً المهر، وتحريم النكاح على أساس الرضاع، ومع أنها تتفق مع أحد المذهبين الفقهيين المعتمد عليهما في تونس إلا أن القول بأنه صورة القانون الإسلامي في المحاكم الشرعية قديماً مع بعض التغيير والتعديل استناداً إلى تأويل بعيد لا يصح، وقد أفتى بعض كبار علماء هذه المحاكم من الطراز الأول ضد هذا القانون، واستقال أربعة منهم (ومنهم مفتي المذهب المالكي الأكبر ومفتي المذهب الحنفي الأكبر) من المحكمة العليا (Tribunal Superior) احتجاجاً ضد هذا الإجراء، صحيح أن الجزء الذي يتعلق بقانون الموارث هو على حالته لم يغير فيه مطلقاً - ولعل السبب في ذلك أن هذا القانون كان صالحاً للأوضاع الاجتماعية في تونس ومطالبها حتى الآن - أما أحكام النكاح والطلاق فإنها مسخت مسخاً شديداً حتى لم يعرف شكلها الصحيح، فمثلاً منع تعدد الزوجات واعتباره جناية تستحق عقوبة، النكاح لا يعقد إلا برضا الفريقين، الطلاق لا يقع إلا بواسطة المحكمة وذلك في ثلاث نقاط :

- أ - أن يكون طلب الطلاق على الشروط التي ذكرت في القانون .
- ب - أن يكون الفريقان متوافقين على الطلاق .
- ج - أما إذا طلبه فريق واحد فيعين القاضي الغرام الذي يدفعه ذلك الفريق إلى الفريق الآخر .

وهكذا لم تجعل المرأة متساوية بالرجل في الطلاق والزواج أمراً أساسياً

فحسب بل في شئون الملكية أيضاً التي تتبع النكاح، إنه بعيد أن يكون لواضعي هذا القانون اطلاع على أفكار خداجخش، ولكن بما لاشك فيه أن القانون التونسي تأثر بمثل هذه الأفكار والنزعات ومهأزعم أهل الحل والعقد في تونس ، فإن قانونهم الشخصي يختلف عن القانون الإسلامي التقليدي كما يختلف عنه القانون العلماني ... في تركيا ، تماماً ،^(١) .

الجزائر :

الجزائر التي دفعت ضريبة الحرية بتضحية مليون نسمة ، وكانت السر في هذه التضحية والثبات (الذي لا يوجد له نظير في العصر الحديث) حب الشهادة ، والحنين إلى الجهاد . وكانت وكالات الأنباء الغربية تعبر عنهم -أي الجزائريين- بكلمة المسلمين فحسب في أخبار معاركهم وكفاحهم ، هذه الجزائر المجاهدة تعاني نفس المشكلة ، وتمر بنفس التجربة التي مرت بها الدول الإسلامية التي يترعها قادة التجدد والتغريب في هذه البلاد ، فقد أصبح زعماء الجزائر يسوقون بلادهم نحو مادية اشتراكية علمانية ونحو الحضارة الغربية رغم عاطفة الشعوب الدينية والآمال التي عقدتها العناصر الإسلامية بهم^(٢) .

نستطيع أن تتمثل هذه الأوضاع التي تحتج عليها روح الجزائر

(١) مقالة شاخت بنوان Problems of Modern Islamic Legislation ترجمة

الاستاذ فضل الرحمن الانصاري ملحقاً في مجلة « برهان » ديسمبر ١٩٦٣ .

(٢) نمرت الصحف الانجليزية الصادرة من الهند هذا الخبر في ٥ إبريل ١٩٦٢ م ، أن الأستاذ بكر ممثل الجزائر في الهند صرح في مؤتمر محلي هناك ، أن الجزائر الحرة ستكون دولة علمانية ديمقراطية ، أما لغاتها فكون مربية إسلامية ...

الإسلامية ودماء الشهداء بتصريح من علماء الجزائر وصل إلينا بطريق صحيفة يهودية جويش أوبزرفر (Jewish Observer) الصادرة من لندن .

نشرت هذه الصحيفة في عددها الصادر في ٣١ أغسطس ١٩٦٢ م مراسلها في الجزائر تحت عنوان « حكم الإسلام لا بد أن يسود » ما يلي ترجمته :

« أعلن القادة المسلمون الدينون هنا أن « الإسلام واللغة العربية » لا بد أن يسودا الجزائر الجديدة وهاجم علماء الجزائر في بيان لهم القادة القوميين الذين ينادون بدولة جزائرية اشتراكية يعزل الدين فيها عن التدخل في شؤون الدولة .

لقد أعلن بيان العلماء أن الثورة الجزائرية تكون قد خانت شهداءها الذين سقطوا في الميدان وفشلت في رسالتها التاريخية إن لم يكن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ، إن اتفاقية « أفيان » لوقف القتال تنص على أن دستور الجزائر في المستقبل لا بد أن يتضمن حرية الأديان وأن تكون اللغتان العربية والفرنسية هما اللغتين الرسميتين في الدولة ، وأن الدستور سيرسم خطوطه الجمعية العمومية التي كانت مفروضا أن تجتمع يوم ٩ سبتمبر بعد أن تأجل انعقاد جلساتها عدة مرات، ولكن انعقادها حتى بهذا التاريخ قد أجل بسبب التوتر المستمر في العلاقات بين قادة الجيش والقادة السياسيين ، ولكن هاهم العلماء جزائريون الآن ، ولأول مرة ، في تصريح عام لهم ، منذ انتهى الحكم

الفرنسي يعلنون أن الاستقلال والتنمية المادية للاقتصاد ليسا كافيين كي يكونا هما غاية الثورة الجزائرية وذكر بيانهم : « أن لكل أمة مستقلة شخصية، وإلا تشابهت الأمم كالسمك في الماء، الجزائريون والفرنسيون والأسبانيون... ومعنى ذلك أن نصبح دولة مفتوحة للعالمية الواسعة، نحن نعارض كل هذا... نحن جزائريون ولنا شخصيتنا الوطنية المستقلة يقضي بذلك ديننا الإسلامي ولغتنا وتقاليدها وتاريخنا » ووصف بيان العلماء محاولة البعض في فصل الإسلام عن الدولة بأنه « تنكّر لمبادئ ثورتنا، وهجوم على الإسلام في هذه الأمة المسلمة، وانتهاك حرمة هذا الشعب كله^(١) ».

إن هذه الدول العربية المستقلة وزعماءها القوميين لا يزالون يبدون رغبتهم في الإسلام وصلتهم به بين حين وآخر، إنهم لا يجهلون أن الإسلام لا يزال رابطة وحيدة قوية بينهم وبين الشعب، وإنهم لا يستطيعون أن يحكموا الملايين إلا باسمه ولافتته، ولكن مفهوم الإسلام عندهم يختلف كلياً عن ذلك المفهوم الذي يحمله المسلمون المتمسكون بدينهم، إنهم يريدون بالإسلام ديناً مر بمرحلة الإصلاح والتطوير (Reformed) يتلاءم مع الحضارة الغربية وقيمتها وأقدارها، ويصلح لقومياتهم ووطنياتهم، ويحصر في إطار العقائد والأخلاق فلا يتدخل في وضع الدستور وشؤون الدولة ومصالحها.

وأعتقد أن رأي معلق لبناني الدكتور سالم ليس من المبالغة وتهويل

الواقع في شيء إذ كتب في صحيفة أمريكية مشهورة (Muslim World)
تحت عنوان (Nationalism and Islam) :

« إن القومية قد توافقت مع الإسلام لتحقيق هذا الهدف ، ولكن الإسلام الذي تبنيه القومية هو ليس الإسلام القديم الجاف ، بل إنه إسلام عصري جديد مرّ بمرحلة التطوير والإصلاح ، موضة عصرية تزيّت بزيّ الإسلام فقط ، لا شك أن اسم محمد ﷺ والقرآن تتردد على الألسن ولكن ليكون ذلك مبرراً لكل ما يعمل به القوميون ، إن القومية العربية حققت كل هذه الانتصارات بتمسكها بالإسلام ، وتستطيع أن تقول إلى حد كبير أن القومية العربية لا تدخر وسعاً في استغلال الإسلام استغلالاً كاملاً لتكوين أمة عربية جديدة ، إن الزعماء القوميين يحققون انتصاراً باهر أبهذا المزج بين القومية والإسلامية^(١) . »

عملية هدم وإزالة أنقاض :

وهكذا تنقل شجرة الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، التي ساهم في نشأتها وسموقها مناخ خاص ، وسقي خاص ، وغذاء خاص ، وقد توفرت هذه العوامل كلها في الأراضي الأوربية ، .. تنقل هذه الشجرة — بعدما كبرت وترعرعت — إلى الأرض الإسلامية ، فتغرس فيها وتنصب بقوة ، ويهيأ لها الجو ، وتحفر لها الأرض حفراً عميقاً ، ويقوم الحريصون على نصبها في البلد الإسلامي بعملية الهدم الواسعة وإزالة الانقاض الفكرية

(١) مقاله (Nationalism and Islam) في مجلة (Muslim world) عدد

والاجتماعية - كما يسمونها - من حولها، وتستغرق هذه العملية الهدامة جهوداً وطاقات وأوقاتاً كانت تعود على الأمة وعلى البلاد بنفع كبير، لو وجهت إلى عملية إيجابية بناءة، وإلى إثارة القوى الكامنة في نفوس رجال هذا الشعب الإسلامي عن طريق الإيمان والدعوة الدينية، والإصلاح الخلقي.

رجعية التقدميين

وقد يلجأ هؤلاء المتجددون في سبيل التجديد إلى بعض الفلسفات والنظم والروابط، التي فقدت قيمتها ومكانتها في المجتمع الأوربي من زمان، وأصبحت تعتبر من الشعارات الرجعية ومن التجارب القديمة التي لجأ إليها القادة في أوروبا في ظروف خاصة، وفي وقت محدود، ثم استغنوا عنها بما رأوا من أضرارها وجنباياتها وتركوها إلى فلسفة أو فكرة أفضل منها وأوسع، وخير مثال لذلك « القومية » التي تخلت عنها أوروبا تقريباً ويعض عليها بعض القيادات في الشرق الإسلامي بالنواجذ. وترى فيها الأسلوب الأخير من التفكير، وآخر ما وصل إليه العقل البشري من وسائل التنظيم والتخطيط مع أنها من بقايا عصر البداوة والحياة القبلية المحدودة في صورة موسعة، وطمر بالخلعه الأوربيون، ومن العوامل الهدامة التي فرقت المجتمع البشري ووزعت الجيل الإنساني على نفسه.

قد بدأ مفكرو الشرق والغرب الأحرار ينظرون إلى القومية نظرة احتقار وازدراء ويعتبرونها موضوعة قديمة ودليلاً على الرجعية والتزمّت

وعنصر أهداماً للإنسانية والسلام العالمي، ويدعون إلى الوحدة الإنسانية وفكرة الأسرة العالمية، وتقدم هنا - كدرس وعبرة - رأي مفكرين عظمين، أحدهما ينتمي إلى الغرب والآخر ينتمي إلى الشرق، الأول هو المؤرخ الشهير ارنلد توثني Arnold Toynbee والثاني الدكتور رادها كرشنان رئيس الجمهورية الهندية .

إن ارنلد توثني يكتب في إحدى مقالاته :

« إن مستقبل الإنسانية يتوقف على أخوة روحية لا يمنحها غير الدين ، وهو الشيء الذي يحتاج إليه النوع الإنساني في هذا الوقت ، الشيوعية تزعم أنها تستطيع أن توحد النوع البشري كما أن الإسلام يثبت صلاحيته كقوة موحدة للإنسان في افريقيا ، المسيحية أيضاً تستطيع أن تلعب هذا الدور إذا عملت بمبادئها ، ولكن القومية لا تستطيع أبداً أن توحد الإنسانية ، بل انها توزعها وتشقت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل، وإنما لا تستطيع إلا أن تدفن الإنسانية في ركامها . إنه يجب علينا أن نختار إحدى النتيجتين في عصر الذرة ، واننا إذا أردنا أن نُنقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغي لنا أن نختزن الإنسانية كلها من غير استثناء ونتعلم كيف نعيش كأُسرة واحدة (١) . »

ونادى الدكتور رادها كرشنان بتبني فكرة « الأسرة الواحدة على وجه الأرض » حتى يسلم العالم من عواقب « القومية العسكرية » وقد قال في خطبته التي ألقاها في ١٠ يونيو ١٩٦٣ م في مؤسسة الأمم المتحدة :

« إن تقاصر الإنسان عن إلغاء التجارب النووية لا يدل إلا على نظرة خاطئة كبيرة ، التاريخ يشهد أن الاستيلاء السياسي ، والتميز العنصري والاستغلال الاقتصادي دفع الإنسان إلى نار الحرب ، فإذا قضي على هذا الاستيلاء السياسي والاستغلال الاقتصادي بإدخال الرخاء ، والقضاء على النعرة الجنسية يكون ذلك خدمة كبيرة للسلام العالمي .

إن الوطنية ليست المثل الأعلى للإنسان ، بل إن مثله هو فكرة الأسرة العالمية الواحدة ، إننا نعيش في عالم حديث ولكن أفكارنا قديمة عتيقة ^(١) » .

تقليد دعاة التجديد :

إن هذه المحاولة المخلصة الملحفة لتطبيق تجارب الحياة الأوربية في بلد إسلامي يبرهن على أن قادة هذه البلاد - وإن دوت أسماؤهم في العالم وقادوا الجماهير الكثيرة - لا يزالون - رغم ثقافتهم العصرية الواسعة - في دور الطفولة العقلية التي يكثر فيها التقليد والمحاكاة والتلمذة المتواضعة لأساتذتهم الغربيين ، وأن شخصياتهم مجردة عن كل ابتكار وعن القدرة على الإنتاج الأصيل والإبداع ، وعن التفكير الحر ، وإنهم فضلاً عن جهلهم أو تجاهلهم لطبيعة الشعوب التي يحكمونها ، ولمواهبها وطاقاتها لا يسايرون الفكر الأوربي في تقدمه وأطواره ، ولا يعرفون ما يجيش به المجتمع الأوربي من قلق وتذمر ، وبحث عن الإيمان والروحانية .

إبراف الدول الإسلامية المتخلفة :

الحالة الاقتصادية في الدول المسلمة سيئة بوجه عام ، إنها مفتقرة الى الدول الأخرى وعالة عليها حتى في حاجات الحياة ، وإن مستوى حياة شعوبها منحط خافض بوجه خاص ، أما البلاد التي عهدها سكانها هائل فإن مستوى معيشتها وحالتها الاقتصادية أحط بكثير مما عليه البلاد الأخرى ، ولكن حكومات هذه البلاد تحاول تقليد الدول الغربية المتحضرة الغنية ولا تدخر في ذلك وسعاً ، وتعتبر إنشاء القنصليات والسفارات في جميع البلاد فريضة لازمة ، وتتخذ هذه السفارات كل الأساليب التي تتخذها السفارات الغربية التي لا دين لها ولا حشمة ولا حدود خلقية ، ان هذه السفارات المسلمة والعربية تقيم مآدب فاخرة وحفلات الكوكتيل Cocktail Parties وتصب فيها أموال الفقراء والطبقة الوسطى كالماء الجاري ، وتقدم الخمر في عامة الأحوال ، ولحم الخنزير أيضاً في بعض الأحيان وبعض المناسبات ، ان هذه السفارات لا تتحمس مطلقاً لدعوة الإسلام ، والتمسك بمبادئه الخلقية التي تنتمي إليها ، ولا تكون لها صلة ما بالمسلمين في تلك البلاد وعناية بتوجيههم وتشجيعهم والاطلاع على أحوالهم وأوضاعهم ، ولا تفيدهم ثقافياً وأديباً إلا نادراً .

ان كثيراً من زعماء الدول المسلمة (ومنهم من آمنوا بالديمقراطية والاشتراكية كمبدأ ودستور) يعيشون عيشة باذخة مبذرة ، نفقاتهم ملوكية وجولاتهم تذكر بعهد كسرى وقيصر وامبراطور روسيا في

العهد الأخير ، وحياتهم المتزلية ومناهج عيشهم تشبه قصص ألف ليلة وليلة ، والإنسان يكاد لا يصدق أن هؤلاء هم زعماء البلاد الإسلامية المتخلفة ، والشعوب المتأخرة الفقيرة ، والدعاة إلى الاشتراكية والديمقراطية والشعبية .

تقدم بهذه المناسبة الدكتور سوكارنو رئيس جمهورية اندونيسيا^(١) كنموذج لهذا النوع من القادة والزعماء، ونضرب مثلاً لأسلوب حياته، ومستوى معيشته ، تقول جريدة الصندي تلغراف الصادرة من لندن في أحد أعدادها :

« الرئيس الأندونيسي سوكارنو أنفق خلال إقامته في طوكيو خمسة آلاف جنيه يومياً وكان يرافقه ستة ضباط ، وكانت المومسات والبغايا والفتيات الأخرى يجلبن إلى فندقه الذي كان يكلفه ٥٥ جنيه يومياً ، وكان ٥٠ من الحراس منزعين لكثرة تردد المومسات والبغايا الزائرات في هذا الفندق » .

كما أن مكتب وزارة الخارجية باليابان لا ينظر بعين الرضا إلى هذه الجولات التي يقوم بها الرئيس سوكارنو بين حين وآخر لطوكيو ، ولكن لما أن اليابان تريد استغلال الوسائل الطبيعية في اندونيسيا فإنها لا تبدي استنكارها لهذه الجولات بطريق علنية^(٢) .

(١) اندونيسيا بلد متخلف يقدر عدد سكانه الهائل وقد صرح نائب الحاكم العام بجاوا أن مليون نسمة تقريباً في جاوا الوسطى تعاني القالة والقر والجذب ، وقال أن هناك ١٢ ألفاً من الناس يأخذون التلقيحات النذائية في المستشفيات الحكومية .

(٢) Sunday Telegraph 21, January 1964

صراع بين الحكومات والشعوب :

إنهم في بلاء وشقاء من هذه الشعوب التي لا يسهل عليها التخلي من المبادئ الدينية ، ومن ثروتها الإيمانية ومن تراثها الغني ، والانتقطاع عن منابع الحياة والقوة التي تكمن في مصادرها الدينية ، وأدبها الإسلامي ، وتاريخ الإصلاح والتجديد ، فهم في عملية هدم واسعة الأكناف ، طويلة المدى ، محاربة من جهات كثيرة ، والشعوب الإسلامية – التي وقعت تحت حكمهم وقيادتهم – في بلاء وشقاء من هؤلاء القادة ، فهم يحاربون طبيعتها ويقودونها بهتافات وشعارات لا تسينغها هذه الشعوب ولا تنشط لها ، ولا تستطيع أن تحب إليها الموت والفداء ، وتهون عليها بذل النفوس والأموال والهجرة من الأوطان ، وتتغلب على الشهوات والأنانية الفردية ، وقد عرف هؤلاء القادة ضعف هذه الهتافات والشعارات في إثارة الحمية ، وإشعال الحماسة في نفوس الجماهير فهم يلجؤون دائماً أيام الجدد والمعارك الدموية الحاسمة إلى الهتافات الدينية والشعارات القديمة من الجهاد في سبيل الإسلام والشهادة في سبيل الله حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، وتسلموا مفاتيح البلاد ، عادوا إلى هتافاتهم ، وشعاراتهم القومية والزمنية ، ويفترضون أنهم يحكون شعوباً ليست لها ديانة تحبها وتقدها وتستमित في سبيلها ، وليست لها عاطفة دينية تحتاج إلى التربية والاستثمار .

إهمال طاقات وكنوز مخبوءة :

وهكذا تضيع طاقات هذه الشعوب ومواهبها ، وإمكاناتها التي

لو استثمرت وقدرت حق التقدير، وكان القادة «واقعيين» أكثر منهم «خياليين» لفعلت الأعاجيب، وكانت قوة يحسب لها الحساب الكبير في ميزان القوى وفي ميزان «المعسكرات» ولا سبب في ذلك إلا ضيق تفكير هؤلاء القادة، وتقليد هذه الحضارة، والتصميم على تطبيقها في بلدهم بحذافيرها، وهذا بتأثير الثقافة الأجنبية التي تلقوها في الخارج، أو خضعوا لها وهضموها في داخل بلادهم.

تقليد الحضارة الغربية ونتائجه :

إن اتباع أساليب الحضارة الغربية في الحياة الاجتماعية والإيمان بمبادئ حياتها ومنهج اجتماعها يحمل نتائج بعيدة المدى، إن أوربا اليوم مصابة بالجذام الخلقي، ولا يزال جسمها يتقطع ويتعفن حتى أصبح الجو كله موبوءاً، وسبب هذا الجذام هو الإباحية الجنسية والخلقية التي تسود أوربا اليوم، وتتخطى حدود الحيوانية والبهيمية^(١)، والسبب الحقيقي لهذه البهيمية والحيوانية هي حرية المرأة المطلقة، التبرج المطلق، الاختلاط الذي لا حده ولا نهاية، وإدمان الخمر، فأى بلد إسلامي سار على هذا الدرب وطرح الحشمة وسمح بالاختلاط بجميع أنواعه، وشجع التعليم المختلط كانت نتيجة ذلك التفسخ الخلقي والجنسي، والثورة على سائر الحدود، الخلقية، والدينية، وفي عبارة وجيزة،

(١) وقد رأينا بعض ملامحها في فضيحة بروفومو (Profumo) الشهيرة بلندن التي رفع النار عنها لأسباب سياسية.

الجذام الخلقي الذي أشرنا إليه آنفاً ، والذي أصيب به الغرب ، إننا نرى معالم هذا الجذام واضحة في البلاد الإسلامية التي تحمست في تقليد الحضارة الأوربية ورفع الحجاب ، وشاع فيها الاختلاط ، وظلت الصحافة والسينما والتلفزيون والعلوم والآداب ، وحياة الطبقة الحاكمة تشجعها ، بل تقودها وتوجهها .

سنة الله في الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

أسباب «التجدد» والتغريب وعلاجهما

وبعدما ذكرنا في الفصول السابقة تاريخاً مجملًا لحركة التجديد والتغريب في العالم الإسلامي التي قادها كمال أتاتورك (١٩٢٤ - ١٩٣٨ م) وعرف القراء أن قادة الدول المسلمة التي نالت استقلالها حديثاً ومؤسسي الحكومات المسلمة الوليدة ، إما موافقون عليها تماماً أو خاضعون لها في قليل أو كثير ، كما أن الطبقة المثقفة بالثقافة العالية في كل بلاد العالم الإسلامي تتجه نحو الأساليب التي اتخذها كمال في النهضة والإصلاح ، ونحو « التجدد » والتغريب .

يجب أن نفكر في أسباب هذا التأثير العميق الذي تركه مصطفى كمال في قلوب هذه الطبقة ، هل هي مصادفة من مصادفات التاريخ ، أو هي نتيجة شخصية كمال القوية ؟ أو أن هناك أسباباً أخرى أكثر قوة وأشد نفوذاً تجعل كل من ينهض للإصلاح والتشكيل الجديد للمجتمع يقتفي آثاره في ذلك ويقلده في النهضة بالبلاد وتقويتها ، ويعتقد أن سر النهضة إنما هو التجدد والتغريب ، ليس غير .

إننا نرى لذلك أسباباً هي في نفوذها عميقة الجذور ، وهي تكاد تكون شائعة منتشرة في الأقطار الإسلامية ، نستعرضها واحداً واحداً بالإجمال ونبحث فيها باختصار .

نظام التعليم الغربي :

لا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كاللكن الحي له روح وضمير ، إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد

واضعيه ونفسيتههم ، وغايتهم من العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ، ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة ، وروحاً وضميراً بذاتها ، إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً ، إنها تسري في جميع العلوم ، في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية حتى في علمي الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح ، وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها ، وإنما يتيسر ذلك لرجل أوتي من قوة الاجتهاد وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز الجزء النافع من الجزء الضار ، فيكون عاملاً مبدأ « خذ ما صفا ودع ما كدر » ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها .

وهذا العمل سهل في العلوم الطبيعية التطبيقية ، بينما هو صعب ودقيق في نفس الوقت في الأدب والفلسفة والعلوم العمرانية ، ولا سيما إذا كانت أمة تؤمن بعقائد معينة وتتبنى فلسفة مستقلة وأسلوباً خاصاً للحياة ، وتاريخاً مستقلاً - لا يعد من أنقاض الماضي وإنما هو منارة نور للأجيال القادمة - وتعتبر شخصية الرسول وعهده الأسوة الحسنة التي تفوق جميع القيم والمثل العليا للحياة الإنسانية ، إذا كانت أمة هذه صفتها تتبنى نظام تعليم لأمة تختلف في الأساس والقيمة والميعار يحدث هنالك صراع مستمر لا يفارق هذه الأمة في أي مرحلة من مراحل حياتها يجر إلى بناء واحد وهدم آخر ، إلى تصديق واحد وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحد وازدراء آخر ، وفي مثل هذه الحال يجب أن

يحدث هناك نزاع عقلي ، وترزعزع في العقيدة وانحراف عن الدين ، وأخيراً قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السابقة ، وذلك أمر طبيعي يجب أن يحدث كأمور طبيعية ، لا يحول دون حدوثه حسن النية أو القلق ورغبة الآباء والجدود والاحتياطات الفرعية والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل مواعده أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليه ، كما أن الشجرة إذا نشأت وتربت وفق نظامها الطبيعي تؤتي أكلها وتثمر في مواعدها ، أما الإنسان فبإمكانه أن لا يغرس شجرة ، ولا يسهر عليها بالتعاهد والسقي ، أو يعضدها إذا اكتملت وشبت ، ولكن ليس بإمكانه أن يقوم في وجه شجرة مثمرة خضراء أو يفرض عليها أن تثمر ثم شجر آخر .

تلك هي قصة نظام التعليم الغربي ، فإنه يحمل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه ، وهو نتيجة التقدم الطبيعي لآلاف السنين ، وتعبير عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فإذا ما طبق هذا النظام التعليمي في بلاد مسلمة أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج ذلك إلى ترزعزع العقيدة والردة الفكرية ، وأخيراً إلى الردة الدينية ، وذلك طبعي لكل من يستهدف لذلك (إلا من عصم ربك) وما أحسن ما كتبه أحد علماء الغرب الناقدين " الذي رزق قلباً سليماً وله خبرة واسعة لنتائج نظام التعليم الغربي في الشرق :

« لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأن الإسلام والمدنية الغربية - وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً - لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها ، خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام ؟

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك ، وإنما إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلوا الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين « المتنورين » الذين نشؤوا على أسس غربية ! »^(١).

ثم يقول وهو يتحدث عن أجزاء برامج التعليم الغربية المختلفة فيتحدث عن تدريس الآداب الغربية وتأثيرها في عقلية النشء الإسلامي : « إن تعليم الأدب الأوروبي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، ومثل هذا - ولكن إلى حد أبعد - يصدق على التعليل الأوروبي للتاريخ العام ، إذ لا يزال الموقف القديم فيه : « رومانيون وبرابرة » يظهر مجلاء ، ثم إن لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنه

يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الأوربيين إلى السيطرة وإلى القوة المادية» ^(١).

ويتكلم عن تأثير تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي فيقول .
 « أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث من غير الشعوب الأوربية فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة، وبماضيهم التاريخي الخاص وبالفرص السائخة لهم في المستقبل ، وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم ، اللهم إلا إذا كان مستقبلاً مستسلماً للمثل العليا الغربية » .

وأخيراً يقول بكل حماس وصراحة :

« وإذا كانت المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازع ما، إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة ، إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا أن نحترس من الجوفكري للمدينة الغربية ، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا ، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين إلى

الأخذ بوجهة النظر الغربية ، ان تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً الى تقبل الميل العقلي المصائب لذلك^(١) .

وقد تكهن بهذه النتيجة بعض مفكري الغرب الذين كانوا مسئولين عن تطبيق هذا النظام التعليمي في بلدان الشرق ، وقد كتب الكاتب الانجليزي المعروف اللورد ميكالي (Lord Macaulay) في تقريره ، وقد كان رئيس اللجنة التعليمية (عام ١٨٣٥ م) التي قررت جعل اللغة الإنجليزية أداة التعليم لأهل الهند بدلاً من اللغات الشرقية الأخرى إنه يقول :

« يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجمانا بيننا وبين ملايين من رعيئنا وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم ، وانجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير »^(٢) .

ويقرر المستشرق الكبير « جب » (Gibb) في كتابه « وجهة الإسلام » (Wither Islam) أن التجدد والتفرنح في الشرق إنما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الإسلامي الشرقي ، يقول :

« والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادئ الغربية ، وعلى التفكير الغربي ، والأساس الأول في كل ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادئ الغربية ، وعلى التفكير

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٧٢ .

(٢) تاريخ التعليم اؤله ميجر باسو ص ٨٠ .

الغربي .. هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره ، وقد رأينا المراحل التي مرت بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين ^(١) »

يلاحظ جب أن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين - من غير وعي منهم - أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله : « وذلك خاصة هو اللب الثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار ^(٢) » .

لقد كانت نظام التعليم الغربي محاولة عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه ، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم الممقوتة القديمة التي كانوا يؤثرونها في إبادة الأجيال والفتك بها إلى هذه الطريقة الجديدة التي قرروا صوغها في قالبهم ، فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والجامعات ، وقد عبر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير الشاعر الإسلامي « أكبر » الإله آبادي في أسلوبه الطريف الخاص ، انه يقول في بيته السائر :

« يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كانت ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحداث في التاريخ » .

كما أوضح الفرق بين ساسة الشرق والغرب في بيت آخر يقول :

(١) الجزء الثاني من المباحث الوطنية في الأدب المعاصر ص ٢٠٢ .

(٢) أيضاً ص ٧٠٤ .

« إن أهل الشرق يقضون على العدو بشدخ رأسه ، ولكن الغربي
يغير طبيعته وقلبه » ، وجاء إقبال بعده بعدة سنوات وقد اكتوى
بنار نظام التعليم الغربي شخصياً وخاض في دراسته ، فأبدى حقيقته
في أسلوب أكثر عمقاً وأبعد عن التنكيت والدعابة ، يقول :

« إياك وأن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه ، فإنه يستطيع أن
يقتل روح أمة بأسرها^(١) » .

إنه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذري الذي يحدثه
نظام المعارف الحديث بقوله :

« إن التعليم هو « الحامض » الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم
يكونها كما يشاء ، إن هذا « الحامض » هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة
كيميائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب^(٢) » .

إنه يرى نظام التعليم الغربي مؤامرة على الدين والخلق كما يقول :

« إن نظام التعليم الغربي ، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق
والمرءة^(٣) » .

إن إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم
الغربي فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاؤوا معهم بدرر
كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة ، وازدادوا
ثقة بنففسهم ، ولو كان من الصعب أن نحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم

(١) أرمغان حجاز

(٢) ضرب كلم .

(٣) أيضاً ص ٨٥ .

الغربي والفلسفة الغربية في قليل أو كثير ، وأن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنة وفهم السلف تماماً، ولكن الذي لا مزية فيه أنه لم ينصهر في بوتقة الغرب كما انصهر آلاف من معاصريه ، وحق له أن ينشد في هذه المناسبة شعره الذي معناه :

« كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت مكره ، التقطت الحبة وأفلت من شبكة الصياد ، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتي »^(١) .

أما شهادة الزعيم الإسلامي الهندي مولانا محمد علي عن التعليم الحديث وأثره فتحمل قيمة لا تنكر ، وقد تربى في بيئة مؤمنة دينية ثم بدأ دراسته في أكبر مراكز التعليم الغربي « الجامعة الإسلامية في عليكره » في الهند ، إنه يقول في ترجمة حياته :

« لقد كانت الحكومة البريطانية تحمل لواء الحياد الديني الكامل ، فقد أقصت دراسة مادة الدين حتى دراسة الأخلاق تماماً من الكليات ، وطبقت هذه السياسة التعليمية عملياً في ذلك ، ولم يبق من المعلومات الدينية والخلقية إلا ما يتلقفه الطلاب بأنفسهم من الكتب الانجليزية أو الكتب الدراسية المؤلفة بلغات الشرق .

كما أن نظرية التعليم التي وضعتها الحكومة للشباب الهندي كانت

« حديثه » وكانت تهدف بجميع ما فيها من عوامل هدامة إلى أن يتردى في الطالب شعور خاطيء بعلمه وكبريائه ، يقضي على قداسة الرواية والحجة والاسناد بأوهامه التي يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون ، وما لا شك فيه أن هذا التعليم سبب إثارة دافع التحقيق والبحث عن الحقيقة مع مسيرته للزمان ، غير أنه كان هداماً في حملته على الديانة والأخلاق ، أما ما أعطاه بدلاً مما قضى عليه من « الأوهام الدينية » (كما يقول الغرييون) فلا يقوم أيضاً إلا على أساس من الأوهام والعقائد الخرافية ، ولكن هذه الثقافة التي يتزود بها الطالب كانت حديثة لا شك^(١) .

إن مؤلف « الإسلام في التاريخ الحديث » (W : C : Smith) الذي يحمل معلومات جديدة حول نزعات العالم الإسلامي وطبقاته المختلفة يعترف بالتأثير العقلي العميق الذي يتركه التعليم الغربي الحديث ومراكزه في العالم الإسلامي ، إنه يقول وهو يتحدث عن حركة التنور والتسامح في العالم الإسلامي (Liberalism) :

« إن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها في أوروبا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، وهكذا شأن نهضة أوروبا وتقدمها ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها إلى حد ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوروبا بعدد

لم يزل يزداد مع الأيام ، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامي ، وقد حازت، قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث، وكان مما صدره الغرب إلى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجة والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد ، ومنها ما يسلط إجباراً ، وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر، إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وأنتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة ، وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين^(١) .

لقد جرف تيار نظام التعليم الغربي الشباب الإسلامي في البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغير عقليتهم إلى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تسيغ الإسلام الصحيح ، وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الإسلامي أيضاً ويصبحون جزءاً منه ، ويشير إلى ذلك « إقبال » بقوله :

« إن سحر الافرنج أو فنه أذاب الصخور وأساها ماءً » .

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة والحكم،
 والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ، ونظرية فصل الدين
 عن الدولة ، والاعتقاد بأن الدين عائق في سبيل النهضة والاكتشافات
 والتحقيق ، وإقامة علماء الإسلام في صف ممثلي الكنيسة المسيحية الذين
 كانوا يملكون السلطة المطلقة في العصور المتوسطة ، وإعطاء المرأة حق
 الإسهام في جميع أمور الحياة في كفاحها والخروج مع الرجل متكاتفه
 متساوية ، وجعل الحجاب - في أي شكل كان - تذكراً لنظام الحرم
 القديم في الشرق وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، والقضاء عليه خطوة
 أولى نحو الإصلاح والتقدم ، والاعتقاد بأن قانون الوراثة والنكاح
 والطلاق اجتهاد فقهاء المسلمين في العصور المتوسطة ونتيجة طبيعية
 للمجتمع البدائي المحدود الذي وجد في القرنين السابع والثامن الميلاديين،
 وإدخال التغيير والإصلاحات في ذلك المجتمع وصوغه في قالب المجتمع
 الغربي بتطبيق المبادئ الغربية ومعاييرها عليه، فريضة الساعة وواجب
 الوقت، وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر، وعن العلاقات الجنسية
 المنطلقة ، والإيمان بالقومية والاندفاع نحو إحياء الحضارات القديمة
 واللغات العتيقة ، والإيمان بأهمية الخط اللاتيني وفوائده ، كل هذه
 النزعات والاتجاهات وما أشبهها التي تحتل محل الحقائق الثابتة لدى
 الجيل المثقف ، وتعد من أمارات التنور والنهضة والتقدم ، كل ذلك
 نتيجة نظام التعليم الغربي وبيئته الفكرية وجوّه العلمي والعقلي وتراثه
 التاريخي ليس غير .

إن القادة وولاة الحكم في البلاد المسلمة ، كلهم إنتاج نظام التعليم الغربي ووليد حضارته ، أما الذين لم يتح لهم أن يتثقفوا في بلد أوربي وينشؤوا في بيئته فإنهم تعلموا في مراكز هذا التعليم في بلادهم ، وتثقفوا بها تحت إشراف ممثليه الكبار ورقابتهم ، إن بعضهم تخرجوا من الكليات الحربية التي يعنى فيها بالتعليم الغربي والتربية الغربية عناية فائقة .

وذلك هو السرُّ في أن العالم الإسلامي اليوم يتأرجح بين عقليتين وفلسفتين ووجهتين مختلفتين تتصارعان دائماً ، وهذا الصراع ينتهي في أغلب الأحوال بانتصار فئة هي أكثر قوة وأكثر تسليحاً ، إنه صراع طبيعي ، وهو إن استحق الأسف فلا يستحق الاستغراب أبداً ، بل كان موضع الدهشة والاستغراب إذا لم ينشأ هذا الصراع ولم توجد هذه النزعة إلى التجدد و « التعريب » .

حل المشكلة :

وحل هذه المشكلة - مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة - ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليمي صوغاً جديداً ويلأئم بعقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها ، ويخرج من جميع مواده روح المادية والتمرد على الله ، والثورة على القيم الخلقية والروحية وتعبد الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلها ، فمن اللغة والأدب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة لا تسيطر إلا روح واحدة ، يقصى استيلاء الغرب العقلي ويكفر بإمامته وسيادته ،

وتجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة^(١) ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعة وحرية وتعتبر كموا د خامة (Raw material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا .

إن هذا العمل ولو كانت في طريقه عقبات وعراقيل ولو تأخرت نتائجه ، ولكنه حل وحيد للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد والتغرب التي تتحدى الكيان الفكري للإسلام وجهازه الاجتماعي، وظلت تهدد حياته وبقائه، ونتيجة لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة وتضحياتها وجهودها وإخلاصها ووفائها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيقياً في نار التجدد والتغرب ، وأصبحت الجماهير المسلمة السليمة المخلصة المتحمسة الصامدة قطعاناً من الغنم يحكم في رقابها هؤلاء القادة والولاة وتساق إلى أي هدف في صمت وهدوء .

لقد كان السير في نجاح الحكم الانجليزي في الهند واستمراره طبقة الضباط والموظفين الكبار، والحكام الذين ربوا تربية غربية خالصة

(١) إن كتاب « القرآن والعلم الحديث » للدكتور رفيع الدين غودج لهذا الأسلوب ، كما توجد هذه الدراسة الجريئة والفد الحرفي كتاب « الاسلام على مفترق الطرق » للاستاذ محمد اسد ، وكتاب « تنقيحات » بالأردية و « الحجاب » للاستاذ أبي الأعلى المودودي ، و « المدالة الاجتماعية في الاسلام » لسيد قطب .

ونشأوا على الطاعة والنظام ، إنهم وضعوا نظام هذه البلاد ، ومارسوه مائة سنة حسب رغبة ولائهم الأجانب وفكرتهم وثقافتهم ، فالطريق إلى تغيير اتجاه البلاد الإسلامية والعودة بها إلى الحياة الإسلامية أن يهتم بتعليم هذه الطبقة الإسلام وتربيتها على أسس الإسلام ، فإنها الطبقة التي تتحكم في البلاد ، وأن نصلح نظام التعليم الذي يخرج هؤلاء الأشخاص !

هذا التغيير الجذري لنظام التعليم وتكوينه الإسلامي أمر لا غنى عنه ، ولكنه يحتاج إلى وقت طويل ويحتاج إلى مواهب ومؤهلات عظيمة ووسائل كثيرة .

إن أمر الجيل الجديد غير قابل للتأخير ولا ليوم واحد ، وقبل أن يتحقق هذا النظام وينقلب منهاج التدريس رأساً على عقب نستطيع أن نؤثر في عقول الشباب وأبناء الجامعات بإنشاء دور إقامة إسلامية (Muslim Hostels) يقيم فيها الطلبة المسلمون ، ويهتم فيها بغذائهم الروحي والفكري ، وتربيتهم الإسلامية ، إن دور مساكن الطلبة وتأثيرها على حياتهم وسيرتهم ، وميولهم وترعاتهم ظاهر جلي للذين جربوا هذا الجيل الجديد وعرفوه عن كثب .

إن الكليات الإسلامية العصرية (التي نالت من عناية الأمة وأموالها قسطاً كبيراً) قد فقدت حيويتها ونشاطها في أغلب الأحوال لتغير الأوضاع ، أما تأسيس دور الإقامة (Boarding Houses) للشباب المسلم

المتعلم في الجامعات فإنه لا يحتاج إلى عناء كبير ، وفيها فوائد كثيرة ، وفي البلاد التي أفلت فيها زمام التعليم عن يد القادة والزعماء تستطيع هذه المساكن أن تهيب الجو الصالح لصيانة الشباب الخلقية وتربيتهم الدينية والفكرية ، وبإمكانها أن تنقذ عدداً كبيراً من النفوس البريئة السعيدة من هذه البيئة الموبوءة المفسدة ، وسموم معاهد التعليم وأضرارها^(١) .

إن إنشاء أروقة للطلاب ليست حاجة البلاد الإسلامية فحسب بل هي حاجة البلاد الغربية التي يؤمها الشباب المسلم الذين هم عصارة الأمة وزبدتها في الذكاء والحيوية والنشاط ، والذين قدرت لهم قيادة البلاد الإسلامية أو المناصب الهامة فيها لأجل مواهبهم الفكرية وإطلاعهم على العلوم الغربية وسياستها واتصالهم بها ، فإذا قمنا ببعض الواجب في إصلاح هذه النزعات وتغيير تلك التيارات وتكوين الفكر الإسلامي في هذه المراكز والحصون العلمية ونجحنا في إعادة ثقتهم بالإسلام ومستقبله ، استطعنا - بفضل الله وحوله - أن نحدث بهذا العمل الصامت - عاجلاً أو آجلاً - ثورة صامتة في البلاد الإسلامية، التي يقودها هؤلاء الشباب .

إن هذه الطريق أسلم الطرق والأساليب والتجارب التي تمر بها هذه البلاد الإسلامية اليوم مباشرة .

(١) إن أول من دعا إلى هذه المكرة هو الشيخ مناظر أحسن الكيلاني وتزعم حركتها ولوامها اليوم الأ - تاذ الكبير عبد الباري الندوي الذي لا يزال يكتب ويؤلف ويلفت إلى ذلك أنظار المسلمين .

المستشرقون ونفوذهم في ميدان التفكير :

المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ، ويملكون إعجاب الأوساط العلمية في الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها ، ويقام لآرائهم ونظرياتهم في البحوث الإسلامية في الشرق وزن كبير. أثاروا في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه — ممن تتقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى أو درسوا الإسلام بلغات الغرب — شبهات حول الإسلام ونبي الإسلام والمصادر الإسلامية ، وأحدثوا في نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لهم سهواً كبيراً في الحث على نعمة « إصلاح الديانة » و « إصلاح القانون الإسلامي » .

إن تاريخ هذا الاستشراق قديم يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي بالوضوح ، والعوامل التي كونت هذا التاريخ إنما هي دينية وسياسية واقتصادية ، أما العامل الديني فواضح لا غموض فيه ، وهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها ، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها على الإسلام ، ويبعث في الطبقة المثقفة إعجاباً بالمسيحية وحرصاً عليها ، ولذلك نرى أن الاستشراق و « التبشير » يسيران معاً في أغلب الأحوال ، وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة ، وعدد كبير منهم يهود ديانة وجنساً .

والعامل السياسي هو أن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول

الغربية في الشرق ، ومن واجبهم أن يدوها بمدد العلمى ، وكانوا مصادر مؤكدة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات عن تقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق ، وعن طبيعتها ومعيشتها ، ولغاتها وآدابها ، حتى عواطفها ونفسياتها ، وذلك ليتسنى للغرب أن يبسط نفوذه وسلطته في الشرق .

وزد إلى ذلك ما يقوم به هؤلاء المستشرقون من الرد على الأفكار والعقائد وفتح الحركات والأوضاع التي تسبب للدول الغربية صداماً وعرقلة ، وتحدث لها مشكلات وعقبات ، ويحاولون خلق جو لا تكاد تخطر فيه معارضة ، بل تحدث حالة من التقديس والاجلال حول حضارتهم ، حتى يعترفوا بآثرهم وجلائل أعمالهم ينبعث فيهم دافع الاقتداء والتقليد الذي يحملهم على الاقتفاء بآثارهم في سبيل إصلاح البلاد وترقيتها ، وتظل سلطة حضارتهم وعقليتهم مضمونة على النفوس رغم ذهاب دولهم ونهاية حكمهم .

ولذلك فقد شعرت الدول الغربية بقيمة المستشرقين ومكانتهم شعوراً كاملاً وساعدهم زعماءها عن كل طريق ممكن ، ولتحقيق هذا الغرض يصدر المستشرقون من مختلف أقطار الغرب عدة مجلات ورسائل حول العالم الإسلامى ، ينشرون فيها مقالات تحليلية ومواد تحقيقية تبحث عن مشكلات العالم الإسلامى وميوله ونزعاته ، ولا تزال تصدر مجلة «الشرق الأوسط» (Journal of Near East) ومجلة «العالم الإسلامى»

(The Muslim World) من أمريكا ، ومجلة (Lemond Musalmans) من فرنسا .

كما أن هناك عاملاً اقتصادياً للإستشراق يتخذه كثير من المثقفين كمهنة ناجحة ، وكثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة في أوروبا وآسيا، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار ، كثيرة الذبوع ، وهي لا شك وسيلة لتجارة رابحة وكسب أموال خطيرة .

غير أن عدداً من المثقفين يتبنون موضوع الشرقيات والإسلاميات دون تأثير هذه العوامل ، وبمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم ويبدلون فيه جهوداً ضخمة، يكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها ، وبفضل جهودهم برز كثير من نواذر السلم والمعارف التي لم تر الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة ، وأصبحت مصنوعة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة ، وكلم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم ، وقرت بها عيون العلماء في الشرق .

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لا يمنع الكاتب شيء من أن يصرح أن طائفة المستشرقين هي التي لم يرافقها التوفيق الإلهي في غالب الأحيان على ما درسته من علوم القرآن والسنة والسيرة النبوية والفقه الإسلامي والأخلاق والتصوف ، وغاصت في أحشائها ولكنها خرجت

صفرة اليد لا حظ لها من الإيمان واليقين، بل وزادت الفجوة بينها وبين هذه العلوم لما أضمرته في قلبها من عداوة للإسلام وبعد عن الحق وأكبر سبب لذلك هو أن ثمة الأعمال تابعة لغايتها وهدفها ، والعلوم أن غاية هؤلاء المستشرقين بوجه عام إنما هي البحث عن مواضع الضعف وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية ، فلا يرون في مدينة ذات بهجة إلا المزابل والمراحيض ، كما هو دأب مفتشي النظافة في كل مكان .

وليس حرمان هؤلاء المستشرقين محدوداً إلى ذواتهم فحسب ، ولو كان ذلك وحده لم ينل منا هذا الاهتمام، ولكن الناحية المهمة ذات التأثير العميق لهذه القضية هي أن المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف وتمثيلها في صورة مروعة مضخمة ، إنهم ينظرون إليها عن طريق الآلة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلاً والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حداقتهم وذكاؤهم في تشويه صورة الإسلام .

ومن دأبهم أن يعينوا لهم غاية ويقرروا في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقوموا لها بجمع معلومات - من كل رطب ويابس - ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم .

إنهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ويجودون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن ، وذلك كي يخشع القارئ أمام سعة قلبهم وسماحتهم ويسيع ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن ، إنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية ، وتاريخها ، وعواملها الطبيعية بلباقة وبلاغة تصوران أن هذه الدعوة والشخصية لم تكن لإنتاج هذه البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعي ، فينكر القارئ أي اتصال بمصدر غير مادي ولا يعترف لهما بقداسة وعظمة ، وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » ويحترسون في ذلك فلا يزيد من النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارئ ولا يثير ذلك فيه الحذر ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارئ من كتابات المؤلفين الذين يكشفون العداء ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها .

لقد قام المستشرقون بعملية التحقيق في كل موضوع من مواضع الكتاب والسنة والسيرة النبوية ، والفقه والكلام كما تحدثوا عن الصحابة الكرام والتابعين والأئمة المجتهدين ، والمحدثين والفقهاء ، والمشائخ والصوفية ، ورواة الحديث ، وعن فن الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال ، وحجية السنة ، وتدوينها ، ومصادر الفقه الإسلامي وتطوره في أسلوب لا يخلو عن التشكيك وإثارة الشبهات ويكفي لزعة العقيدة والترغيب عن الإسلام لرجل ذكي ليس له نظر عميق في هذا الموضوع ،

ولسنا الآن بصدد استعراض علمي وإيضاح تحريفاتهم وأخطائهم الفنية ودجلهم وتلبيسهم ، فإنه لا شك موضوع علمي مهم ، وخدمة دينية عظيمة ، تحتاج إلى مجمع علمي منظم .

ويكفي أن تقدم الآن ملخصاً لدعوتهم وتربيتهم - بغاية إيجاز - التي يعرضونها على قرائهم المثقفين والشباب الناهض مراراً وتكراراً بعنوانين مختلفة وتسيغها عقول هؤلاء الشباب كحقيقة بديهية معقولة ، ولما أن هذه الدعوة والترقية لها صلة قريبة بحركات الإصلاح والتجديد في الأقطار الإسلامية ، ولا يمكن فهمها والاطلاع على حقيقتها بدون ذلك تقدم في هذه المناسبة ذلك الملخص مقتطفاً من كتاب العالم المصري الدكتور محمد البهي الذي جمعه في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث » ، يقول :

١ - إن المجتمع الإسلامي ، في صلته بالإسلام لم يكن على نحو قوي إلا في فترة قصيرة ، هي الفترة الأولى على عهد بدائية المجتمع الإسلامي ، وبدائية هذا المجتمع هي التي أوجدت نوعاً من التلاؤم بين الحياة فيه وتعاليم الإسلام ، ثم بعد مضي هذه الفترة القصيرة البدائية اتسعت الفجوة بين الطرفين ، بين المجتمع والإسلام ، كمصدر توجيه في الحياة ، وكما تطورت الحياة للمجتمع الإسلامي بفعل العوامل الخارجية ، الثقافية والسياسية ، والاقتصادية ، كلما تخلف الإسلام عن أن يجاري تطور الحياة لهذا المجتمع ، وما زالت الفجوة تتسع حتى أعلنت تركيا الحديثة - مقرر آخر خلافة إسلامية - إبعاد الإسلام عن مجال الحياة العامة ،

وتركه في ضمير الفرد مستورا، لا يعبر عنه الفرد إلا لنفسه فقط، وفي غير إعلان أو حماس .

٢ - إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الإسلام، تملية الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التي لم يستطع الإسلام أن يكييفها في ضوء تعاليمه ، ولم يستطع أن يلائم بين تعاليمه وبينها ، والتشدد في تطبيق تعاليم الإسلام معناه إذن : العزلة في الحياة ، والتخلف في استخدام وسائل الحضارة ، والترحيب بالفقر ، والمرض والجهل ، للسكان المسلمين على نحو ما هو الحال ببلاد المملكة العربية السعودية إذ هي البلد الوحيد بين بلاد الإسلام التي جعلت الحكومة الرسمية تعبيراً عملياً عن الإسلام ، وإذن هي النموذج في تطبيق الإسلام .

٣ - إن التطور ، وهو قانون الحياة العام الذي لا مفر من الخضوع له ، يجب أن يستخدمه المسلمون في إسلامهم ، ليسا يروا العالم الغربي الحديث ، ولينجوا من أسباب الضعف والفساد ويجب لهذا أن يتطوروا بالإسلام نفسه كدين .

الجماعة الإسلامية - كي تتطور - يجب أن تسير وفق المثل الغربية وتتفاعل معها في بيئتها الشرقية ، إذ اتجاهات الغربيين في الفكر ، وفي الحياة ، قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية ، واستخدموا في تكوينها الطريقة «العالمية» وهي الطريقة التي لا تتأثر بخرافة أو عقيدة خاصة ، مستهدفة خير الإنسانية وحدها .

وقد شعر المستشرقون بعد تجربة طويلة امتدت نحو قرنين أن

الطريقة التي مارسوها في تطوير عقلية المسلمين وتسييرها وفق المثل الغربية والاتجاهات المادية لم تنجح حق النجاح ، وعثروا من الخطأ الأساسي الذي سبب لهم بعض الاخفاق وجعل جهودهم لم تثمر كل الأثمار ، بل قد واجهت بعض الأحيان رد فعل عنيف من الأوساط الإسلامية كان خطراً كبيراً من وجهة نظر الدعوة التبشيرية، فما زالوا يستعرضون جهودهم ونتائجها وتأثيرها في ضوء التجربة والواقع حتى توصلوا إلى أن يحدثوا في طريقتهم وأساليب دعوتهم تغييراً أساسياً ، وذلك بأن يقدموا للإسلام تعبيرات جديدة ويدعوا إلى حركة إصلاح الديانة بدلاً من أن يغيروا عقلية المسلمين ويقوموا بتطويرها ، وأن تنال جميع حركات التجديد وإصلاح الديانة حيثما وجدت تشجيعاً وتأييداً منهم

ويدل على هذا التغيير في العقلية، والطريقة الجديدة التي ابتكروها العبارة التالية التي نقتطفها من كتاب (Towards Understanding Islam) للكاتب (Harry Gaylord Dorman) يقول :

« يتوقع من المبشرين في الأقطار الإسلامية في ظرف عدة أعوام أن تثمر جهودهم في تجديد الإسلام وتطويره أكثر من تطوير عقلية المسلمين وتغييرهم ، ومما لا شك فيه أن هذا مجال واسع مفتوح للعمل لا يغفل عنه في أي حال » .

✓ ولو تأملنا قليلاً ظهر أن حملة لواء الإصلاح والتقدم (قادة التجديد والتغريب) الذين نشؤوا في العالم الإسلامي في ظرف نصف قرن مضى ، تتجلى في أفكارهم وآرائهم وأساليب حياتهم روح هؤلاء المستشرقين

ودعوتهم وتربيتهم، حتى نستطيع القول بأن أفكار المستشرقين إنما هي أساس تفكير هؤلاء القادة ومبدأ عملهم .

إن هؤلاء المستشرقين إنما أضعفوا مثل الإسلام وقيمه العليا في جانب ، وأثبتوا تفوق المثل الغربية وعظمتها في جانب آخر ، إنهم فسروا تعاليم الإسلام تفسيراً يضعف قيمة القيم الإسلامية ، ويضعف علاقة المسلم المثقف بالدين ويقع فريسة الارتياح والشك بالإسلام ، أو يضطر إلى الاعتراف بأن الإسلام لا يتفق وطبيعة الحياة الحاضرة، وإنما هو عاجز عن مسايرة حاجات العصر ومقتضياته ، وبينما يقول هؤلاء المستشرقون: إن من التشبث بالتقاليد والعض عليها بالتواجد والرجعية أن يعمل الإنسان بالإسلام - الذي هو دين الله المختار الخالد - في هذا العصر الراقى المتقدم المتطور بسرعة وفي استمرار ، إذا هم يدعون الناس إلى إحياء الحضارات العتيقة الغارقة في التاريخ القديم ، وإحياء اللغات البالية التي فقدت كل صلاحيتها للبقاء ، ودفنت تحت أنقاض الماضي السحيق منذ آلاف السنين ، ولم يكن الغرض بمثل هذه البرامج إلا أن يضطرب حبل المجتمع الإسلامي وتتمزق وحدة الإسلام، وتواجه الحضارة الإسلامية واللغة العربية ضرراً ، وتنال الجاهلية القديمة حياة من جديد ، وقد نجحت كتاباتهم وجهودهم في إنشاء طائفة من تلاميذهم الذين قاموا بحركة إحياء الحضارة الفرعونية ولغتها في مصر، والحضارة الآشورية ولغتها في العراق ، والبربرية في أفريقيا الشمالية والفينيقية في سواحل فلسطين ولبنان ، ووجد لها دعاة وأتباع .

يقول جب في كتابه (وجهة الإسلام) :

« وقد كان من أهم مظاهر فرجة العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات، القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن ، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي أندونيسيا وفي العراق وفي إيران ، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوربا ، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دوراً مهماً في تقوية الوطنية الشعبية وتدعيم مقوماتها » - (ص ٣٤٢) .

ويقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) معلقاً على دعوة الفرعونية في مصر التي نشطت في مصر في أوائل هذا القرن :

واجتاحت مصر موجة من الفرعونية محاول أن تغزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية، وترعمت صحيفة «السياسية الأسبوعية» هذا الاتجاه الجديد، فافسحت صدرها لدعايته ، وأعان عليه رئيس تحريرها محمد حسين هيكل في شطر كبير من حياته^(١) .

أولئك هم المستشرقون وتلاميذهم الذين بدأوا يقولون بكل قوة : إن لغة القرآن العربية الفصحى إنما هي لا تسائر حاجات العصر ، فيجب أن تعم اللغة العامية حتى تصبح لغة الجرائد والمؤلفات ، وقد تكررت منهم هذه الدعوة بصورة شائعة جذابة كسبت تأييد المثقفين في مصر وأوقفتهم بجانبها ، وقد عنيت حكومات الاحتلال وبعيدوا النظر من الولاة المستعمرين والمفكرين الغربيين بهذا الموضوع عناية

فائقة، ونشطوا في تحبيب هذه الفكرة وترويجها، وقد كان لهذه الدعوة دوي في مصر في فجر هذا القرن أفزع كثيراً من المحبين للإسلام والغيارى على اللغة العربية ، يقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه :
« الاتجاهات الوطنية » :

« ثم هاجت المسألة مرة أخرى في أوائل سنة ١٩٠٢ حين ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية في مصر من الانجليز - وهو القاضي ولمور - كتاباً سماه لغة القاهرة ، وضع لها فيه قواعد، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب ، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وتنبيه الناس للكتاب حين أشاد به « المقتطف » في « باب التقريظ والانتقاد » ، فحملت عليه الصحف ، مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لا تقصد إلا إلى محاربة الإسلام في لغته ، وفي ذلك الوقت كتب حافظ قصيدته المشهورة ، التي يقول فيها ، متحدثاً بلسان اللغة العربية^(١) :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي

وناديت قومي فاحتسبت حياتي الخ

ويقول في موضع آخر :

« وثارت المسألة من جديد ، حين دعا إنجليزي آخر ، كان مهندساً للري في مصر - وهو السير وليم ولكوكس - سنة ١٩٢٦ إلى هجر اللغة العربية ، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية، فترجم الانجيل إلى ما سماه

« اللغة المصرية » . ونوه سلامه موسى بالسير ولكوكس وأيده، فثارت لذلك ثائرة الناس من جديد ، وعادوا لمهاجمة الفكرة ، والتنديد بما يمكن وراءها من الدوافع السياسية، ولكن الدعوة استطاعت أن تجتذب نفراً من دعاة الجديد في هذه المرة ، فاتخذوا القومية والشعبية ستاراً لدعوتهم ، حين كان لمثل هذه الكلمات رواج ، وكان لها بريق خداع يعشي الألبصار، وحين كان الناس مفتونين بكل ما يحمل هذا العنوان في أعقاب ثورة شعبية تمخضت عن «الفرعونية»، وحين كانوا يتحدثون بما صنع الكماليون من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وترجمة القرآن للغة التركية وإلزام الناس بالتعبد به ، وتحريم تدريس العربية في غير معاهد دينية محدودة وضعت تحت الرقابة الشديدة وقد مضوا من بعد في مطاردة الكلمات العربية الأصل ينفونها من اللغة التركية كلمة بعد كلمة^(١) .

ولو نجحت هذه الدعوة لانتجت توزيع اللغة العربية بين لغات شتى، وانقطاع صلة العرب عن القرآن والأدب الإسلامي، وسبب للغة العربية أن تصبح لغة غريبة لهم ، وتفقد مكانتها الدولية ، ويحرم العرب كلهم تراثهم الديني وروحه فيقعوا فريسة الإلحاد والردة والخلافات والاضطرابات بكل سهولة .

كما أنهم دعوا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية ،

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٢٣٦ .

وأثبت تلاميذهم ضرورته من حين لآخر، وجهرُوا بذكر فوائده وفضله، ووقع ذلك فعلاً في مصر كنانة الإسلام وحصن العربية، يقول الأستاذ محمد محمد حسين :

« تقدم عضومن أبرز أعضاء المجمع العلمي المصري وهو عبد العزيز فهمي - ثالث الثلاثة الذين بني عليهم الوفد المصري - في سنة ١٩٤٣ باقتراح الكتابة العربية بالحروف اللاتينية، وشغل المجمع يبحث اقتراحه عدة جلسات، امتدت خلال ثلاث سنوات، ونشر في الصحف، وأُرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تفسير الكتابة العربية^(٢) » .

والمعلوم أن ذلك لا ينتج إلاّ حرمان الأمة العربية وجعلها بقراءة القرآن على وجه صحيح، وفقدان التراث العلمي - الذي لا يوجد له نظير في سعته - قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نعرف هدف المستشرقين ومدى أفكارهم ودقة نظرهم في تحقيق غرضهم وعداءهم للسافر للإسلام بهذه الاقتراحات والتوصيات الآنفة الذكر، وإن مؤلفات أغلبية هؤلاء المستشرقين تستأصل أسس الإسلام وتشكك في مصادره بما فيها الفقه والحديث، وتحدث جو الاضطراب الفكري والارتباب في المجتمع الإسلامي، وتبذر في القلوب بذور الشك والريبة في تفقه حملة الإسلام وذكائهم (الفقهاء والمحدثين)

وقد تحمل مؤلفاتهم من الأخطاء العلمية الفاحشة وسوء الفهم ، وعدم الرسوخ في اللغة وقواعدها ومن التحريف والتدوير ما يدعو إلى الضحك والعجب ، ولكن أكثر مؤلفاتهم نالت قبولا عاما في الشرق والغرب ، وأثارت إعجابا في الطبقة المثقفة الحديثة (وفيها عدد من المثقفين الناضجين) بحسن ترتيبها ، والاستنباط الدقيق للنتائج ، وطريقة عرضها العلمي ، وهي طبقة لا تشفي غليلها مؤلفات علماء الشرق الأقحاح .

ولكي نعرف المكانة التي يحتلها علماء الغرب والثقة التي ينالونها في الشرق يجب أن نعلم أن المجامع العلمية الثلاثة في الشرق الأوسط أعني المجمع اللغوي في مصر ، والمجمع العلمي العربي في دمشق والمجمع اللغوي العراقي في بغداد لكل واحد منها عدد وجيه من الأعضاء المستشرقين الذين يستفاد من آرائهم ودراساتهم .

ومما يدل على ضعف العالم الإسلامي والعربي وفقر وسائلها العلمية أن هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الإسلامية الخالصة منذ زمن بعيد ، وهي مؤلفات تحتل مكانة « الكتاب المقدس » (Gospel) في موضوعها ، فإن كتاب ر . أ . نكلسن ، (R . A . Nicholson) في موضوع تاريخ آداب العرب (A Literary History) وكتاب الدكتور هتي (Dr H.P. Hitti) عن تاريخ العرب والإسلام (History of Arabs) وكتاب كارل بروكلمان (Carl Brocklemann) في تاريخ الآداب العربية (Geschichte der Arabischen Literatur) باللغة

الألمانية وترجمتها إلى الإنجليزية باسم (The History of Arb Literature)
 وكتاب شاخت (Schacht) في مصادر الفقه الإسلامي باسم :
 (The Oregins of Mohammadans Jurisprudence)

كل ذلك مما ينفرد في موضوعه، ويعد مصدراً علمياً له أهميته وقيمه
 بجامعة الشرق في قسمها العربي والإسلامي، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين
 في الأقسام الإسلامية في الجامعات .

إن « دائرة المعارف الإسلامية » التي ألفها المستشرقون (ولو كان
 فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل) وصدرت منها طبقات متعددة في
 أوروبا وأمريكا، تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية، وأثنى
 ذخيرة لها ، وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم (كمصر وباكستان)
 أساساً للمعلومات الإسلامية وتقوم بترجمتها إلى العربية والأردو .

ولسد تأثير المستشرقين الهدام ، وإصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم
 علماء الإسلام من رجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات
 العلمية، ويقدموا للعالم الإسلامي المعلومات الإسلامية المؤكدة، ووجهة
 نظر الإسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التي يمتاز بها
 المستشرقون بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم ومؤلفاتهم
 ممتازة من حيث اصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر وتأكد
 المصادر وصحتها ، واستدلالها القوي بالنسبة لكتابات المستشرقين
 ومؤلفاتهم ، وأن تكون حاملة لجميع نواحي الاستحسان بعيدة عن
 الأخطاء والنقائص العلمية .

ومما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء المفكرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع ، حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم، وأخطاءهم في فهم النصوص وبيان المعنى ، ويبدو للناس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها، ويطلعوا على ما يضمرون في نفوسهم من عداة للإسلام وما يكونونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا دعوتهم وتربيتهم ، وكل ذلك مؤامرة على الإسلام والأمة الإسلامية يجب إحباطها .

أما بدون الجمع بين هذا العمل الإيجابي الذي يقتضي تأليف كتب تحليلية وأبحاث عميقة حول المواضيع الإسلامية ، وبين العمل السلبي (بالمحاسبة العلمية) فلا تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة ، تلك الطبقة التي تعد من أذكى الطبقات في العالم الإسلامي وأكثرها طموحاً ، والتي تدرس في جامعات أوروبا وأمريكا الكبرى أو في جامعات بلادها ، وتحب دراسة الإسلام بلغات الغرب التي تتقنها ، وما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة التي ترزخ تحت تأثير أفكار الغرب وعلماءه من تأثيرهم لا تزال تواجه الأقطار الإسلامية عاصفة الاضطرابات العقلية، والردة الفكرية، ويتبنى حملة لواء التجديد والتغريب ، أفكارهم وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية حاولوا تطبيق كل ما ينافي روح الإسلام على المجتمع وتنفيذه في الحكم، ويشكلون بذلك مجتمعاً يشبه المجتمع الإسلامي القديم في الجنس والقوم فحسب ، ولكنه يتجه نحو الغرب والمادية في الحقيقة والواقع ، ويصح عند ذاك أن يخاطب قادة العالم الإسلامي وعلماءه بهذا البيت الفارسي الذي معناه:

مهلاً أيها الأعرابي فإن الطريق الذي اخترته يذهب بك إلى تركستان ،
وأنت تريد الكعبة !

تخلف العلوم الإسلامية وركود الفكر الإسلامي :

ومن العوامل التي أثرت في انسياق الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي وقادته - الذين بيدهم أزمة الحكم - مع الحضارة الغربية وبعدهم عن الدين وانصرافهم عنه ، ذلك الجحود العقلي والركود الفكري الذي يطرأ على مراكز العلوم الإسلامية وعلى علمائها من مدة طويلة ، ومن أجل ذلك عجزت هذه العلوم الحافلة بالحياة والروح ، الصالحة للنمو والازدهار عن إقامة برهان على صلاحيتها التي تتدفق بها ومسائرتها مع الحياة المتطورة ، وذلك في عصر كانت حاجتها إلى ذلك أشد وأعظم من حاجة كل عصر .

وقد كان المنهج القديم للدراسات الإسلامية في العصر الماضي يتطور بين حين وآخر يساير الحياة ومطالبها ، ولم تكن هناك ثورات ولا انقلابات إلا نادراً ، ولم يكن في وضعها فرق جوهري ، وإنما كانت تلك الثورات عبارة عن تبادل الشخصيات والأسر الحاكمة ، ولكن واضعي المنهج التعليمي في ذلك العصر وزعماء الحركات العلمية في العالم الإسلامي آنذاك كانوا يقومون بتعديلات مستمرة في المناهج تشهد بذكاءهم واعترافهم بالواقع .

ولما جاء القرن الثامن عشر الميلادي الذي لم تكن فيه انقلابات الأسر

والشخصيات الحاكمة ، وإنما كانت ثورة حضارية واتقلاباً شاملاً فزالت حضارة وجاءت حضارة أخرى وذهبت قيم وحلت محلها قيم أخرى ، وأصاب المنهج الدراسي جمود لم يسمح له التجاوز عن خطه المرسوم ، وأبى كل تعديل أن يقبله ، وظهر إلحاح شديد على البقاء على الخط القديم والأسلوب الذي اختاره المتقدمون في وضع المنهج الدراسي في عصورهم ، ومن بينهم الشيخ نظام الدين اللكنهئي مؤسس « الدرس النظامي » (م ١١٦١ هـ) في الهند ، وعلماء الأزهر في القرن الثامن عشر في الشرق الأوسط ، فقد أغلق باب الاجتهاد ، ووقف توسيع نطاق الفقه الإسلامي في القضايا والمشكلات الجديدة التي خلقتها الحضارة الحديثة والاكتشافات الجديدة ، وبالرغم من أن الاجتهاد بشروطه الضرورية كان فريضة علماء الإسلام ووسيلة لتبليغ رسالة الإسلام إلى العصر المتطور أصبح مقفل الباب مسدود الطريق ، كما صور ذلك أحد^(١) علماء العرب المعاصرين بعبارة إذ قال : « فباب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح في نظرهم بل هو مفقود المفتاح » .

إن أساليب البيان وطرق التعبير الآسرة للقلوب التي كانت خاصة العلوم الإسلامية ومعارف القرآن وشريعته كانت مفقودة أو كادت ، وذلك في عصر تجدد فيه التعبير وأساليب البيان ، كما ندر وجود العلماء النوابغ الذين يستطيعون إقناع الجيل الجديد بخلود الحقائق الدينية

(١) الاستاذ مصطفى أحمد الزرقاء أستاذ الفقه الإسلامي بجامعة دمشق .

وصلاحية الحياة وتفوق الإسلام ، ويزيحون الستار عن وجه الحضارة الحديثة بنقدهم العلمي المتزن وتحليلهم الدقيق .

الحاجة إلى تدوين الفقه الاسلامي :

وما لا شك فيه أن العالم الإسلامي في أجزائه المختلفة أنجب شخصيات دينية ممتازة أثارت الإعجاب في بعض أوساط العلم الواسعة بنبوغها وفضلها ، وأتقذت طبقة كبيرة من الردة الفكرية ، كما قام بعض العلماء في بعض الأقطار بخدمة الفقه الإسلامي ومشكلاته في إطارهم الشخصي ، وعرضوا الفقه الإسلامي في ثوب قشيب ، ولكن العالم الإسلامي تعوزه حركة علمية قوية دولية ، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفع في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن أن الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادئ الخالدة ، التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام ، وهي تصلح لمسيرة الحياة الانسانية في كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس . إنه عمل ضخم يقتضيه الوقت الحاضر ، وهو نداء الوقت ، وصوت الساعة ، وبذلك نستطيع أن ننقذ العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي المعاصر من الردة الفكرية والاجتماعية ، ونسد تيار التغريب والتجدد الجارف ، الذي يحرف العالم الإسلامي اليوم بكل قوة وشدة وطغيان ، ولقد صدق محمد إقبال إذ أبدى أهمية هذا العمل ونتائج البعيدة المدى ، يقول :

« إنني أومن وأعتقد أن من درس أصول قانون العصر الحاضر ، وأثبت خلود تعاليم القرآن وبقاءها في ضوء دراسته إنما هو مجدد الإسلام في عصره وأكبر خادم للنوع البشري ، والمسلمون في كل قطر إما مشغولون بحرب الاستقلال والتحرير أو عاكفون على دراسة القانون الإسلامي ، وبالجملّة فإن هذا وقت العمل ، لأن الإسلام كما أعتقد ينقد اليوم على محك العصر الحديث ، ولعل التاريخ الإسلامي لم يشهد فترة مثل ما يشهده اليوم ” . »

والتدوين الجديد للفقّه الإسلامي لا يعني ابتكار قانون جديد يحتاج إلى وضع مبادئ جديدة أو ظهور شيء لا وجود له إلى حيز الوجود ، إنّ الفقّه الإسلامي ثروة غالية للقانون ونموذج عال للذكاء الإنساني وجهوده ، يثير الاستغراب ولا يوجد له نظير في ذخائر العالم القانونية ، إنه يحتوي على جزء كبير للحياة ومعظم أحوال العصر القديم وظروفه ، وليست حاجة اليوم إلا أن تستنبط المسائل الفرعية من أصول الفقّه الإسلامي وكلياته التي تنبع من القرآن والسنة ، وذلك لتحقيق مطالب الحياة المتطورة الحاضرة ، وتقديم حلول لمشكلاتها الحديثة .

ولتقدير قيمة الفقّه الإسلامي وذخيرته التشريعية تقدم مقتطفاً من مقدمة كتاب « المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية » للأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ، أستاذ الحقوق المدنية والشرعية الإسلامية في

كلية الحقوق بدمشق ، وهو يتحدث حول انطباعات رجال القانون الغربيين نحو التشريع الإسلامي ، في الندوة التي عقدتها شعبة الحقوق الشرقية للبحث في الفقه الإسلامي في كلية الحقوق من جامعة باريس ، باسم « أسبوع الفقه الإسلامي » .

إنه يقول :

« عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث في الفقه الاسلامي في كلية الحقوق من جامعة باريس تحت اسم «أسبوع الفقه الاسلامي» برئاسة المسيو (Milliot) أستاذ التشريع الاسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس ، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر ، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهما ، ومن المستشرقين ، واشترك فيه من مصر أربعة أعضاء : اثنان من جامعة فؤاد ، وعميد كلية الحقوق في جامعة ابراهيم ، وأحد أعضاء هيئة كبار العلماء عن الأزهر ، واشتركت فيه أنا مع الأستاذ الدكتور معروف الدواليبي عن كلية الحقوق السورية .

وقد حاضر الأعضاء في خمسة موضوعات فقهية من الحقوق العامة والخاصة (المدنية والجنائية والاقتصادية) ومن تاريخ التشريع ، عيناها مكتب المجمع الدولي للحقوق المقارنة قبل عام ووجهت الدعوة للمحاضرة فيها ، وهي : (١) اثبات الملكية (٢) الاستملاك للمصلحة العامة (٣) المسؤولية الجنائية (٤) تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها في بعض

(٥) نظرية الربا في الاسلام ، وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية ، وخصص لكل موضوع يوم ، وعقب كل محاضرة كانت تفتح مناقشات مهمة مع المحاضر وبين المؤتمرين تطول وتقصّر بحسب الحاجة ، وتسجل خلاصتها .

وفي خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء وهو نقيب محاماة سابق في باريس فقال :

« أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامي ، وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفي بجادات المجتمع العصري المتطور ، وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشات مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراہين النصوص والمبادئ » .

وفي الختام وضع المؤتمر بالاجماع هذا التقرير الذي نترجمه فيما يلي :
بناء على الفائدة المتحققة من المباحثات التي عرضت أثناء « أسبوع الفقه الاسلامي » وما جرى حولها من المناقشات التي تخلص منها بوضوح :
١ - أن مبادئ الفقه الاسلامي لها قيمة (حقوقية تشريعية) لا يمارى فيها .

٢ - وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ، هي مناط الاعجاب ، وبها يتمكن الفقه الاسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها .

يعلنون رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الاسلامي يتابع أعماله سنة فسنة، ويكلفون مكتب المؤتمر وضع قائمة للموضوعات التي أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث في الدورة القادمة .

ويأمل المؤتمر أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيه المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة .

بارقة الأمل :

ولكن الطبقة المثقفة الجديدة التي تحتل اليوم مركز القيادة لثقافته العصرية وكفاءاته الحديثة تحمل من سلامة التفكير وصلاحية قبول الحق نصيباً غير منقوص بالرغم من علاقتها وطبيعتها الخاصة ، بل قد تفوق هذه الطبقة في عزمها وقوة إرادتها واعترافها بالحقيقة بعض الطبقات الأخرى وتمتاز عنها ، إن أفراد هذه الطبقة عندما يؤمنون بمبدأ يرون من الواجب عليهم أن يستنفدوا كل طاقتهم في تبليغه ونشره، ويستفرغوا فيه جهودهم وقوتهم إلى آخر مدى ، فيها كثير ممن يحبون الإسلام ويؤمنون به كمبدأ وعقيدة ، وقد منحت هذه الطبقة جماعة المسلمين رجالاً غيارى صائبي الفكرة بعيدي النظر متفانين في خدمة الإسلام ، مجاهدين في سبيله، وكم من حركات إسلامية قامت على أكتاف الأبطال والقادة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة .

وفي الشرق الأوسط لم يظفر السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا بخيرة رجالهم إلا من هذه الطبقة ، كما أن

الهند منذ بدء حركة الخلافة إلى الحركات الدينية المعاصرة نالت أفضل رجالها وأقواهم إرادة من هذه الطبقة نفسها ، فإذا قام اليوم دعاة الدين بتبليغ رسالة الإسلام إلى هذه الطبقة بكل إخلاص ونزاهة ، ونجحوا في تثقيف عقليتهم بثقافة الإسلام وإقصاء بذرة الفساد التي بذرتها الثقافة الغربية في عقولهم ونجحوا في إشعال شرارة الإيمان التي لا تزال كامنة تحت الرماد ، نشأ فيها رجال أفذاذ متفانون في حب الإسلام أمثال الشاعر محمد إقبال والزعيم محمد علي ، وسيكون ذلك اكتشافاً مدهشاً وبالتالي ساراً لدعاة الإسلام .

ولتغيير الوضع العالمي وإحداث ثورة على الأوضاع السائدة في العالم الإسلامي ، يجب على دعاة الدين أن يوجهوا عنايتهم وجهودهم إلى هذه الطبقة ، فلم يبيل العالم الإسلامي بالردة الفكرية إلا بسوء تفكير هذه الطبقة وانحرافها ، وبذلك اتجه العالم الإسلامي اليوم من الفكر الإسلامي الخالص إلى التفكير الغربي الخالص ، وصار الجمهور بيد القيادة اللادينية كالقطعان من الضأن والغنم ، وعلى إصلاح هذه الطبقة المثقفة يتوقف انصراف الأقطار الإسلامية من التفكير الغربي إلى الفكر الإسلامي الصحيح . ولا داعي إلى اليأس والتشاؤم فإن هذه الطبقة كما وصفها محمد إقبال : « إن إقبال ليس يائساً من مزرعته الخربة ، إنها إذا تددت وابتلت قليلاً^(١) أتت بحاصل كبير .

(١) يشير إلى أن هذه الطبقة المثقفة - الثقافة الجديدة التي كان أحد أفرادها - إذا رزت حظاً من الإيمان والحنان ، وقوة العاطفة ، وروعة الشعور مع ثقافتها المصرية وقوة الإرادة ، وحس الواقع ، لكان لها شأن عظيم ، ومثلت دوراً رائداً في خدمة الإسلام ، وإنهاض الأمة .

الموقف الثالث

إذن فما هو الموقف الثالث ، وما هو الموقف العادل الذي يجب أن يقفه العالم الإسلامي تجاه هذه الحضارة الغربية ؟

إنه لا يمكن تحديد موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية حتى نعرف طبيعة الأمة الإسلامية ، ومركزها في هذا العالم ، ثم نعرف موقفها من هذه الحياة التي تصوغ الحضارات ، وتشكل المجتمعات والمدنيات .

مركز الأمة الإسلامية ورسالتها :

إن الأمة الإسلامية هي صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة ، وهذه الرسالة هي التي تسيطر - ويجب أن تسيطر - على جميع مواقفها ، وتصرفاتها ، مركزها مركز القيادة والتوجيه ، والحسبة على العالم ، والقرآن يعلن بقوة وصراحة « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخر الركب وفي صف التلاميذ والحاشية ، وأن تعيش على هامش الأمم وترضى - من القيادة والتوجيه ، والأمر والنهي ، والخلق والإبداع - بالتقليد والتطبيق ، والخضوع والإطاعة ، فلا يكون موقفها الصحيح إلا موقف الحر الكريم ، القوي الإرادة ، المستقل التفكير ، الذي يأخذ - إذا اضطر واحتاج - من حوله بإرادة واختيار ما يطابقه ويلائمه ، وما لا يبرزؤه في شخصيته وتفوقه وامتيازه ، وثقته بنفسه ومركزه ، وينبذ ما لا يلائمه ويضعف شخصيته ومركزه ويفقده امتيازه ويدبجه في غيره ، ولذلك نهيت هذه الأمة عن التشبه

يقوم في شعائهم وشاراتهم^(١) .

وهي أمة ذات هدف معين في الحياة ، ورسالة كاملة في العالم ، وحضارتها وثقافتها ، وكفاحها ، واحتاجها ، وكل ما يتصل بها من حركة ونشاط خاضع لعقيدها وغاياتها ورسالتها فلا قيمة عندها لفلسفة تقول « العلم للعلم » و « القوة للقوة » و « الاكتشاف للاكتشاف » وكذلك ليس من مهمتها بسط السيطرة على الإنسان أو على الأكوان ، وتسخير الطاقات البشرية ، أو القوى الطبيعية والفلكية لإثبات قوتها أو تقرير فتوحها المادية والعلمية ، فإن ذلك عندها ضرب من العبث ، ونوع من الأنانية المتضخمة ، والقرآن يتلو عليها ويضبط اتجاهاتها وطموحها بقوله « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين^(٢) » .

المؤمن القوي العليم الصالح المصلح :

إنما يسمح لها الإسلام بالكفاح في سبيل الحياة والطبيعة والعلم - وقد بحث عليه - لصالح البشرية وللغايات الكريمة إلى حد الضرورة ، وقد ضرب الله لها مثلاً في القرآن « بالإنسان القوي العليم الصالح المصلح الذي يسخر القوى الكونية والمادية ، ويملك أعظم مقدار من الأسباب

(١) قال العلامة الحسين بن محمد بن عبد الله الطبري (م ٧٤٣ هـ) في كتابه الكاشف عن حقائق السنن الحمديدية (شرح مشكاة المصابيح) في شرح حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » الذي أخرجه أحمد وأبو داود « هذا عام في الخلق والخلق والشمار ، ولما كان الشمار أظهر في التشبه ذكر في هذا الباب » قال العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف ببلاّ علي القاري (م ١٠١٤) في المرقاة « قلت بل الشمار هو المراد بالتشبه لا غير ، فإن الخلق الصوري لا يتصور فيه التشبه ، والخلق المنوي لا يقال فيه التشبه بل هو التخلق (ص ٤٣١ ج ٤) .

(٢) الفصص ٨٣ .

والوسائل ويوسع فتوحه ومغامراته وهو في كل ذلك ، وفي أوج قوته وسلطته وسيادته ، وتسخيره للقوى والأسباب مؤمن بربه ، خاضع له ، مؤمن بالآخرة ، ساع لها مقر بضعفه ، رحيم بالإنسانية وبالأُمم الضعيفة ، حام للحق ، يستخدم كل قوته وجهوده ومواهبه ، وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية ، وتكوين المجتمع الصالح ، وإعلاء كلمة الله ، وإخراج النَّاس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة النَّاس والمادة إلى عبادة الله ، سيرة مثلها سليمان بن داود في عصره ، ومثلها ذو القرنين في عصره ، ومثلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في عصورهم^(١) .

الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للآخرة :

أما موقفها من هذه الحياة ، فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى والمثل الأعلى ، وسدرة المنتهى في السعادة والتقدم ، إنما ينظر إليها كمرحلة « عابرة » لا بد من اجتيازها ، وكوسيلة للوصول إلى الفوز الأكبر ، والحياة الدائمة ، والعيشة الراضية ، إن القرآن يقرر - بكل وضوح وقوة - قصر هذه الحياة الدنيا ، وتفاهتها وتضاؤلها في جنب الآخرة ، فيقول مثلاً : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل^(٢) » ويقول « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون^(٣) » ويقول « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب

(١) تفسير سورة الكهف المؤلف « المسلمون » المجلد السادس عدد ٤ .

(٢) برادة ٣٨ .

(٣) النكبات ٦٤ .

الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور^(١) .

ويقرر كذلك - في وضوح وقوة - أنها قنطرة إلى الآخرة، وفرصة للعمل، فيقول: « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسنُ عملاً^(٢) » ويقول « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملاً، وهو العزيز الغفور^(٣) » ويقرر أن الآخرة خير وأبقى فيقول « وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون^(٤) » ويقول « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون^(٥) » ويذم ويشنع على من يؤثر الدنيا - هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة - على الآخرة - الباقية الخالدة ، الواسعة الصافية من الأكدار ، الخالية من الأخطار - فيقول « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، والذين هم عن آياتنا غافلون، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون^(٦) » ويقول « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون^(٧) » ويقول « وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله ويبيغونها

-
- | | | |
|------------------|----------------|------------------|
| (١) الحديد ٢٠ . | (٢) الكهف ٧ . | (٣) الملك ٢ . |
| (٤) الأنعام ٣٢ . | (٥) القصص ٦١ . | (٦) يونس ٧ - ٨ . |
| (٧) هود ١٦ . | | |

عَوَجًا ، أولئك في ضلال بعيد^(١) » ويقول « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون^(٢) » ويقول « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى^(٣) » ويقول « إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً^(٤) » ويقول « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى^(٥) » .

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إثارة جانب الآخرة على جانب الدنيا، ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها، فيقول « فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ^(٦) » ويقول على لسان نبي الله موسى « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك^(٧) » ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول « وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين^(٨) » .

وخير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة، ويحدده بدقة، ومقدرة ليست فوقها دقة ومقدرة هو الجملة الحكيمة الماثورة عن رسول الله ﷺ « إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتُمْ للآخرة^(٩) » فالمسلم يجمع بين الانتفاع

-
- | | | |
|------------------------|-------------------------------|---------------------|
| (١) إبراهيم ٣ . | (٢) الروم ٧ . | (٣) النجم ٢٩ - ٣٠ . |
| (٤) الانسان ٢٧ . | (٥) النازعات ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ . | |
| (٦) البقرة ٢٠٠ - ٢٠١ . | (٧) الأعراف ١٥٦ . | |
| (٨) النحل ١٢٢ . | (٩) رواء الطبراني في الاوسط . | |

بمرافقة الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشيء خلق لأجله وسخر له، وبين السعي للآخرة والكفاح لها كغاية خلق لأجلها، فهو ينظر إلى الدنيا وقواتها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف، ومملوك ورقيق لا كمالك وسيد، ووسيلة لا كغاية، وينظر إلى الآخرة كغاية ينتهي إليها ووطن يلجأ إليه فيجمع عليه همه ويرهق له قواه ويحث إليها مطيته، وذلك مثل النبوة الذي مثله الرسول ﷺ إذ قال « ما لي وللدنيا وما أنا والدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

وقد تجلت هذه النفسية القرآنية أو النظرة القرآنية إلى الحياة في حياة النبي ﷺ وتعاليمه وسلوكه، وكلامه وعواطفه وأمانيه ودعائه وسره وعلمه، وتجلت كذلك في حياة الصحابة الذين تربوا وتكونت سيرتهم وعقليتهم في حضارته وتحت إشرافه ومن كان على نهجهم وعلى غرارهم من التابعين والمؤمنين من هذه الأمة، بحيث قد صار ذلك طابعاً لحياتهم، ومزاجاً لا ينفك عنهم، وأصبح من الحقائق التاريخية التي لا يمارى فيها.

وهنا تتعارض الأديان السماوية، وتعاليم النبوة أو مدرسة النبوة - إن صح التعبير - مع الفلسفات المادية، والتفكير المادي الذي يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، وهي المنتهى، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها والاحتفاء بها، والحرص على ترفيها وتحسينها وتزيينها.

حضارة قائمة على القيم الدينية والروحية :

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة، والمآسي الفاجعة للبشرية

أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت في عصر قد ثار على الدين وأساسه من الإيمان بالغيب وغير ذلك، وفي أمة قد ثارت على الذين تزعموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنايتهم، واشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم في سبيل التقدم وحرية العقل والعلم، فتزافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادي العنيف، الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أسس مادية خالصة، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ومصرف هذا الكون، وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب وطبائع الأشياء، ووضع أوربا الخاص، فشبت هذه الحضارة واختمرت وهي المسيطرة على القوى والأسباب، قد بلغت الغاية في التقدم والصناعة وعلوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المساحات والأبعاد، وتتجاوز الكرة الهوائية، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية^(١).

سيطرة « المادية » على قادة التجديد في الشرق الاسلامي

وقد انتقلت هذه النفسية المادية إلى قادة حركات التجديد وبالأصح التغريب في الشرق الإسلامي وتواضعوا - من عهد كمال إلى عهد جمال - على الافتتان بالتقدم المادي واتخذوا القوة والرفاهية إلهاً يقدر ويعبد وبكفر بغيره، ويضحى على أنصابه بكل القيم الخلقية والروحية، وما ليست له قيمة مادية، وحسب القارئ أن يقرأ خطب هؤلاء الزعماء القوميين والقادة السياسيين، وما يكتبونه بين آونة وأخرى،

(١) منقول من تفسير سورة الكهف للدؤلف المنشور في « المسلمون » المجلد السادس

وما يدلون به من تصريحات، وما يتخذونه من إجراءات رسمية وخطوات عملية وما يعاملون به الأحزاب التي تفكر غير هذا التفكير ، وتسير غير هذه السيرة ، وتنتقد هذه الاتجاهات ، وحسبه أن يقرأ مشاريع الحكومة والخطط المستهدفة ومجالات النشاط والحركة والحماسة في الدوائر الرسمية ، يراها مقتصرة على ترفيه البلاد وتقويتها مادياً، ورفع مستوى الحياة ، ومجاراة الشعوب التي لا تعرف غير المادة والمحسوسات حقيقة، ولا تعرف غير القوة إلهاً ولا تعرف غير التقدم المادي والرفاهية الدنيوية هدفاً وغرضاً، ولا تعرف غير مجموعة الأفراد الذين تربط بينهم - رابطة قومية أو معاهدة سياسية - مجموعة بشرية ، تستحق الاحترام والاهتمام ، إن هذه هي النفسية التي جرت على العالم الشقاء والبلاء في كل زمان ، وهي العقلية الضيقة السقيمة التي حاربتها الأديان ، وجاء يحوها الإسلام ، وإن احتضان قادة بلد إسلامي لهذه الفكرة والعقيدة المادية الضيقة نكسة عظيمة في التفكير لا تدل إلا على ضعف الإيمان وسوء التربية، وسقوط المهمة ، وقصر النظر ، وشقاء هذه البلاد أولاً، وشقاء العالم الإنساني ثانياً .

إن الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ومركز هذه الأمة في العالم ، ومعرفة رسالتها والإيمان بقيمتها ، والتأكيد على قيمة الآخرة وما بعد هذه الحياة - من سعادة وشقاء وجنة ونار - والتأكيد على الجانب الخلقي والروحي من الحياة، هو الخط الفاصل الذي يشكل الحد الفاصل الرسمي بين الحضارتين ، حضارة يوافق عليها الإسلام ، ويتحمل مسئوليتها ،

ويباركها ، وتتجلى فيها الشخصية والأصالة والاتباع ، وحضارة يتبرأ منها الإسلام ، ويخسر فيها المسلمون ، وتتجلى فيها العبودية والرضوخ والاستسلام ، والعبادة التي لا تعرف إلا تقليد البغاوات ، ومحاكاة القروء .

عنة ذكاء وقوة إرادة :

إن التصميم الحضاري محنة ذكاء، وعصامية وعبقرية ، وقوة إرادة ، وفقه دين ، ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ، وتعديل وتحسين ، إن الإسلام قد حد حدود الحلال والحرام ، وحرم تخطي هذه الحدود ، وأفسح المجال بينها للتمتع الكريم النزيه ، في غير إسراف وإجحاف ، ومس بحقوق الآخرين وحظوظهم ، ومن غير تعرض لخطر الوقوع في الإثم والفحشاء والتبذير ، والحياة التي لا تليق بالذكور الرجال ، والكرام الاقوياء ، وهذه هي الروح التي تسيطر على أحكام اللباس ، والطعام والعشرة والاجتماع والمتعة واللذة، وحث على مراعاة المصالح ، والتجنب من المضار والمفاسد، وإعداد الممكن المستطاع من وسائل القوة والدفاع، واقتباس الصالح النافع من العلوم والحكمة ، بشرط أن لا يكون ذلك على حساب مقومات الشخصية والكرامة القومية - الإسلامية - وبشرط أن لا ينشئ ذلك في الأمة شعوراً بالنقص ، وقصوراً في الثقة ، وروح اندفاع سريع متهور إلى تقليد الآخرين ، والتشبع بروحهم ، وإجلال حياتهم وتقديسها .

نعومة حرير وصلابة حديد :

إنها أساس حضارة تملك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة

الحرير في مسامرة المقتضيات والحاجات والحقائق ، غير مفترضة ولا مختلفة ، وغير متخيلة ولا مبالغاً فيها ، وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق ، إنها مفتوحة العقل والضمير ، منسرحة الصدر ، متهيئة لاقتباس العلوم النافعة التي نشأت وتكونت في جانب بعيد في هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التي لا تمس جوهر الدين ولا تغير وضع الأخلاق .

الافادة من الغرب ومجالها :

وأحلي هذا الفصل الذي يحدد موقف العالم الإسلامي من حضارة الغرب وثقافته بقطعة جميلة من كتاب « الطريق إلى مكة » للأستاذ محمد أسد ، فقد بدا فيها الاتزان والحصافة الفكرية ، وهي تحدد - بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة - الخط العادل المتزن الذي يجب أن يسير عليه العالم الإسلامي في الإفادة من الغرب ، وتبني الوسائل الحديثة ، يقول محمد أسد :
 « إن عالمي الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب أحدهما من الآخر ، كما هما اليوم ، وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفي ، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتتغضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية ، إنهم يتركون أنفسهم ، يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب أن لا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية ، إنهم يسقطون في وثنية «التقدم» نفسها التي تردى فيها العالم الغربي بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث ، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً

ولا يكبرون ، ذلك أن كل تقليد ثقافي ، بخلاف الخلق والإبداع لا بد أن يحقر الأمة ويقلل من شأنها .

أنا لا أعني أن المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب ، وبخاصة في مجال العلوم والفنون الصناعية ، ذلك أن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس في الحق « تقليداً » وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد ، إن العلم لا غربي ولا شرقي ، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله ، إن كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه ، سواء كانوا من بني أمته أو من أبناء أمة غيرها ، وعملية البناء والإصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر ، من إنسان إلى إنسان ومن عصر إلى عصر ، ومن مدينة إلى مدينة ، بحيث أن ما يحققه عصر معين أو مدينة معينة من أعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقاً أن يقال إنها « تخص » و « تعود إلى » ذلك العصر أو إلى تلك المدينة ، فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة ما ، أمضى عزيمة وأشد همة من غيرها ، بنصيب أكبر في صندوق المعرفة ، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون ، وبصورة شرعية صحيحة في هذه العملية ، لقد جاء حين كانت مدينة المسلمين أقوى وأمضى من مدينة أوروبا فنقلت إلى أوروبا كثيراً من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا : مبادئ « تلك الطريقة العلمية » نفسها التي يركز إليها العلم الحديث ، والمدينة الحديثة ، ومع ذلك فإن

اكتشافات جابر بن حيان الكيمياوية لم تجعل من الكيمياء علماً «عربياً» كذلك لا يمكن أن يقال إن الجبر وعلم المثلثات هما علمان «إسلاميان» مع أن الأول منهما بسطه الخوارزمي ، والثاني البستاني ، وكلاهما كانا مسلمين، تماماً كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية «الانكليزية» مع أن صاحبها كان إنكليزياً ، كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله ، وإذن فإن المسلمين إذا تبنوا كما هو من واجبهم أن يفعلوا ، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية، فإنهم بذلك لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفتدون من خبرات غيرهم ، ولكنهم إذا تبنوا - وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك - أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفتدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها، ومما يدلهم عليه دينهم نفسه. ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع^(١) .

الفراغ الأكبر والعقري المطلوب :

إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو وجود ذلك العقري

(١) الطريق الى مكة للأستاذ محمد أسد (ليوبولد سابقاً) ص ٣٧٤ - ٣٧٦ .

العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء ، ويشق له طريقاً خاصاً بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، طريقاً يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر ، والمفاهيم السطحية ، متمسكاً بالحقائق وأسباب القوة ، وباللباب دون القشور .

العبقري العصامي الذي يشق له ولبلاده ولأمته طريقاً مبتكراً يجمع فيها بين الإيمان الذي اختص به الأنبياء والرسل والدين الذي أكرمه الله وأُمته به عن طريق محمد ﷺ ، وبين العلم الذي ليس ملك أمة ولا بلد ولا عصر ، يأخذ من الدين الدوافع الخيرة التي هي أعظم قوة وأغنى ثروة في خدمة الإنسانية وبناء صرح المدنية ، والغايات الرشيدة الصالحة التي لا يوحىها إلا الدين السماوي والتربية الدينية السليمة ، ويأخذ من الحضارة الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التي أنتجتها وتوصلت إليها في سيرها العلمي الطويل وفي جهادها المتواصل الشاق ، ولم ينتفع بها الغرب لإفلاسه في هذا الإيمان وفقره في هذه الدوافع الخيرة وفي هذه الغايات الصالحة ، بل أصبحت تستخدم في شقاء الإنسانية وتقويض أركان المدنية أو لغايات نافهة لا قيمة لها .

العبقري العصامي الذي يعامل الحضارة الغربية - بعلمها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقتها - كمواد خام ، يصوغ منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب ، وعلى القوة والانتاج والرفاهة وحب الابتكار في جانب آخر ، ولا يعامل

الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ إلا برمته ولا يقبل إلا على علاته ، إنما يأخذها كأجزاء ، يختار منها ما يشاء ، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة ، ونظرة خاصة إلى الدنيا ، وسلوك خاص لبني النوع ، وسعي خاص للآخرة وجهاد دائم « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » جهازاً مؤسساً على الإيمان بنبوة محمد ﷺ وأنه المثل الكامل ، والإمام الدائم والقائد المطاع والنموذج المتبع والسيد المحبوب ، والخضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساس للتقنين ، والدين الوحيد الذي تنال به سعادة الدنيا والآخرة ولا يقبل الله سواه .

العسكري العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده وما ينفع عملياً وما ليس عليه طابع غرب أو شرق ، إنما هي علوم تجريدية تطبيقية ، وينفض عن كل ما يأخذ من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة وفي عصر الثورة على الدين ، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس ، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الإلحاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة ، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومديره ، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون .

العسكري العصامي الذي لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد ، وإلى نفسه كقلد وتلميذ دائم ، إنما ينظر إلى الغرب كزميل سبق ،

وكقرين تفوق في بعض العلوم المادية والمعاشية فيأخذ منه ما فاته من التجارب ويفيض عليه بدوره ما سعدة من تراث النبوة ، ويعتقد أنه إن كان في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيراً ، فالغرب في حاجة إلى أن يتعلم منه كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب ، ويحاول أن ينهج - بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق وقوى الروحانية والمادية - منهجاً جديداً يجدر بالغرب تقليده وتقديره ، ويضيف إلى المدارس الفكرية والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع .

هذا هو العبقرى العصامى الذى لا يزال مفقوداً في صفوف القادة والزعماء في العالم الإسلامى على كثرتهم وتنوعهم ، وهذا هو العملاق حقاً الذى يبدو في جانبه القادة المقلدون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام .

وإنها أعظم تجربة وأبعدها أثراً ليس في محيط شعب أو بلد ، وليس في محيط العالم الإسلامى فحسب بل في محيط العالم وفي محيط الإنسانية كلها ، وإن التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها في الأقطار الإسلامية والعربية ، ممسك قلبه ليسطر له سطور الثناء والإحلال ويقلده الزعامة الحقيقية ، ومركز التجديد في العالم الإسلامى ، والعبقرية والعصامية في التاريخ الإنسانى ؟

ثورة في التفكير :

ولكننا إذا أردنا أن نعيّن موقفنا من الحضارة الغربية ونتجه الاتجاه

الذي يستطيع أن يملأ هذا الفراغ الهائل في العالم الإسلامي، بل في القيادة العالمية، ويرد إلى الأمة الإسلامية اعتبارها ومركزها الحقيقي وجب علينا أن نحدث ثورة في التفكير، فقد كانت النظرة التي اعتاد قادة الفكر وزعماء السياسة وأولياء الأمور في العالم الإسلامي، أن ينظروا بها إلى الأمة الإسلامية وإلى أنفسهم نظرة سطحية ودليل افلاس كبير وانهار عظيم في التفكير والنظر وفي تقدير القيم والمفاهيم.

منذ قرون طويلة بدأنا ننظر إلى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة في العالم منتشرة في البلاد، ذات قوميات مختلفة ولغات متنوعة وثقافات محلية، محاطة بظروف وأجواء خاصة، و «إمكانيات» محدودة، تجمع بين فروعها المختلفة وأسرها المشتتة «وحدتان» اثنتان لاثالثتهما، «العقيدة» والخضوع للغرب، والاعتماد عليه في المعيشة والسياسة.

ومنذ مدة طويلة بدأنا نرت أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات «والامكانيات» وبما نملكه من الوسائل والمواد الخام، وحواصل البلاد ومنتجاتها، وعدد النفوس، والقوة الحربية، فنرى كفتنا راجحة في إقليم، طائشة في آخر، راجحة في حين، طائشة في حين آخر.

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول ولا التطور، وتجدد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة، «إذا قيل لك أن التترانهمزوا

فلا تصدق»^(١) .

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة، وإذا فكرنا في ذلك - على حين غفلة من العلم والدراسة والكياسة - استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا وسهمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق إلاّ للخضوع والخنوع ولنعيش على هامش الحياة ، وعيالا على الغرب مكبلين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين .

هكذا يفكر العرب ، وهكذا يفكر المسلمون في باكستان ، وفي أندونيسيا ، وفي تركيا .

وهكذا يفكر الناس في اليابان، وفي الصين ، وفي الهند، وفي سيام، وفي بورما .

هذا هو التفكير « السليم » ، وهذا هو المنطق « السديد » - كما يسميه الناس - وهذا هو الاستنتاج العلمي المبني على الدراسة والإيمان بقوة الأسباب وطبيعة الأشياء .

ولكن هناك جماعة لا تقبل هذا التفكير ، ولا تؤمن بهذا المنطق ، بل تثور على هذا المنهج الفكري ، ثورة قوية عارمة ، إن لها منهجاً - في العمل - مختصاً بها ، وإلى هذا المنهج يرجع الفضل في أفضل

(١) كان ذلك المثل هو المجلة المأثورة الشائعة في المجتمع الاسلامي في القرن السابم عند غزو التتار للعالم الإسلامي واخضاعه من أنصاه إلى أنصاه .

الثورات وأصلحها وأقواها في التاريخ وفي تغير الأوضاع في العالم تغيراً مدهشاً وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل وصالح المجتمع البشري بعد الفساد الشامل .

ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج ، ولا مستقبل للأمم - التي تؤمن بالمبادئ وتحتضن الدعوات - إلا في هذا المنهج .

ليس شيء أشد خطراً على المسلمين من هذا التفكير الذي تسلط على عقلية قادة العالم الإسلامي في العهد الأخير ، وهو النظر إلى الأمم الإسلامية - في مختلف أنحاء العالم - ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى التي لا رسالة لها في العالم ولا دعوة لها للأمم ، توزن في ميزان الامكانيات والوسائل والاستعداد المادي ، وتقوم بما تملكه من ثروة وذخائر ، والتناسي أو الإعراض عن قوتها الكبرى « الإيماء والطاعة والدعوة إلى الله » .

إن المسلمين لا شك فقراء ضعفاء متخلفون في العلم والصناعة وفي الاقتصاد والسياسة ، المسافة بينهم وبين الأمم الأوربية مسافة قرون وعهود ، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة ولينل ذلك منهم كل عناية ورعاية .

ولكنهم في وقت واحد القوة الكبرى في العالم فعندهم دين هو حاجة البشرية كلها ، وعندهم دعوة تنقذ العالم من نهايته الأليمة التي تنتظره وتدنو إليه ، وعندهم الإيمان الذي يخلق الأمانة والشعور بالمسؤولية في النفوس ويخلق الدوافع القوية إلى عمل الخير وخدمة الإنسانية وقد

حرمته الأم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كل الأسباب والوسائل لعمل الخير وخدمة الإنسانية ، فأصبحت هذه الوسائل ضائعة بل متجهة إلى القضاء على المدنية والإنسانية ، وحاجة أوروبا في اقتباس هذا الإيمان من المسلمين أشد وأعظم من حاجتنا إلى الاقتباس من صنائعها وعلومها ، لأن هذا الإيمان هو الأساس وهو الموجه وهو الضابط ! وعندهم شريعة تحل جميع المشاكل والأزمات التي يواجهها المجتمع البشري في القرن العشرين ، وعندهم - أولاً وآخرأ - نبي أرسل رحمة للعالمين « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم » .

ألا فليتجه قادة العالم الإسلامي بهذه الدعوة إلى أوروبا الحائرة التائهة بإخلاص ونزاهة وتوجع وشفقة ، وبقوة وثقة وإيمان ، ولينظروا إلى أنفسهم كدعاة ومنقذين ، مبشرين ، منذرين ، ويستخدموا هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرهم ومصير العالم وليحتلوا بفضلها مكان الزعامة والقيادة في ركب الإنسانية ومصاف الأمم ، بعدما عاشوا زمناً طويلاً في مؤخر الركب وفي صف التلاميذ والحاشية ، وليتجهوا بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي إما تقبل فترفع وتؤمن ، وإما ترفض فتهلك وتقهّر ، بهذه الدعوة التي أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها .

وليتجهوا بهذه الدعوة إلى مجالات مهجورة وكنوز مطمورة في آسيا وفي أفريقية ، إلى الشعوب التي ملكت الوسائل والعلم والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصبة والسواعد القوية ، وجهلت الدين

والغايات الصالحة والمبادئ الفاضلة، وهي مستعدة لقبول هذه الدعوة، وإذا قبلت هذه الدعوة وفقهتها وأخلصت لها تغير مجرى التاريخ من جديد كما تغير في العهد الأول بإسلام الفرس والترك والديلم، وفي العهد الأوسط بإسلام التتار والمغول .

لقد بلغت الحضارة الغربية قمتها وأوجها ، وأصبحت البلاد الإسلامية بفعل العوامل الكثيرة، وتاريخها الطويل عاجزة عن مناهضتها أو مسايرتها في شوط واحد ، وإذا أمكن ذلك فإن العقيدة التي تدن بها، والمبادئ التي تؤمن بها والغاية التي تتقيد بها لا تسمح لها بأن تكون نسخة مطابقة للامم الغربية، فإن ذلك يعني الانتحار الاجتماعي، لذلك كان بين التقليد والاتباع وبين السلب والنفي طريق وسط ، مشرف كريم، ومتميز مستقيم، يتفق مع مركز هذه الأمة ورسالتها كل الاتفاق، ويعتبر أعظم محاولة وأشرف تجربة في التاريخ الحديث وهو قيادة الحضارة الحديثة وتوجيهها، ونفخ الروح الجديدة فيها، ومنحها الغايات الصالحة والأهداف الصحيحة وتلقيحها بالإيمان والحب، الذين تجردت عنها منذ زمن طويل ، والذين تجود بها النبوة وتعاليم السماء ، المهمة التي لا ينوء بها ولا يقوى عليها إلا العالم الإسلامي ، ولا يحلم بها أحد من غير المسلمين ولا تحظر على بال إلا في العالم الإسلامي ، ولكي نفهم حاجة الإنسانية الشديدة إلى هذا التلقيح المبارك ونعرف مدى جناية الفصام النكد الذي وقع بين العلم والإيمان والوسائل والغايات ، وبين الشرق والغرب، لا بد من تفصيل وبسط قرين في هذا الموضوع، وإلى

القارىء الكريم قطعة من محاضرة للمؤلف أُلقيت في جامعة لندن في سنة ١٩٦٤م، وقد حددت، فيها بوضوح وصراحة مهمة الشرق الإسلامي: « لقد ظل الشرق بعيداً عن الغرب ، مستقلاً بنفسه ورسالته ، وظل الغرب بعيداً عن الشرق مستقلاً بنفسه ورسالته ، لا يلتقيان إلا تحت نقع الشبهات والظنون ، والإحن والأحقاد ، لا يلتقيان لصالح الإنسانية المشتركة ، ولبناء المدنية المثلى ، ولا يتبادلان ما يختصان به من مواهب إلهية وعلوم مكتسبة ، واستعدادات فطرية ، وما أنتجاه وأبدعاه على مر الدهور والأعصار من علم وفلسفة ، وأدب وحكمة ، إلا نادراً وفي دائرة محدودة .

ظل الشرق يعمل في مجاله الطبيعي، ويدافع في فطرته التي اختمرت مع الدين ، توقظها النبوة الكريمة حيناً بعد حين ، وتغذيها الدعوات الدينية والشخصيات الروحية القوية باتصال واستمرار، وكان موضوعه « الإنسان » وكان موضوعه هذا الإنسان أكثر مما حول الإنسان وتحت قدمه وفوق رأسه ، عني به الشرق بإخلاص وجد ، وجاهد فيه جهاداً كبيراً ووهب له جميع مواهبه، وصب في هذا الموضوع ذكاءه وعبقريته، وقوة إرادته ، عني باكتشاف أسرارهِ التي لا نهاية لها ، وسبر غوره الذي لا قرارة له ، وإشعال مواهبه وإثارة قواه التي لا تعد لها قوة في هذه الأرض ، وتنظيم ميوله واتجاهاته ، وتهذيب أخلاقه التي لا صلاح للبشرية بغير صلاحها .

جاء الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — وجاء في آخرهم النبي العربي

الأمي ﷺ فعني بهذا الإنسان وتربيته وإثارة كنوزه ودفائنه ، وفتح فيه عين البصيرة التي يدرك بها خالقه ورب هذا الكون الواسع العجيب ، ويستمد بها النور والحياة ، والعلم ، والحب ، والثقة ، والعزم ، والطمأنينة ، والرضا ، ويعرف بها مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذا الكون ، فيعثر بذلك على المركز الذي يربط به الوحدات المبعثرة في هذا العالم ، فيترائي له هذا الكون وحدة لا تبعثر فيها ، ولا تناقض ، ولا فوضى فيها ولا تنافس ، ولا توجد فيه مناطق مستقلة متناكرة متحاربة ، إنما هي مملكة منظمة واحدة ، تديرها إدارة قاهرة رحيمة واحدة ، « ألا له الخلق والأمر » ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً » يتخلص بذلك عن جميع أقسام الوثنية والثنوية ، وعن الأوهام والخرافات ، وسلطان الأساطير والروايات ، والتقاليد والعادات ، ويترفع عن الخضوع لغير فاطر الكون ومدبره ، حجراً كان أو شجراً ، بحراً كان أو نهراً ، شمساً كانت أو قمرأ ، ملكاً كان أو بشراً ، أنثى كانت أو ذكراً « رب السماوات والأرض فاعبدوا واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً » .

وفتح فيه النافذة التي نظر منها إلى نفسه وجنسه ، فوجده خليفة الله في هذا العالم ، نفخ فيه من روحه ، وجعله موضع سره ، ومستودع أمانته ، خلقه في أحسن تقويم ، وخصه بأفضل تكريم ، وخلع عليه لباس النياحة والوصاية ، وألبسه تاج الكرامة والإمامة ، وخلق له ما في الأرض جميعاً ، وخلق له نفسه ، وأسجد له ملائكته فحرم عليه بذلك السجود والخضوع لأي كائن مخلوق « لقد خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم^(١) » ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً^(٢) .

ونظر منها إلى بني نوعه ، نظر منها إلى الأسرة البشرية المنتشرة في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدها أسرة موحدة كنفس واحدة ، تلتقي على أب واحد وأم واحدة يعتبرها - في ضوء تعاليم النبوة - عيال الله ، ويعتقد أن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ووجدها تحمل روحاً ونفساً وشعوراً ، يالم كل عضو منها كما يالم الآخر ، ووجد أن التمييز بين أعضاء هذه الأسرة على أساس اللون ، أو الوطن ، أو الشعب ، أو الفقر ، أو النسب ، تراث جاهلي ، وقد سمع هذا النبي الكريم مرة يقول لربه في ظلام الليل خالياً « أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة^(٣) » وأخرى يقول في ضوء النهار ، وأمام الجمع الحاشد : « إن الله يقول : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فليس لعربي على عجمي فضل ولا لعجمي على عربي فضل ، ولا لأسود على أبيض فضل ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى^(٤) » .

عني الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - في عصورهم ومناطق

(١) التين - ٤ .

(٢) الاسراء - ٧٠ .

(٣) سنن أبي داود .

(٤) الجمع الكبير للطبراني ، خطبة حجة الوداع .

دعوتهم ، وعني النبي العربي الأُمِّي ﷺ في آخرهم بتربية هذا الإنسان وتحريك مواهبه واستعداداته التي لم تبلغ الفلسفة أو علم النفس أو الاكتشافات الحديثة بعد إلى نهايتها وقراراتها ، ثم عني بتنظيمها وتوجيهها إلى صالح نفسه وصالح الإنسانية ، وأثار فيه رغبة غريبة ، ونهامة غريبة لإرضاء الرب والتقرب إليه ببذل النفس والنفيس ، والتفاني في حبه وطاعته ، وفي محبة خلقه وخدمتهم ، وإزالة المكروه عنهم وما يضرهم في الدنيا والآخرة ، وإيثارهم على نفسه ، ومحاسبة النفس الدقيقة ، ودقائق الإخلاص والأخلاق ، الدقائق التي لا يبلغ اليها ذكاء الأذكاء ، ولا يدرك كنهها علم العلماء ، والتي هي أدق من المعاني الشعرية ، والأخيلة البديعة في آدابنا ، ولا ترى بأدق مكبرة ، ولا تصور بأحدث آلة ، ووصل في عزارة الحب ، وقوة العاطفة ، ورقة الشعور ، ودقة الإحساس ، وشفافة الروح ، ونبيل الأخلاق وكرامة النفس ، والتجرد عن الأنانية ، والزهد في زخارف الدنيا على المقدرة ، وسمو الفكر ، وعلو الهمة ، وشدة الشوق إلى لقاء الرب ، وفي علم الذات والصفات الدقيق العميق ؛ ما لا يتصوره إنسان ؛ إلا إذا عاش مدة في سيرهم وأخبارهم ؛ ونزل في أعماقهم ، وأغوارهم ؛ فكان « الإنسان » ماثرة النبوة الكبرى ؛ والحقل الذي تعهده وبذروا فيه البذور الكريمة فأثى بأكبر حاصل ؛ وأفضل زرع .

إن الأنبياء في الشرق ، لم يعنوا باكتشاف القوى المرددة في هذا الكون وتسخيرها واستخدامها كثيراً ، ولا باختراع الآلات والوسائل عناية كبيرة ، إنما كان جل عنايتهم تربية الإنسان وإيجاد الإرادة الخيرة

والدوافع الفاضلة فيه ، وتحديد الغايات الصالحة له ، والثروة الطبيعية أو الصناعية كما تعلمون خاضعة دائماً لإرادة الإنسان واتجاهه وغاياته ، فلما وجدت في الإنسان الإرادة الخيرة ، والدافع القوي الفاضل ، وعرف الإنسان الغاية الصالحة التي يجب أن يسعى لها ، استطاع أن يعمل بثروته المحدودة المتواضعة ، وبآلات والمرافق المحدودة الضعيفة - التي وصلت إليها المدنية والعلم في عصره - أعمالاً عظيمة لم تتوصل إليها المدنية إلى هذا العصر ، وخدم بها الإنسانية وبني نوعه خدمة لم يوفق لها كثير ممن ملكوا ثروة ضخمة من الآلات والوسائل ، ذلك لأنه إذا وجدت الإرادة القوية المحلصة الجادة ، اكتشفت المجهول وأبدعت الوسائل ، وتغلبت على الصعوبات ، وشقت طريقها في صخور الجبال وأحشاء البحار ، وإذا فقدت ضاعت الوسائل ، وتعطلت الآلات وحبطت جهود المكتشفين والصناع ، إن الجوع اللاذع والظما القاتل ، وحنان الأم ، ولوعة الحب ، وشدة الشوق لم تكن في عصر من العصور في حاجة إلى علم كبير وآلات كثيرة ، ولقد عرفت في كل مكان ، وفي كل زمان كيف تقضي حاجاتها ، وكيف تصل إلى غايتها .

وقد أوجد الأنبياء بقوة شخصيتهم وتأثير تربيتهم رغبة في الإنسان يشعر معها بأنه مدفوع إلى تحقيقها ، كما يشعر الجائع ، والظمآن ، والأم الحنون ، والمحِب العاني ، فاكتشف الطرق الموصلة إليه والوسائل الضامنة له ، وكانت كافية في عصره الذي يعيش فيه ، وهكذا وجدت المدنية الفاضلة التي تمتع فيها الإنسان بأكبر قسط من الراحة والسلام ،

والعزة والكرامة وكانت مدنية محدودة بسيطة، لا تعقد فيها ولا غموض قابلة للتوسع والتقدم في المستقبل على أساس صالح سليم .

وجاء دور نشاط الغرب وإنتاجه ونهضته ، وقد ضعفت صلته بالدين والأخلاق لسوء تمثيل من تزعمها واحتكرها من العلماء ورجال الدين زمناً طويلاً ، ولضعف هذه الصلة العميقة ولضغط الحاجات الاقتصادية والعوامل السياسية، ولعنف « التنازع للبقاء » في هذه الرقعة المحدودة الأوربية ، اتجهت عناية الغرب – بدل الإنسان – إلى بيئة الإنسان ومحيطه، وبدل النفس والقلب إلى آفاق الطبيعة الغنية بالقوى والأسرار، وإلى المعادن والمناجم، وعلوم الكيمياء والفيزياء ، والرياضة والهندسة، والصناعة والميكانيكا، وقد جرت سنة الله أن يؤتي كل إنسان ما طلبه وسعى له، وينسخر له ويمده فيه، والقرآن يقول: « كلاً نمدّهو لاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً^(١) » ويقول: « ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى^(٢) » فصار الغرب يقطع أشواطاً واسعة في علوم الكون والطبيعة والفنون الرياضية والهندسية، ويكتشف سرّاً بعد سر ، ويصل إلى فتح بعد فتح ، حتى وصل إلى ما وصل إليه في العصر الحديث مما لم يكن الإنسان مهما أوتي من الذكاء في القرون الماضية يحلم به أو يتخيله .

(١) الاسراء - ٢٠ .

(٢) النجم - ٤١ .

لقد تهيأت هذه الأسباب وهذه الوسائل ، وكانت نعمة من الله لا يستهان بقيمتها وفضلها، وتضخمت وتكدست ، وكانت لغاية واحدة مائة وسيلة وآلة ، وكل فيها الغناء الكبير ، والقوة الهائلة ، والسرعة المدهشة، وكانت أقل منها كافلة لسعادة البشرية وهنائها ورخائها وإقامة السلام العالمي ، ونشر الحب والوحدة ، والتعارف والتعاون بين فروع هذه الأسرة المنتشرة في العالم ورفع الحواجز بينها وإزالة السدود دونها، يستطيع الإنسان اليوم أن يمد يد المساعدة والبر والمواساة إلى أقصى رجل في العالم ، ويسمع دقات قلبه وخليجات نفسه ، ويرى وجهه ويسمع كلامه ، ويمنع الظلم - إذا أراد - وينصر المظلوم ، ويمير الجائع في صحراء أفريقية ويغيث الملهوف في أقصى الصين ، وقد زال كل مانع كان سببه جهل الإنسان وضعفه، والذي كان يتعلل به القدماء الضعفاء، وحدثت كل آلة يحقق بها الإنسان إرادته، ويصل بها إلى غايته في أقرب وأقل جهد ، فلا عذر لطالب خير ، ومحب إنسانية ، ومؤيد سلام ، ولا عذر لفرد ولا لمجتمع ، ولا للحكومة .

لقد كانت هذه الوسائل كافلة بأن تحول هذه الدنيا المليئة بالأكدار والأخطار ، المشخنة بالجراح إلى جنة أرضية ، لا نصب فيها ولا لغوب ولا خوف فيها ولا حزن ، ولا حرب فيها ولا عداوة ، ولا فرق فيها ولا مرض ، ولكن هل تحقق ذلك ، وهل زال الخوف والقلق . وهل انتهى الفقر والبؤس ، وهل انقرض الظلم والهمجية ، وهل ساد السلام والإخاء ، وهل انتشرت الثقة بين أفراد الأسرة الإنسانية ، وهل زال

شبح الحروب المخيف ، ومات عفريتها الراعن ؟ إنني لست في حاجة إلى أن أقف وأنتظر جوابكم ، فإن هذا العصر قد شهد حربين طاحنتين مدمرتين عالميتين ، وساهم في نتائجها وويلاتها ونحن كلنا نعيش في عصر الذرة وهولها ، وقد ملأ المفكرون والكتاب المكتبة الحديثة بالكتب التي تصور انحراف هذه المدنية وشقاء أهلها بها ويندبون فيها التفسخ الخلقي ، وتحلل الروابط ، وتفكك الأسر ، وانتشار القلق والاضطراب وتسلب الخوف والذعر ، وفي ما كتب ويكتب كفاية وبلاغ .

لماذا كانت هذه النتيجة ؟ والوسائل بريئة ، والآلات صماء لا ضمير لها ولا اتجاه ، وهي صالحة مهياة للخدمة والنفع في كل وقت إذا أراد صاحبها ومعرفها ، إن الجواب ليس سرأ يكتشف أو لغزاً يُحل ، وليس فيه امتحان ذكاء وتفكير ، والسبب أن الإنسان لم يتقدم بقدر ماتقدمت العلوم ، وأن الأخلاق والميول والاتجاهات لم تتقدم بقدر ما تقدمت الآلات والمؤسسات ، بل الواقع أن العلوم تقدمت على حساب الإنسان وعلى حساب الأخلاق ، وإن الآلات والمؤسسات تقدمت على حساب الميول والاتجاهات ، وعلى حساب الروح والقلب ، ذلك لأن الغرب - مع الأسف الشديد - حصر نشاطه وذكاءه وقوة إرادته في المجال الخارجي ، وركز كل جهده وكرسه على العالم الخارجي ، وانصرف عن الإنسان انصرافاً كلياً ، وإذا أقبل عليه - في دائرة علم النفس أو علم الأحياء - أقبل بفكر مادي محدود لا يتناول أغواره وخصائصه ، وإيمانه وعقيدته ، وأخلاقه ، ولم يتناول المصدر الذي يقوده ويوجهه ،

وينعنه من الشر ، ويدفعه إلى الخير ، وذلك هو القلب الذي إذا صلح صلح الإنسان ، وإذا فسد ، فسد الإنسان .

ومع الأسف إذا أراد الغرب أن يقبل على هذا القلب وينتفع به ويوجه به الإنسانية لم يستطع ولا يجد إلى ذلك سبيلاً ، لأنه فقد المفتاح الذي يفتح به هذا القفل ، والقفل لا يفتح بغير مفتاحه ، وعجزت صناعته الدقيقة ، ومصانعه الهائلة ، ونوابغه العباقرية عن أن يصنعوا له المفتاح الجديد ، أو يكسروا له هذا القفل العنيد ، لأنه قفل الإنسانية ، لا قفل البنوك والمصانع ، ولا قفل الصناديق والخزانات ، لا يفتح إلا بمفتاح الإيمان ، ومفتاح الإيمان الذي أتحفت به النبوة الإنسانية في الزمن القديم ، مفقود أو مطمور في الغرب تحت ركام المدنية أو أنقاض المعابد من قديم .

الجمع بين الغايات والوسائل ، والعلم والإيمان :

إن شقاء الإنسانية في انفصال الغرب عن الشرق ، وفي انفصال العلم عن الإيمان ، وفي انفصال المؤسسات عن الأخلاق والغايات الصالحة ، هذا الانفصال النكد الذي جرَّ على مدينتنا شقاءً طويلاً ، والإيمان تقدم وتضخم في الشرق قديماً ، والعلم تقدم وتضخم في الغرب حديثاً ، والإيمان لا يزال ينتظر مرافقة العلم ، والعلم لا يزال ينتظر مراقبة الإيمان ، والإنسانية تنتظر التقاءهما وتعاونهما ، في بناء المجتمع الجديد ، وفي إنشاء الجيل السعيد ، ولا أمل في السلام والسعادة الحقيقية ؛ إلا بهذا الالتقاء المبارك والتعاون الكريم ، وليست ثروة الشرق ، هي هذا النفط - الذهب

الأسود - الذي ينقله الغربيون إلى عواصمهم لتتحرك به هذه المدنية بطائراتها ، وسياراتها ، إن ثروة الشرق ، وهديته ذلك الإيمان الذي ينبع وفاض في الشرق ، وأخذ الغربيون منه نصيباً في بداية تقويمهم الميلادي ، ثم نبع وفاض بقوة هائلة ، قوة لا نظير لها في التاريخ في القرن السابع من تقويمهم ، نبع في ركن بعيد من جزيرة العرب ، ثم فاض في العالم وأروى الإنسانية كلها ، ولا يزال في متناول يد كل شعب وكل فرد ، إذا صحت العزيمة ووجدت الجراءة الخلقية ، ولا يزال جديراً قادراً على إزالة جميع المشكلات التي تعانيتها هذه المدنية ، ويستطيع أن يفيض على هذه المدنية - بقوته وحيويته العجيبة - حياة جديدة ، وينحها قسماً جديداً ، من الحياة ، ونوعاً جديداً من الرسالة ، ويحول هذه الآلات والمؤسسات وهذه العلوم والصناعات إلى غايات رشيدة صالحة بناءً ويستخدمها في صالح الإنسانية وفي بناء المجتمع الجديد ، المجتمع الذي يتطلع إليه هذا العصر .

إمامة العصر الحاضر :

إن دعوة أوربا إلى الإيمان والإفادة من النبوة أكبر ثورة وأضخم رسالة في العصر الجديد ، ولا ينوء بهذه الدعوة ولا يقوم بأعبائها إلا البلاد الإسلامية التي لا تزال فيها شرارة الإيمان ، ولا تزال فيها أمانة النبوة وميراثها ، والتي تستطيع أن تشرح للغرب حاجته إلى هذا الاقتباس الكريم ، وما يفيضه هذا الاقتباس على الغرب وعلى العالم من يمن وسعادة ، ويضع هذه الوسائل والذخائر في صالح الإنسانية وإسعاد

البشرية ، ويُبعد أوروبا والعالم بدوره من الهاوية التي لا قرار لها ، والتي تسير إليها أوروبا بسرعة القنبلة الذرية وقوتها .

وإن هذه الدعوة هي التي تستطيع وحدها أن تضيء على الأقطار الإسلامية حياة جديدة ، وثقة جديدة ، وترفعها إلى قمة الكرامة والإمامة فإن الأمم كما شهد التاريخ لا تنهض ولا تلمع ولا تسود على العالم إلا برسالتها ، أو بما تنطوي عليه من صالح البشرية ، وبما تستطيع أن تقوم به من ثورة وإحداث انقلاب في الأوضاع وإن أساس الأمة الإسلامية الدعوة إلى الله والإرشاد والسعي والجهاد وإتمام الحجة على العباد ، والقرآن لا يزال يخاطب أفراد هذه الأمة على اختلاف أعصارهم وطبقاتهم ، وبيئاتهم ، بقوله :

« وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ، هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ^(١) » .

المحتوى

كلمة بين يدي الكتاب	٥
الموقف الأول من الحضارة الغربية : الموقف السلي	٩
العالم الإسلامي أمام مشكلة الحضارة الغربية – المزيج الغريب	١١
الموقف الأول السلي	١٢
حكم هذا الموقف طبعياً وشرعياً ، ونتائج	١٣
مصير الأقطار التي تعيش في عزلة عن العالم	١٥
التقاليد والعادات لا تستطيع أن تقاوم الحضارة الجديدة	٢١
لا بد من التخطيط وإصلاح الأوضاع	٢٢
سبب حدوث الثورات في العالم الإسلامي ، وعلاجه	٣٤ ✓
الموقف الثاني حركة التغريب والتقدمية في العالم الاسلامي	٣٧
أنصارها ومنفدوها	
الموقف الثاني موقف الاستسلام والتقليد – حركة التغريب في	٣٩
تركيا وأسبابها	
المرحلة الدقيقة العسيرة	٤٠
البطائفتان القديمة والجديدة	٤٣
ضياء كوك ألب وفلسفته	٤٤

دور تركيا التقليدي	٥٢
نامق كمال	٥٤
كمال أتاترك، نموه الفكري، طبيعته وعقليته وخصائصه الطبيعية	٥٨
إصلاحات أتاترك وخطواته الثورية	٦٨
تأثير أتاترك في العالم الإسلامي	٧٢
الصراع بين الشرق والغرب في الهند .	٧٣
القيادة الدينية والمدرسة القديمة	٧٤
حركة ندوة العلماء	٧٧
قيادة السيد أحمد خان ومدرسته الفكرية	٨٢
جوانب الضعف في فكرة السيد أحمد خان	٨٧
محصول هذه الحركة وانتاجها	٩١
أكبر الاله آبادي الشاعر الثائر	٩٢
الحركة الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية	٩٤
محمد إقبال وتقده للحضارة الغربية	٩٧ ①
الحضارة الغربية والأقطار الإسلامية	١٠٤ ✓
نقده لدعاة التجديد في الشرق	١٠٥
إيمانه بفضل الحضارة الإسلامية وحيويتها - العمل الإسلامي الجديد	١٠٧
العملية في الامتحان	١٠٩
الجماعة الإسلامية في باكستان	١١٣
أهمية الدور الذين تمثله مصر في العالم الإسلامي	١١٧

- ١١٨ ✓ الحاجة إلى قناة جديدة
- ١٢٠ موقف مصر التقليدي الضعيف - السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده
- ١٢٤ فضل حركة السيد جمال الدين ومدرسته
- ١٢٥ المتخرجون في أوروبا طلائع الفكر الغربي في العالم العربي
- ١٢٧ ✓ الدعوة إلى تحرير المرأة وأثرها
- ١٣٠ صدى أفكار المستشرقين في مصر
- ١٣٢ اتجاه حركة التأليف والترجمة إلى الأدب والاجتماع
- ١٣٣ (٣) صورة من الحياة الغربية
- ١٣٥ ✓ دعوة طه حسين مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب
- ١٣٧ مستوى فكري نازل
- ١٣٨ حركة الاخوان المسلمين وتأثيرها
- ١٤٠ ✓ ثورة ٢٣ يوليو في مصر
- ١٤٢ محاولة تطوير المجتمع المصري والعربي كلياً
- ١٤٥ تأثير الثورة المصرية وقيادتها في العالم العربي
- ١٤٦ طليعة ردة فكرية - سوريا والعراق
- ١٥٠ إيران
- ١٥٣ اندونيسيا
- ١٥٥ الأقطار الإسلامية المتحررة حديثاً في طريق التغريب
- ١٥٨ تونس

الجزائر	١٦٢
عملية هدم وإزالة أنقاض	١٦٥
رجعية التقدميين	١٦٦
تقليد دعاة التجديد	١٦٨
إسراف الدول الإسلامية المتخلفة	١٦٩
صراع بين الحكومات والشعوب - إهمال طاقات وكنوز مخبوءة	١٧١
تقليد الحضارة الغربية ونتائجها	١٧٢
أسباب التجدد والغريب وعلاجها	١٧٥
نظام التعليم الغربي	١٧٧
حل المشكلة	١٨٩
المستشرقون ونفوذهم في ميدان التفكير	١٩٣ ✓
تخلف العلوم الإسلامية وركود الفكر الإسلامي	٢٠٩
الحاجة إلى تدوين الفقه الإسلامي	٢١١
بارقة الأمل	٢١٥
الموقف الثالث	٢١٧
مركز الأمة الإسلامية ورسالتها	٢١٩
المؤمن القوي العليم الصالح المصلح	٢٢٠
الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للأخرة	٢٢١
حضارة ثائرة على القيم الدينية والروحية	٢٢٤
سيطرة المادية على قادة التجديد في الشرق الإسلامي	٢٢٥

- ٢٢٧ محنة ذكاء وقوة إرادة - نعومة حرير وصلابة حديد
- ٢٢٨ الافادة من الغرب ومجالها
- ٢٣٠ الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب
- ٢٣٣ ثورة في التفكير
- ٢٤٧ الجمع بين الغايات والوسائل والعلم والإيمان
- ٢٤٨ إمامة العصر الحاضر